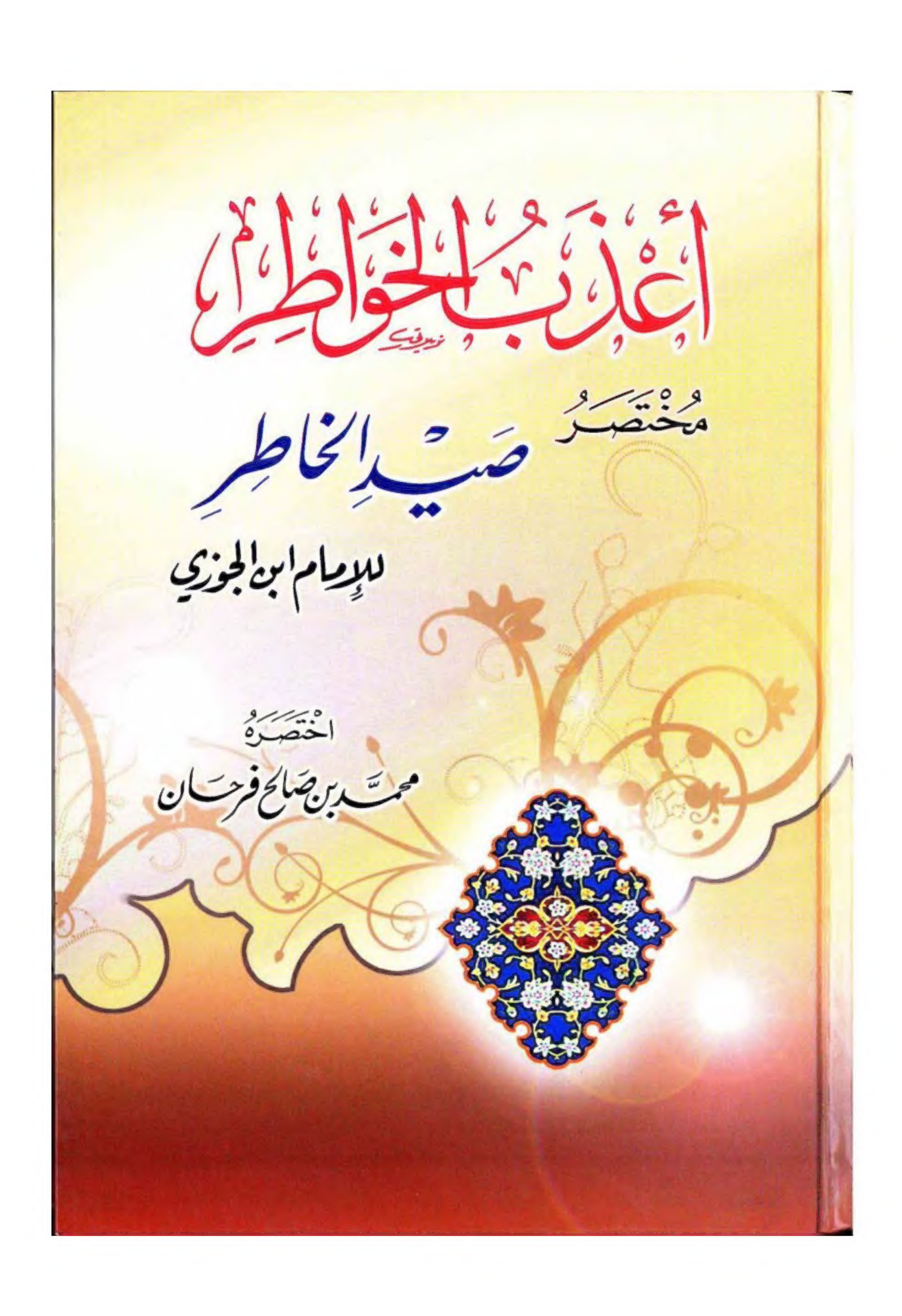
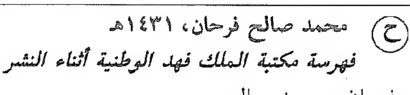

أعذب الخواطر
مختصر
صيد الخاطر
للإمام ابن الجوزي
اختصره
محمد بن صالح فرحان

ح محمد صالح فرحان، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
فرحان، محمد صالح
أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر./ محمد صالح فرحان.-
الدمام، ١٤٣١هـ
٢٧٨ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ١ ـ ٥٤٤١ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ الوعظ والإرشاد أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣١/٥٦٤١



الطبعة الأولى

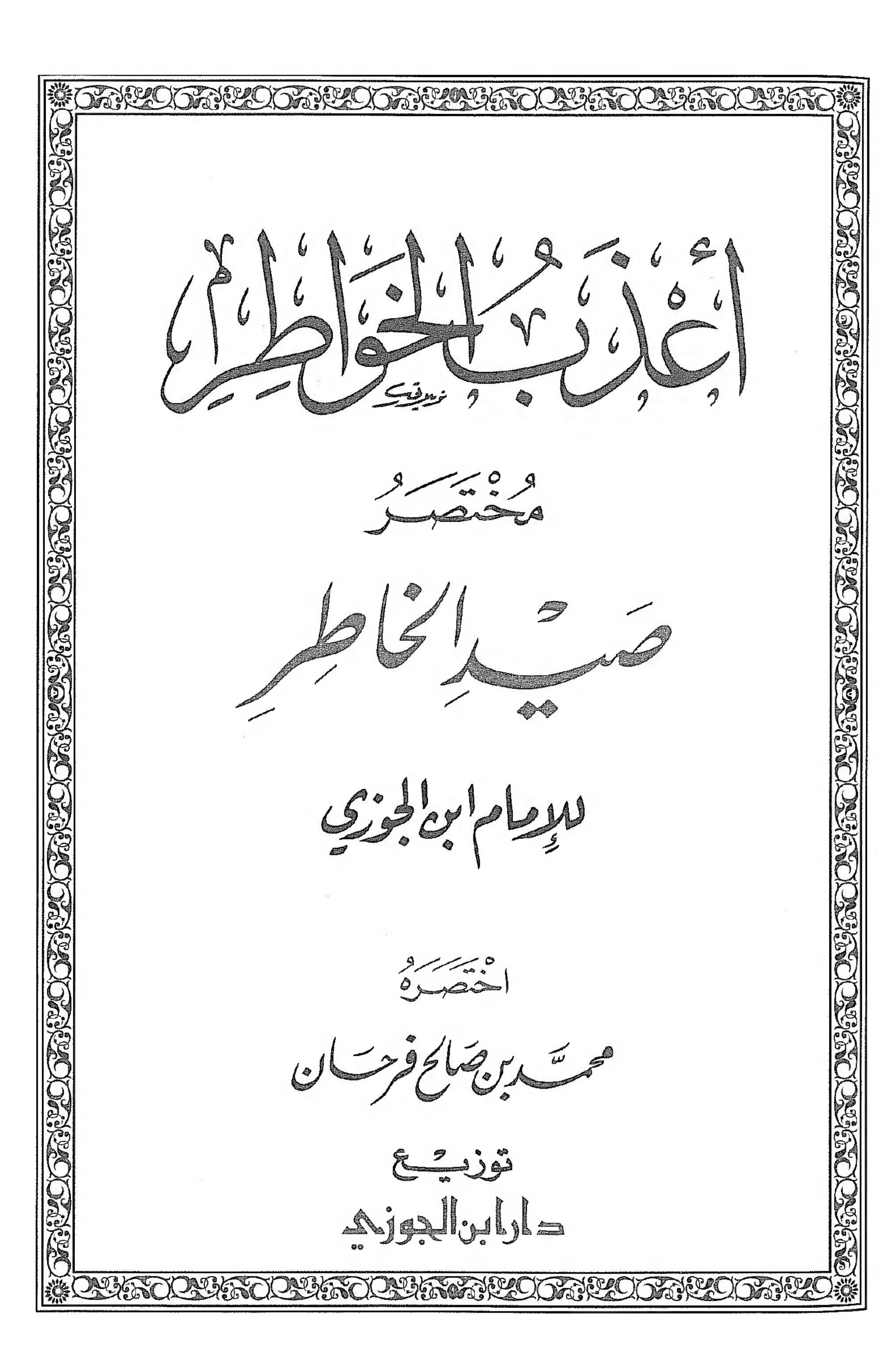
١٤٣١هـ

توزيع



دار ابن الجوزي

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



أعذب الخواطر

مختصر

صيد الخاطر

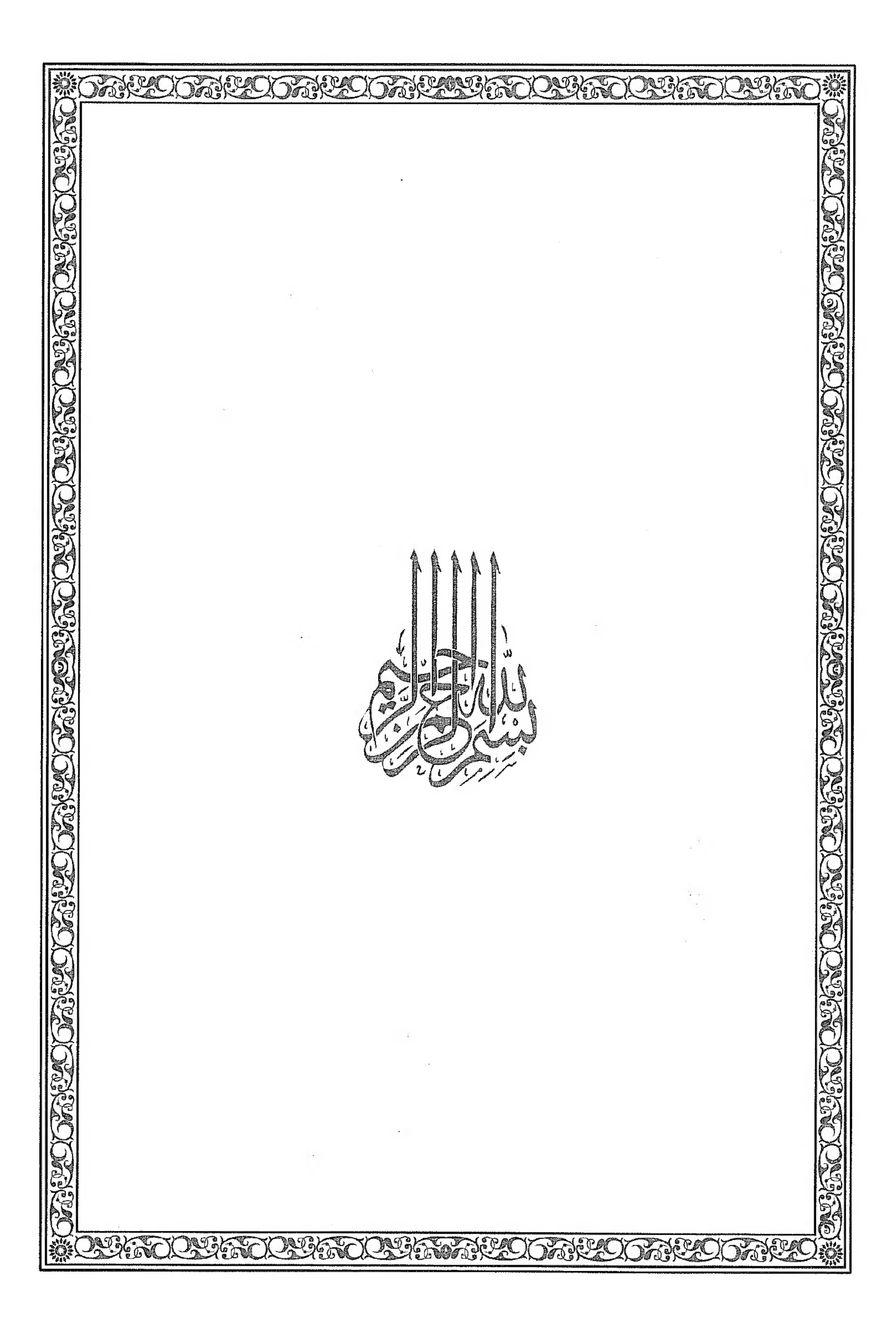
للإمام ابن الجوزي

اختصره

محمد بن صالح فرحان

توزيع

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التهذيب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شُرُورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي لهُ، وأشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمَّداً عَبده ورسوله، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجمعين.

وبعد:

فإن كتاب «صيد الخاطر» يعتبر من أقوى الكتب تأثيراً وأصدقها وأرقّها في موضوعه، فهو عبارة عن نصائح من عالِم قدير مجرب مشفق، يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أتقن في صياغتها بأسلوب أخّاذ يسحر القلوب، وينشِّط الهمم لفعل الطاعات، والابتعاد عن المحرَّمات، والتحلِّي بأكمل الآداب.

وإنَّ خير من عرَّف بهذا الكتاب هو مؤلفه الإمام ابن الجوزي رحمه الله؛ فقد قال في خاتمة الكتاب:

بحمدِ الله تعالى قد نَجَزَ ما توخَّاه الفكرُ الفاترُ من تقييدِ ما جمعهُ القلمُ من صيدِ الخاطرِ، مقتصراً فيه على ما به التَّخلِّي من الأمراضِ النفسيَّةِ والتّحلِّي بالآدابِ الشرعيَّةِ والأخلاقِ المرضيَّةِ.

جعلهُ الله تعالى خيرَ هادٍ على منبرِ الوعظِ والإرشاد، وأنفعَ كتابٍ تجلَّى في مرايا الظهورِ لهدايةِ العباد.

والحمدُ للهِ أولاً وآخراً، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عملي في الكتاب:

عندما أقدمت على تهذيب كتاب «**صيد الخاطر**» كنت حريصاً على أن أقدم للقارئ كتاباً لا يمل من تكرار قراءته، فلا يكاد يصل إلى نهايته حتى يشتاق إلى البدء ثانية من أوله، مع عدم المساس بأي فائدة أدرجها مؤلفه، ولهذا فقد حذفت كل ما من مصلحة القارئ حذفه؛ حتى لا يجد الشيطان طريقاً في تثبيطه عن تكرار قراءته على الدوام، فقد سبق أن طُبع الكتاب طبعات كثيرة، وقد أبدى من حققه قبلي بعض الملاحظات عليه مع الإبقاء عليها، فرأيت أن أحذفها لعدم المصلحة من بقائها، وهي لا تعدو أن تكون إما مواضيع تكررت كثيراً وبنفس الفكرة والأسلوب تقريباً، فأبقيت على الشامل منها ـ ولم أستطع حذف كل المواضيع المكررة لوجود بعض الفوائد التي لا يمكن الاستغناء عنها ـ أو بعض الآراء الشخصية البحتة التي تخص المؤلف وقد لا تروق للقارئ في هذا العصر، وأيضاً بعض المواضيع التي لها علاقة بالناحية الطبية والطبيعية التي تكلم فيها حسب ما كان سائداً في وقت المؤلف، وكذلك بعض الأمور التي قد تحدث شبهة وتشويشاً على من اطلع عليها من عموم الناس.

أما في مسألة الاعتقاد في توحيد الأسماء والصفات، فإن الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ كما قال عنه العلماء: لم يثبت على رأي في هذه المسألة، فربما تجد له آراء يثبت فيها معتقد أهل السنة والجماعة، وتارة يرى ما رآه أهل التأويل، ولهذا فقد أثبتُّ آراءه في الإثبات، وحذفت آراءه الأخرى. وصحَّحت بعض العبارات، ومن اطلع على الأصل فلن يخفى عليه ملاحظة ذلك. والكمال لله ولكتابه وشريعته.

أما بالنسبة لتخريج الأحاديث فقد اجتهدت في عزوها إلى مصادرها من

كتب السنة، وذكرت درجة الحديث استناداً على كتب وبرامج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

✍ **محمد بن صالح فرحان**

جـــدة



مقدمة المؤلف

الْحمدُ لله حمداً يبلغُ رضاه، وصلى الله علَى أشرف مَنِ اجتباه، وعلى مَنْ صاحَبَهُ ووالاه، وسلَّمَ تسليماً لا يُدْرَكُ منتهاه.

لمَّا كانتِ الخواطرُ تجولُ في تصفُّح أشياءَ تَعْرِضُ لها ثم تُعْرِضُ عنها فتذهبُ؛ كان مِنْ أوْلى الأمورِ حفظُ ما يخطُرُ لكي لا يُنسى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «قَيِّدوا الْعِلْمَ بالكتابةِ»[1]. وكم قد خطر لي شيءٌ فأتشاغلُ عن إثباته فيذهبُ، فأتأسَّفُ عليه.

ورأيتُ من نفسي أنني كلَّما فتحتُ بصرَ التفكر؛ سنح[2] له من عجائب الغيب ما لم يكن في حساب، فانثالَ[3] عليه من كثيبِ التَّفْهيم ما لا يجوزُ التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكتابَ قيداً ـ لصيد الخاطر ـ والله وليُّ النفع، إنه قريب مجيب.



(١) (صحيح) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٣٧)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/٢٢٨)، وأبو محمد الخلدي في «الفوائد» (٢/٢٤٥) من حديث أنس بن مالك. وله طريق أخرى ضعيفة من حديث أنس أيضاً أخرجه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ»، والخطيب في «التاريخ» (١٠/٤٦)، وفي «تقييد العلم» (ص٦٩، ٧٠)، وابن عبد البر في «جامع العلم» (١/٧٢)، وله شاهد من حديث ابن عمرو أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٢)، والخطيب البغدادي في «تقييد العلم» (ص٦٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»، وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٢٦) لطرقه وشواهده.

(٢) سنح: عرض وتيسر.

(٣) انثال: تتابع.



فصل

[تفاوت الناس في تقبّل المواعظ]

قد يَعرضُ عند سماع المواعظ للسامع يَقَظَةٌ، فإذا انفصلَ عن مجلس الذّكرِ؛ عادتِ القسوةُ والغفلةُ! فتدبرتُ السبب في ذلك فعرفتُه.

ثمَّ رأيتُ الناسَ يتفاوتون في ذلك: فالحالة العامة أنَّ القلب لا يكون على صفتِهِ من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدَها، لسببين:

أحدهما: أنَّ المواعظ كالسِّياط، والسياطُ لا تُؤلِمُ بعد انقضائِها إيلامَها وقت وقوعِها.

والثاني: أنّ حالةَ سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مُزاحُ العِلَّة(١)، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصتَ بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل؛ اجتذبتْه بآفاتها، فكيف يَصِحُّ أن يكون كما كان؟!

وهذه حالةٌ تعُمُّ الخلْقَ. إلّا أنَّ أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر:

فمنهم من يعزِمُ بلا تردُّد، ويمضي من غير التفاتٍ، فلو توقفَ بهم ركبُ الطبع لضَجُّوا، كما قال حنظلة عن نفسه: نافقَ حنظلة(٢).

---

(١) مزاح العلة: خالٍ من الشواغل.

(٢) روى مسلم (٢٧٥٠/١٢): عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ. قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «وما ذاك؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ =

ومنهم أقوامٌ يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً، ويدعوهم ما تقدَّم من المواعظ إلى العمل أحياناً، فهم كالسنبلة تُميلها الرياح.

وأقوامٌ لا يؤثِّر فيهم إلا بمقدار سماعِهِ، كماءٍ دَحْرَجْتَه على صفوانٍ[1].

فصل

[النظر في العواقب يورث السلامة]

مَنْ عاينَ بعين بصيرتِه تَنَاهِيَ الأمور في بداياتها؛ نالَ خيرها، ونجَا من شرِّها.

ومَنْ لم يَرَ العواقبَ؛ غلَبَ عليه الحسُّ، فعاد عليه بالألم ما طلَبَ منه السلامةَ، وبالنَّصبِ ما رجا منه الراحة.

وبيان هذا في المستقبل يتبيَّن بذكر الماضي:

وهو أنك لا تَخْلو أنْ تكونَ عصيتَ الله في عمُرك أو أطعتَه. فأين لَذَّةُ معصيتك؟ وأين تعبُ طاعتك؟ هيهات؛ رحَلَ كلٌّ بما فيه!

فليت الذنوبَ إذ تخلَّتْ خَلَّتِ[2].

وأزيدك في هذا بياناً، مَثِّل ساعةَ الموت، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط، ولا أقول كيف تغلِبُ حلاوةَ اللّذات؛ لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلاً، فبقيت مرارةُ الأسى بلا مقاومٍ.

أتُراك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟

فراقبِ العواقبَ تسلم، ولا تَمِلْ مع هوى الحسِّ فتندمْ.

= عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ. وِلكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعةً وَسَاعةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ورواه الترمذي (٢٥١٤). ويستفاد من هذا الحديث فضائل مجالس الوعظ والذكْر.

(١) الصفوان: الحجر الأملس الذي لا يثبت عليه الماء.

(٢) أي: أنه لا بد للذنب من عقوبة، إما عاجلة أو آجلة، أو قد يُجمع بين العقوبتين.

فصل

[الدنيا متاع الغرور]

من تفكّر بعواقب الدنيا أخذَ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهّبَ للسّفر.

ما أعجب أمرك يا من يوقنُ بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حالٍ ثم يغشاه، وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه.

تغلِبُك نفسك على ما تظنُّ، ولا تغلِبُها على ما تستيقنُ.

أعجب العجائب، سرورُك بغرورِك، وسهوُك في لَهْوِك عما قد خُبِّئَ لك. تغترُّ بصحتك وتنسى دُنُوّ اَلسَّقم، وتفرحُ بعافيتك غافلاً عن قرب الألم. لقد أراك مصرعُ غيرِك مصرَعَك، وأبدى مضجَعُ سواك ـ قبل المماتِ ـ مضجَعَك. وقد شغلَكَ نيلُ لذَّاتِك عن ذِكر خراب ذاتِك:

كأنَّك لمْ تَسمعْ بأخبارِ مَنْ مَضى ... ولَمْ تَرَ في الباقين ما يصنعُ الدَّهرُ
فإنْ كنتَ لا تدري فتلكَ ديارُهُم ... مَحاها مَجَالُ الرِّيحِ بعدَك والقبرُ

كم رأيتَ صاحبَ منزلٍ ما نزل لَحدَه حتى نزل[1]. وكم شاهدتَ والِيَ قصر وَلِيَه عدُوُّه لمّا عُزل!

فيا من كلُّ لحظة إلى هذا يسري، وفعلُهُ فِعْلُ من لا يفهم ولا يدري...

وكيفَ تنامُ العينُ وهيَ قريرةٌ ... ولمْ تَدْرِ مِنْ أيِّ المحلَّينِ تنزِلُ

فصل

[السلامة في تجنب مواضع الفتن]

من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة. ومن ادعى الصبر، وُكِلَ إلى نفسه. وربّ نظرة لم تُناظر[2]! وأحق الأشياء بالضبط والقهر: اللسان والعين.

---

(١) أي: نزل من مكانته العالية التي هو فيها.

(٢) يعني: أصابت صاحبها بسهم مسموم ولم تمهله؛ بل شَغَلته وأفسدت عليه جمعية قلبه.

فإياك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى، مع مقاربة الفتنة، فإن الهوى مكايد.

وكم من شجاع في صف الحرب اغتيل، فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر إليه! واذكر حمزة مع وحشي.

فتبصَّرْ ولا تَشِمْ كلَّ برْقٍ ... رُبَّ برقٍ فيه صواعقُ حَيْنِ[1]
واغضُض الطَّرفَ تسترحْ من غرامٍ ... تَكْتَسي فيه ثوْبَ ذُلٍّ وشَيْنِ
فبلاءُ الْفتى موافقَةُ النَّفْـ ... ـسِ وَبَدْءُ الْهوى طُمُوح العينِ

فصل

[عقوبات القلوب]

أعظمُ المعاقبة ألّا يُحس المُعاقَبُ بالعقوبة. وأشدُّ من ذلك أن يقَعَ السرورُ بما هو عقوبةٌ، كالفرح بالمال الحرام والتمكن من الذنوب.

ومن هذه حالهُ لا يفوز بطاعة.

وإني تدبرتُ أحوالَ كثير من العلماء والمتزهدين، فرأيتهم في عقوباتٍ لا يُحسُّون بها، ومعظمُها من قِبَلِ طلبهم للرياسة.

فالعالمُ منهم يغضبُ إن رُدَّ عليه خطؤُه، والواعظُ متصنِّعٌ بوعظه، والمتزهِّدُ منافقٌ أو مُراءٍ.

فأول عقوباتهم: إعراضُهم عن الحقِّ شُغلاً بالخلق.

ومِنْ خَفِيِّ عقوباتهم: سلبُ حلاوة المناجاة ولَذَّة التعبُّد.

إلّا رجالٌ مؤمنون، ونساءٌ مؤمنات، يحفظُ الله بهم الأرضَ، بواطنُهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرُهم كعلانيتهم بل أحلى، وهِمَمُهم عند الثريَّا بل أعلى، إنْ عُرفوا تنكَّروا، وإن رُؤِيَت لهم كرامةٌ أنكروا. فالناس في غَفَلاتهم،

(١) شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر. والحين: الهَلاك.

وهم في قطع فلاتِهِم، تحبُّهم بقاع الأرض، وتفرحُ بهم أملاك السماء. نسأل الله ﷻ التوفيق لاتِّباعهم.



[علو الهمة من كمال العقل]

من علامة كمال العقل علوُّ الهمة، والرّاضي بالدُّون دنيء.

ولَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاس عَيْباً كَنَقْصِ القادرينَ على التَّمامِ



[فضل الله ومنته على عباده]

سبحان من سبقتْ محبتُه لأحبائه، فمدحهم على ما وهبَ لهم، واشترى منهم ما أعطاهُم[(١)]، وقدَّم المتأخرَ من أوصافهم لموضِعِ إيثارِهم، فباهى بهم في صومهم، وأحبَّ خلوفَ أفواهِهِم.

يا لها من حالةٍ مصونة لا يقدِرُ عليها كلُّ طالب، ولا يبلغ كُنْهَ[(٢)] وصفِها كلّ خاطب.



[دوام اليقظة وأخذ العدة للرحيل]

الواجبُ على العاقل أخذُ العدّة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفْجؤُهُ أمرُ ربِّه، ولا يدري متى يُستدعى.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

(٢) الكُنه: الحقيقة.

وإني رأيت خلقاً كثيراً غرَّهم الشبابُ، ونسُوا فقدَ الأقران، وألهاهم طولُ الأمل.

وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغلُ بالعلم اليوم ثم أعمل به غداً. فيتساهلُ في الزلل بحجة الراحة، ويؤخرُ الأهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غِيبة أو سماعها، ومن كسبِ شبهة يأمل أن يمحوها بالورع، وينسى أن الموت قد يَبْغَتُ.

فالعاقل من أعطى كلَّ لحظة حقَّها من الواجب عليه؛ فإن بَغَتَهُ الموت رُؤي مستعداً، وإن نال الأملَ؛ ازداد خيراً.

فصل

[﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾]

خطرت لي فكرةٌ فيما يجري على كثيرٍ من العالم من المصائب الشديدة، والبلايا العظيمة التي تتناهى إلى نهاية الصعوبة.

فقلت: سبحان الله! إن الله أكرمُ الأكرمين، والكرم يوجب المسامحةَ؛ فما وجه هذه المعاقبة؟.

فتفكَّرتُ، فرأيت كثيراً من الناس في وجودِهم كالعدم، لا يتصفَّحون أدلَّة الوَحدانيةِ، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه، بل يَجْرون على عاداتِهِم كالبهائم. فإن وافق الشرعُ مرادهم، وإلّا فمُعوّلُهم على أغراضهم. وبعد حصول الدينار، لا يبالون، أمن حلالٍ كان أم من حرام. وإنْ سَهُلت عليهم الصلاة فعلوها، وإن لم تسْهُل تركوها. وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة، مع نوع معرفة الناهي، وربما قويتْ معرفة عالمٍ منهم وتفاقمت ذنوبُه.

فعلمتُ أن العقوبات وإن عظُمتْ دون إجرامهم.

فإذا وقعتْ عقوبةٌ لتمحِّصَ ذنباً؛ صاح مستغيثُهم: تُرى هذا بأيِّ ذنبٍ؟ وينسى ما قد كان مما تتزلزل الأرضُ لبعضه.

وقد يُهان الشيخ في كِبَرِه حتى ترحَمَه القلوب، ولا يدري أن ذلك لإهماله حقَّ الله تعالى في شبابه.

فمتى رأيتَ مُعاقَباً؛ فاعلم أنه لذنوبٍ.

فصل

[﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾]

مَنْ أحب تصفيةَ الأحوال؛ فليجتهدْ في تصفية الأعمال.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجن: ١٦].

وقال النبي ﷺ: **«البِرُّ لا يَبْلى، والإثم لا يُنسى، والدَّيَّان لا ينامُ، وكما تَدينُ تُدان»**[١].

وقال أبو سليمان الداراني: من صَفَّى صُفِّيَ له، ومن كَدَّرَ كُدِّرَ عليهِ، ومنْ أحسنَ في ليله كوفئَ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئَ في ليله.

وكان شيخٌ يدور في المجالس، ويقولُ: من سرَّه أن تدومَ له العافية فليتَّقِ اللهَ ﷻ.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إني لأعصي الله فأعرفُ ذلك في خُلُق دابَّتي وجاريتي.

واعلم ـ وفقك الله ـ أنه لا يُحسُّ بضربةٍ مُبنِّجٌ، وإنما يَعْرِفُ الزيادةَ من النقصانِ المحاسِبُ لنفسه.

ومتى رأيت تكديراً في حال؛ فاذكر نعمةً ما شُكِرَتْ، أو زلةً قد فُعلتْ.

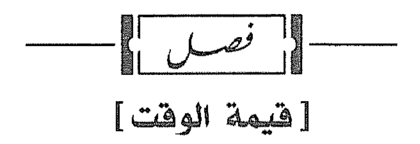
---

(١) **(ضعيف)** أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢١٣٢٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٠٠)، ومعمر بن راشد في «جامعه»، كلهم عن أبي قلابة مرسلاً. ورواه الديلمي، وابن عدي في «الكامل» عن ابن عمر يرفعه، وفيه محمد بن عبد الملك الأنصاري: ضعيف. انظر: الضعيفة (١٥٧٦).

واحذر من نِفار النِّعم ومفاجأة النِّقم، ولا تغتر بِسَعَةِ بساط الحِلْم، فربما عَجِلَ انقباضُه.

وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكان أبو علي الرُّوذباريُّ يقول: من الاغترار أن تسيءَ فيُحسِنَ إليك، فتترُكَ التوبةَ توهماً أنك تُسامحُ في الهفوات.



[قيمة الوقت]

ينبغي للإنسان أنْ يعرفَ شرفَ زمانه، وقدْرَ وقتِه، فلا يُضيعَ منه لحظةً في غير قُرْبة. ويقدِّمَ الأفضلَ فالأفضلَ من القول والعمل. ولتكنْ نيتهُ في الخير قائمةً من غير فُتورٍ بما لا يَعجِزُ عنه البدن من العمل.

وقد كان جماعةٌ من السلف يبادرون اللحظاتِ.

قال ابنُ ثابتٍ البُناني: ذهبت أُلقِّنُ أبي، فقال: يا بني دعني، فإني في وِردي السادس.

ودخلوا على بعض السلف عند موته، وهو يصلي، فقيل له؟ فقال: الآن تُطوى صحيفتي.

فإذا علمَ الإنسانُ ـ وإنْ بالغَ في الجِدِّ ـ بأن الموتَ يقطعهُ عن العمل، عَمِلَ في حياته ما يدومُ له أجرُه بعد موته. فإنْ كان له شيء من الدنيا؛ وقف وقفاً، وغرَسَ غرساً، وأجرى نَهَراً، ويسعى في تحصيل ذُرِّيةٍ تذكُرُ الله بعدَه فيكونُ الأجرُ له. أو أن يصنفَ كتاباً من العلم؛ فإن تصنيفَ العالِم ولدُه المخلَّدُ. وأن يكونَ عاملاً بالخير، عالماً فيه، فَيُنْقَلَ من فِعْله ما يَقْتَدي الغير به. فذلك الذي لم يمتْ.

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ

فصل

[ميزان العدل لا يُحابي]

من تأمّل أفعال الباري سبحانه؛ رآها على قانون العدل، وشاهَدَ الجزاءَ مُرْصَداً للمُجازى، ولو بعد حين، فلا ينبغي أن يَغترَّ مُسامَحٌ، فالجزاء قد يتأخر.

ومن أقبح الذنوب التي قد أُعد لها الجزاء العظيم الإصرارُ على الذنب، ثم يصانِعُ صاحبُه باستغفارٍ وصلاةٍ وتعبُّد، وعنده أن المصانعةَ تنفع.

وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يكرهُهُ الله تعالى، وطلبَ منه ما يحبُّه هو، كما رُوِيَ في الحديث: «**والعاجزُ من أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني**»[1].

ومما ينبغي للعاقل أن يترصَّد وقوعَ الجزاء.

فإن ابن سيرين قال: عيَّرتُ رجلاً فقلت: يا مفلسُ. فأفلستُ بعد أربعين سنة.

وقال ابن الجلاء: رآني شيخٌ لي وأنا أنظرُ إلى أمردَ، فقال: ما هذا؟ لتجدنَّ غِبَّها. فَنُسِّيتُ القرآن.

وبالضد من هذا، كل من عمل خيراً أو صحَّحَ نية، فلينتظرْ جزاءها الحسنَ وإنْ امتدَّت المدة.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عن محاسنِ امرأةٍ أثابه الله**

---

(١) (**ضعيف**) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠).

إيماناً يَجِدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ»[1]. فليعلمِ العاقلُ أن ميزان العدل لا يُحابي.

فصل

[الطريق إلى صلاح القلب]

تأملتُ أمرَ الدنيا والآخرة، فوجدتُ حوادثَ الدنيا حِسِّيةً طَبَعِيَّةً، وحوادث الآخرة إيمانيةً يقينيةً. والحسِّياتُ أقوى جذباً لمن لم يقْوَ علمُه ويقينُه.

والحوادث إنما تبقى بكثرةِ أسبابها: فمخالطةُ الناس، ورؤية المستحسَنات، والتعرُّضُ بالملذوذاتِ، يقوِّي حوادثَ الحِسّ.

والعُزلةُ، والفِكْرُ، والنَّظرُ في العلم، يقوِّي حوادثَ الآخرة.

ويَبِينُ هذا بأن الإنسان إذا خرج في الأسواق، ويبصرُ زينة الدنيا، ثم دخل إلى المقابر، فتفكَّر ورَقَّ قلبُه؛ فإنه يُحس بين الحالتين فرقاً بيِّناً، وسببُ ذلك التعرُّض بأسباب الحوادث.

فعليك بالعزلة والذِّكرِ والنظر في العلم، فإن العزلةَ حِمْيَةٌ، والفكرَ والعلمَ أدويةٌ. والدواءُ مع التخليط لا ينفعُ، وقد تمكَّنتْ منك أخلاطُ المخالطةِ للخلْق، والتخليطِ في الأفعال، فليس لك دواءٌ إلا ما وصفتُ لك.

---

(١) (ضعيف) أخرجه الحاكم (٧٨٧٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» ص (١١٨)، والشافعي في «اختلاف الحديث» كلهم من حديث حذيفة.
ورواه الشافعي في «اختلاف الحديث»، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (١١٨)، وابن بشران في «الأمالي» من حديث علي.
ورواه ابن النجار من حديث أبي هريرة.
ورواه الطبراني في «الكَبِير» (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٩٤٦): وفيه عبد الرحمٰن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف.
وأخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤)، والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي أمامة. والحديث في «الضعيفة» (١٠٦٥).

فأما إذا خالطتَ الخلق وتعرَّضتَ للشهوات، ثم رُمْتَ صلاحَ القلب؛ رُمْتَ الممتنعَ.

فصل

[حقيقة العزلة إنما هي عن الشرّ لا عن الخير]

ما زالت نفسي تُنازعني ـ بما يوجبه مجلس الوعظ، وتوبةُ التائبين، ورؤيةُ الزاهدين ـ إلى الزهد والانقطاع عن الخَلْق والانفرادِ بالآخرة.

فتأملت ذلك، فوجدت عمومَه من الشيطان. فإنَّ الشيطانَ يرى أنه لا يخلو لي مجلسٌ من خَلْقٍ لا يُحصوْنَ، يبكونَ ويندُبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعةٌ يتوبون ويقطعون شُعور الصِّبا، وربما اتفق خمسون ومائةٌ. ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثرُ من مائةٍ، وعمومُهم صبيانٌ قد نُشِّئوا على اللَّعِب والانهماك في المعاصي.

فكأنَّ الشيطانَ لِبُعْدِ غوره في الشر رآني أجتذب إليَّ مَنْ أجتذبُ منه، فأراد أن يَشْغَلَني عن ذلك بما يزخرفه، ليخلو هو بمن أجتذبهم من يده.

ولقد حسَّن ليَ الانقطاعَ عن المجالس، وقال: لا يخلو من تصنُّع للخلق.

فقلت: أما زخرفةُ الألفاظ وتزويقُها، وإخراجُ المعنى من مُستَحسنِ العبارة، ففضيلةٌ لا رذيلةٌ، وأما أن أقصِدَ الناس بما لا يجوز في الشرع؛ فمعاذَ الله.

ثم رأيته يُريني في التزهُّد قطعَ أسبابٍ ظاهرةِ الإباحة من الاكتساب.

فقلتُ له: فإن طاب لي الزُّهد، وتمكنتُ من العُزلة، فنفدَ ما بيدي، أو احتاج بعض عائلتي، ألستُ أعودُ القَهْقَرى؟ فدعني أجمع ما يسدّ خَلَّتي، ويصونُني عن مسألة الناس، فإن مُدَّ عُمُري؛ كان نعم السبب، وإلَّا كان للعائلة. ولا أكون كراكبٍ أراق ماءه لرؤية سرابٍ، فلما ندم وقت الفواتِ؛ لم ينتفعْ بالندم.

وإنما الصوابُ توطئةُ المضجع قبل النوم، وجمعُ المال السادِّ للخَلَّةِ قبل الكِبَر أخذاً بالحزم، وقد قال الرسولُ ﷺ: «**لأَنْ تتركَ ورثتَكَ أغنياء، خير لك من أن تتركَهُم عالةً يتكففون الناس**»[١].

وقال: «**نِعمَ المالُ الصالح للرجل الصالح**»[٢].

وأما الانقطاعُ؛ فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبةٌ على كل حال.

وأمَّا تعليمُ الطالبين، وهدايةُ المريدين، فإنه عبادةُ العالِم.

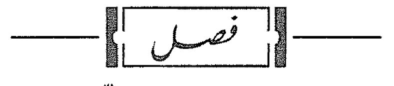
فعليك بالنظر في الشربِ الأول، فكنْ مع الشرب المُتقدم. وهم الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

فهل نُقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلَةُ المتزهدين والمتصوفة من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخلْق؟

وهل كان شُغل الأنبياء إلا معاناةَ الخلق، وحثَّهم على الخير ونهيَهُم عن الشر!

إلَّا أن ينقطع من ليس بعالِمٍ بقصدِ الكف عن الشر، فذاك في مرتبة المحتمي يخافُ شر التخليط.

فأما الطبيبُ العالِم بما يتناول؛ فإنه ينتفع بما ينالُه.



[هل المراد من العلم إلّا العمل؟]

تأملت المراد من الخلق، فإذا هو العبادة والذّل، واعتقاد التقصير والعجز.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥ و٣٩٣٦ و٤٤٠٩)، ومسلم (١٦٢٨/٥، ٨).

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد (١٩٧/٤ و٢٠٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم رقم (٢١٣٠ و٢٩٢٦).

ومثَّلتُ العلماءَ والزهادَ العاملين صنفين: فأقمت في صف العلماء: مالكاً، وسفيانَ، وأبا حنيفة، والشافعيَّ، وأحمدَ. وفي صف العُبَّادِ: مالكَ بن دينارٍ، ورابعة، ومعروفاً الكرخي، وبشرَ بن الحارث.

فكلما جدَّ العُبَّاد في العبادة؛ صاح بهم لسان الحال: عباداتُكم لا يتعداكم نفعُها، وإنما يتعدى نفعُ العلماءِ، وهم ورثةُ الأنبياء، وهم الذين عليهم المُعوَّلُ ولهم الفضل إذا أطرقوا وانكسروا وعلموا صدقَ تلك الحال... وجاء مالك بن دينارٍ إلى الحسن يتعلم منه، ويقول: الحسن أستاذُنا.

وإذا رأى العلماءُ أن لهم بالعلم فضلاً؛ صاح لسانُ الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلا العملُ؟!

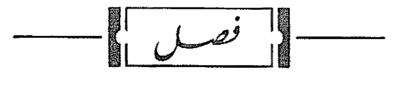
وقال أحمد بن حنبل: وهل يُراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروفٌ؟!

وقالتْ أمُّ الدرداء لرجلٍ: هل عملت بما علمتَ؟ قال: لا. قالت: فَلِمَ تستكثرُ من حجة الله عليك؟!

وقال أبو الدرداء: ويلٌ لمن لم يعلمْ ولم يعملْ مرةً، وويلٌ لمن علمَ ولم يعملْ سبعين مرة.

وقال الفضيل: يُغفرُ للجاهل سبعونَ ذنباً قبلَ أن يُغفرَ للعالم ذنبٌ واحد.

فدلَّ العلماءَ العلمُ على أن المقصودَ منه العملُ به، وأنه آلةٌ.



[الطريق إلى حبّ الله]

تأملت في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. فإذا النَّفْس تأبى إثبات محبَّة للخالق توجب قلقاً وقالت: محبتُه طاعتُه، فتدبرت ذلك فإذا بها قد جهلت ذلك لِغلبة الحِسِّ.

وبيان هذا أن محبة الحسِّ لا تتعدى الصُّوَر الذاتيةَ، ومحبة العلم والعمل ترى الصُّوَرَ المعنوية فتحبُّها.

فإنا نرى خلقاً يحبون أبا بكر رضي الله عنه، وخلقاً يحبون عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقوماً يتعصبون لأحمد بن حنبل، وقوماً للأشعريّ، فيقتتلون ويبذُلون النفوسَ في ذلك، وليسوا مِمَّن رأى صُوَرَ القوم، ولكن لما تَصَوَّرتْ لهم المعاني؛ فدلتهم على كمال القوم في العلوم؛ وقع الحبُّ لتلك الصور التي شوهدت بأعين البصائر.

فكيف بمن صنعَ تلك الصورَ المعنويةَ وبَذَلَها؟!

وكيف لا أحبُّ من وهب لي ملذوذاتِ حسِّي، وعرَّفني ملذوذاتِ علمي؟ فإن التذاذي بالعلم وإدراك العلوم أولى من جميع اللَّذات الحسيةِ، فهو الذي علمني وخلق لي إدراكاً، وهداني إلى ما أدركتُه.

ثم إنه يتجلى لي في كل لحظة في مخلوق جديدٍ، أراه فيه بإتقانِ ذلك الصُّنْعِ وحسنِ ذلك المصنوع.

فكلُّ محبوباتي منه، وعنه، وبه، الحسيةِ والمعنويةِ، وتسهيلُ سبُل الإدراك به، والمدركاتُ منه. وألذُّ من كل لَذةٍ عِرْفاني له، فلولا تعليمهُ ما عرفتُه.

وكيف لا أحبُّ مَنْ أنا بِهِ، وبقائي منه، وتدبيري بيده، ورجوعي إليه، وكلُّ مستحسنٍ محبوبٍ هو صَنَعَه وحسَّنه وزيَّنه وعَطَفَ النفوس إليه!

فذلك الكامل القُدْرة أحسنُ من المقدور، والعجيبُ الصنعة أكمل من المصنوع.

ولو أننا رأينا نقشاً عجيباً؛ لاستغرقنا تعظيم النقَّاش وتهويلُ شأنه وظريفُ حكمته عن حب المنقوش.

وهذا مما تترقى إليه الأفكارُ الصافية، إذا خرق نظرها الحسيات، ونفذ إلى ما وراءها، فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة. وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له.

فإن قوِيَ أوجب قلقاً وشوقاً، وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة أوجب

خوفاً، وإن انحرف به إلى تلمح الكرم أوجب رجاءً قوياً... ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

فصل

[حلاوة الطاعة وشؤم المعصية]

كل شيءٍ خَلَقَ اللهُ تعالى في الدنيا فهو أنموذجٌ في الآخرة، وكلُّ شيء يجري فيها أنموذجُ ما يجري في الآخرة.

وهذا لأن الله تعالى شوَّق بنعيمٍ إلى نعيمٍ، وخَوَّف بعذابٍ من عذابٍ.

فأما ما يجري في الدنيا؛ فكلٌّ ظالم مُعاقَبٌ في العاجل على ظُلمه قبل الآجل، وكذلك كلُّ مذنب ذنباً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما رأى العاصي سلامةَ بدنِه ومالِه فظنَّ أنْ لا عقوبةَ، وغفلتُهُ عما عوقبَ به عقوبةٌ.

وقد قال الحكماء: المعصيةُ بعد المعصيةِ عقابُ المعصيةِ، والحسنة بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنة.

وربما كان العقاب العاجل معنويّاً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب كم أعصيكَ ولا تعاقِبُني؟ فقيل له: كم أعاقبُك وأنت لا تدري! أليس قد حرمْتُكَ حلاوةَ مناجاتي؟

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة؛ وجده بالمرصاد، حتى قال وهيب بن الورد وقد سُئل: أيجدُ لَذَّة الطاعة من يعصي؟ فقال: ولا من هَمَّ.

فربَّ شخصٍ أطلق بَصَرَهُ فحرمَهُ اللهُ اعتبارَ بصيرتِهِ، أو لسانَهُ فحَرَمَه الله صفاءَ قلبه، أو آثر شبهةً في مطعمه فأظلم سِرُّه وحُرِمَ قيامَ اللّيل وحلاوة المناجاة... إلى غير ذلك.

وهذا أمرٌ يعرفُه أهلُ محاسبة النفس.

وعلى ضِدِّه يجدُ من يتقي الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلاً، كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيْماناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ**»(١).

فهذه نبذة من هذا الجنس تُنَبِّه على مُغْفَلِها.

فأما المقابلة الصريحة في الظاهر فقَلَّ أن تحتبس، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**إن العبدَ لَيُحْرَمُ الرِّزقَ بالذنب يُصيبه**»(٢).

ومثل هذا إذا تأمّله ذو بصيرةٍ؛ رأى الجزاء، وفهم.

كما قال الفضيل: إني لأعصي الله ﷻ فأعرف ذلك في خُلُقِ دابتي وجاريتي.

وعن أبي عثمان النيسابوري: أنه انقطع شِسْعُ نعله في مُضِيِّه إلى الجُمعة، فتعوَّقَ لإصلاحه ساعةً، ثم قال: ما انقطع إلّا لأني ما اغتسلتُ غُسْلَ الجُمعة.

ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه: لما امتدت أيدي الظُّلم من إخوة يوسفَ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ امتدَّت أكُفُّهُمْ بين يديه بالطلب يقولون: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨].

---

(١) (ضعيف) رواه الحاكم (٧٨٧٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص١١٨) كلهم من حديث حذيفة. ورواه الشافعي في «اختلاف الحديث»، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (١١٨) من حديث علي.
ورواه الطبراني في «الْكَبِيرُ» (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٩٤٦): وفيه عبد الرحمٰن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف.
والحديث في «الضعيفة» (١٠٦٥).

(٢) (ضعيف) جزء من حديث رواه ابن ماجه (٩٠ و٤٠٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٧ و٢٨٠ و٢٨٢)، وابن حبان (٨٤٨)، والحاكم (١٨١٤ و٦٠٣٨).

ولو أن شخصاً ترك معصيةً لأجل الله تعالى؛ لرأى ثمرة ذلك، وكذلك إذا فعل طاعة.

ولقد رأينا مَنْ سامحَ نفسَه بما يَمنعُ منه الشرعُ طلباً للراحة العاجلة، فانقلبتْ أحوالُه إلى التنغُّصِ العاجل، وعُكِست عليه المقاصدُ.

حكى بعضُ المشايخ: أنه اشترى في زمن شبابه جاريةً، قال: فلما ملكتُها تاقت نفسي إليها، فما زلت أسأل الفقهاء لعلَّ مخلوقاً يرخِّص لي، فكلُّهم قال: لا يجوز النظرُ إليها بشهوةٍ، ولا لمسُها ولا جماعُها إلا بعد حيضها. قال: فسألتُها فأخبرتني أنها اشْتُرِيَتْ وهي حائضٌ، فقلتُ: قَرُبَ الأمر. فسألت الفقهاء فقالوا: لا يُعتدُّ بهذه الحيضة حتى تحيضَ في ملكه. قال: فقلتُ لنفسي وهي شديدةُ التَّوَقان لقوة الشهوة، وتمكُّن القدرة، وقُرب المصاقبة[1]: ما تقولين؟ فقالت: الإيمانُ بالصَّبر على الجمرِ، شئتَ أم أبيتَ. فصبرتُ إلى أن حان ذلك، فأثابني الله تعالى على ذلك الصبر بِنَيْلِ ما هو أعلى منها وأرفعُ.

فصل

[بين السرّ والعلانية]

نظرت في الأدلة على الحقِّ ﷻ، فوجدتُها أكثرَ من الرمل، ورأيتُ من أعجبها: أنَّ الإنسان قد يُخْفي ما لا يرضاه الله ﷻ، فَيُظْهِرُهُ الله سبحانه عليهِ ولو بعد حينٍ، ويُنْطِقُ الألسنةَ به وإنْ لم يشاهِدْهُ الناس. وربما أوقع صاحبَه في آفة يفضحُهُ بها بين الخلق؛ فيكونُ جواباً لكلِّ ما أخفى من الذُّنوب، وذلك ليعلَمَ الناسُ أن هنالك من يجازي على الزَّلل، ولا ينفعُ من قَدَرِهِ وقُدْرَتِهِ حجابٌ ولا استتار، ولا يُضاع لديه عمل.

وكذلك يُخفي الإنسان الطاعةَ؛ فتظهرُ عليه، ويتحدث الناس بها وبأكثر

(١) المصاقبة: المواجهة، والقرب، والدنو.

منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً ولا يذكرونه إلا بالمحاسن، ليعلمَ أن هنالك ربّاً لا يُضيعُ عَمَلَ عاملٍ.

وإنَّ قلوبَ الناس لتعرفُ حال الشخص وتحبُّه، أو تأباه وتذمُّه، أو تمدحُه وَفْقَ ما يتحقَّق بينه وبين الله تعالى، فإنه يكفيه كلّ همٍّ، ويدفع عنه كلَّ شرٍّ.

وما أصلحَ عبدٌ ما بينه وبين الخلقِ دونَ أن ينظرَ الحقُّ؛ إلا انعكس مقصودُهُ، وعاد حامدهُ ذامّاً.

فصل

[أصناف الناس في الشر والخير]

تأملتُ الأرضَ ومن عليها بعينِ فِكْري، فرأيت خرابَها أكثرَ من عِمْرانها.

ثم نظرتُ في المعمور منها، فوجدتُ الكفار مستولينَ على أكثره، ووجدتُ أهل الإسلام في الأرض قليلاً بالإضافة إلى الكفار.

ثم تأملت المسلمين، فرأيت المكاسبَ قد شغلتْ جمهورهم عن الرَّازِقِ، وأعرضتْ بهم عن العلم الدالِّ عليه.

فالسلطانُ مشغولٌ بالأمر والنهي واللّذات العارضة له، ومياهُ أغراضِهِ جاريةٌ لا سَكْرَ[1] لها، ولا يتلقَّاه أحدٌ بموعظةٍ، بل بالمِدْحَةِ التي تُقَوِّي عنده هوى النفس.

وإنما ينبغي أن تُقاومَ الأمراضُ بأضدادها؛ كما قال عمرُ بن المهاجر: قال لي عمرُ بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد حِدْتُ عن الحقِّ؛ فخذْ بثيابي وهُزَّني، وقل: ما لك يا عمرُ؟!

---

(١) السّكر والسَّكْرُ: سَدُّ النَّهْرِ، وبالكسر: الاسمُ منه، وما سُدَّ به النَّهْرُ. «القاموس المحيط».

وقال عمرُ بن الخطاب ﵁: رحم الله من أهدى إلينا عيوبَنا.

فأحوجُ الخلق إلى النصائح والمواعظ السُّلطانُ.

وأما جنودُه، فجمهورُهم في سُكْر الهوى وزينةِ الدنيا، وقد انضاف إلى ذلك: الجهلُ وعدمُ العلم؛ فلا يؤلِمُهُم ذنبٌ، ولا ينزعجون من لُبْسِ حرير، أو شُربِ خمر، حتى ربما قال بعضهم: إيش يعملُ الجندي، أيَلبسُ القطنَ؟ ثم أخْذُهم للأشياء من غير وجهها، فالظُّلم معهم كالطبع!

وأربابُ البوادي قد غمرَهم الجهل، وكذلك أهلُ القرى، ما أكثر تهوينَهم لأمر الصلوات، وربما صلَّتِ المرأةُ منهنَّ قاعدةً.

ثم نظرت في التُّجار، فرأيتُهم قد غَلَبَ عليهم الحِرْصُ، حتى لا يَرَوْنَ سوى وجوهَ الكسب كيف كانت، وصار الرِّبا في معاملتهم فاشياً، فلا يبالي أحدُهم من أين تحصُلُ له الدنيا! وهم في باب الزكاة مُفَرِّطون، ولا يستوحشون من تركها، إلّا مَنْ عَصَمَ الله.

ثم نظرت في أرباب المعاش؛ فوجدت الغِشَّ في معاملاتهم عامّاً، والتطفيفَ، والبَخْسَ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل.

ورأيت عامة من له ولدٌ يشغلُه ببعض هذه الأشغال طلباً للكسب قبل أن يعرِفَ ما يجبُ عليه وما يتأدَّبُ به.

ثم نظرت في أحوال النساء، فرأيتُهن قليلاتِ الدين، عظيماتِ الجهل، ما عندهنَّ من الآخرة خبرٌ إلا من عصمَ الله.

فقلت: واعجباً! فمن بقي لعبادة الله ﷻ ومعرفته؟

فنظرتُ، فإذا العلماءُ، والمتعلمون، والعبَّادُ، والمتزهِّدون:

فتأملت العُبَّاد، والمتزهِّدين، فرأيت جمهورهم يتعبَّد بغير علم، ويأنَسُ إلى تعظيمه وتقبيلِ يده وكثرةِ أتباعه، حتى إنَّ أحدهم لو اضْطُّرَّ إلى أن يشتريَ حاجة من السوق؛ لم يفعل، لئلا ينكسرَ جاهُه! ثم تترقّى بهم رُتبةُ الناموس إلى أن لا يعودوا مريضاً، ولا يَشهدوا جنازةً، إلّا أن يكونَ عظيمَ القَدْر

عندهم، ولا يتزاورونَ، بل ربما ضنَّ بعضُهم على بعضٍ بلقاءٍ، فقد صارت النواميسُ كالأوثان يعبدونها ولا يعلمونَ.

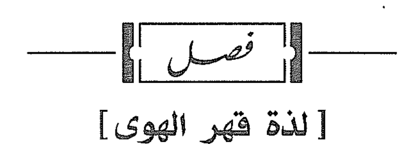
وفيهم من يُقدِمُ على الفتوى وهو جاهلٌ، لئلا يُخِلَّ بناموس التَّصدُّر! ثم يعيبون العلماءَ لحرصهم على الدنيا، ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه، لا تناولُ المباحات.

ثم تأملت العلماءَ والمتعلمين؛ فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النَّجابة؛ لأن أمارةَ النجابة طلبُ العلم للعمل به. وجمهورُهم يطلُبُ منه ما يصيِّرُه شبكةً للكسب، إمّا ليأخذَ به قضاءَ مكانٍ، أو ليصيرَ به قاضيَ بلدٍ، أو قَدْرَ ما يتميزُ به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

ثم تأملت العلماءَ؛ فرأيت أكثرَهم يتلاعب به الهوى ويستخدمُه، فهو يُؤْثِرُ ما يصُدّه العلم عنه، ويُقْبِلُ على ما ينهاه، ولا يكاد يَجِدُ ذوق معاملة الله سبحانه، وإنما هِمَّتُهُ أنْ يقولَ وحسبُ.

إلّا أنَّ الله لا يُخلي الأرضَ من قائمٍ له بالحُجَّة، جامعٍ بين العلم والعمل، عارفٍ بحقوق الله تعالى، خائفٍ منه، ومتى مات؛ أخلف الله عِوَضَهُ، وربما لم يمتْ حتى يرى من يَصلُحُ للنيابة عنه في كل نائبة، ومثل هذا لا تخلو الأرض منه، فهو بمقام النبيِّ في الأمّة.

وهذا الذي أصفُهُ يكون قائماً بالأصول، حافظاً للحدود، وربما قلَّ علمُه أو قلَّت معاملتُه، فأما الكاملون في جميع الأدوات، فيندُرُ وجودُهم، فيكون في الزمان البعيد منهم واحدٌ.



[لذة قهر الهوى]

رأيت مَيْلَ النفس إلى الشَّهوات زائداً في المقدار، حتى إنَّها إذا مالتْ، مالتْ بالقلبِ والعقلِ والذِّهن، فلا يكادُ المرء ينتفعُ بشيء من النُّصْح.

فَصِحْتُ بها يوماً وقد مالتْ بكُلِّيتِها إلى شهوةٍ: ويْحكِ! قفي لحظةً أكلِّمكِ كلماتٍ، ثم افعلي ما بدا لكِ.

قالتْ: قلْ أسمعْ.

قلتُ: قد تقرر قلةُ ميْلِكِ إلى المباحات من الشهوات، وأما جُلُّ ميلِكِ فإلى المحرَّمات، وأنا أكشفُ لك عن الأمرين، فربما رأيت الحُلْوَيْنِ مُرَّيْنِ:

أمّا المباحاتُ من الشهوات فمُطلَقَةٌ لك ولكنَّ طريقَها صعبٌ؛ لأن المالَ قد يعجزُ عنها، والكسبَ قد لا يُحصِّلُ معظَمَها، والوقتَ الشريفَ يذهبُ بذلك. ثم شُغْلُ القلب بها وقتَ التحصيل، وفي حالة الحصول، وبحَذَر الفوات. ثم يُنَغِّصُها من النَّقص ما لا يخفى على مميِّز. إنْ كان مطعَماً؛ فالشِّبَع يُحْدِثُ آفاتٍ، وإن كان شخصاً؛ فالمللُ أو الفراقُ، أو سوء الخُلُق. ثم ألذّ النكاحِ أكثرُه إيهاناً للبدن... إلى غير ذلك مما يطول شرحُه.

وأما المحرماتُ: فتشتملُ على ما أشرنا إليه من المباحات، وتزيدُ عليها بأنها آفةُ العِرْضِ، ومَظِنَّةُ عقاب الدنيا وفضيحتها، وهناك وعيدُ الآخرة، ثم الجزعُ كلما ذكَرَها التائبُ.

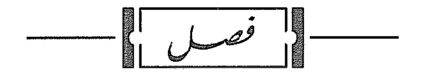
وفي قوَّةِ قهر الهوى لَذَّةٌ تزيد على كل لذة. ألا ترى إلى كلِّ مغلوب بالهوى كيف يكونُ ذليلاً لأنه قُهِرَ؛ بخلاف غالبِ الهوى؛ فإنه يكونُ قويَّ القلبِ عزيزاً لأنه قَهَر.

فالحذرَ الحذرَ من رؤية المُشْتَهَى بعين الحُسنِ كما يرى اللِّصُّ لَذَّة أخْذِ المال من الحِرْزِ، ولا يرى بعينِ فِكْرِه القطعَ.

وليفتح الإنسان عينَ البصيرة؛ لتأمُّل العواقب، واستحالةِ اللذة نَغْصةً، وانقلابِها عن كونها لذة، إمَّا لمللٍ، أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب، فتكونُ المعصية الأولى كلقمةٍ تناولها جائعٌ، فما ردَّتْ كَلَبَ الجوع، بل شهَّت الطعام.

وليتذكرِ الإنسانُ لذةَ قهر الهوى مع تأمُّل فوائدِ الصبر عنه.

فمنْ وُفِّقَ لذلك، كانتْ سلامتُه قريبةً منه.



فصل

[جهاد النفس وطريق تزكيتها]

تأملت جهادَ النفس؛ فرأيتُه أعظمَ الجهاد، ورأيت خلقاً من العلماء والزهاد لا يفهمونَ معناه؛ لأن فيهم منْ منَعَها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلطٌ من وجهين:

أحدهما: أنه رُبَّ مانِعٍ لها شهوةً أعطاها بالمنع أوفى منها. مثلُ أنْ يمنَعَها مباحاً؛ فيُشتَهَرَ بمنعه إياها ذلك، فترضى النفسُ بالمنع لأنها قد استبدلت به المدحَ.

وأخفى من ذلك أن يرى ـ بمنعه إياها ما مَنَعَ ـ أنه قد فَضلَ سواه ممَّن لم يمنعْها ذلك. وهذه دفائنُ تحتاج إلى مِنقاشِ فَهْمٍ يُخَلِّصُها.

والوجه الثاني: أننا قد كُلِّفنا حفظَها، ومن أسباب حفظِها ميلُها إلى الأشياء التي تُقيمُها، فلا بد من إعطائها ما يُقيمها، وأكثرُ ذلك أو كلُّه مما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها؛ لأنها ليستْ لنا، بل هي وديعةٌ عندنا، فمنعُها حقوقَها على الإطلاق خطرٌ.

ثم رُبَّ شَدٍّ أوجب استرخاءً، ورُبَّ مُضَيِّقٍ على نفسه فَرَّتْ منه فَصَعُبَ عليه تلافيها.

وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملُها على مكروهِها في تناول ما ترجو به العافيةَ، ويذوِّب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدارَ ما يصفهُ الطبيب، ولا تحملُه شهوتُه على موافقة غرضِها من مطعمٍ ربما جرَّ جوعاً، ومن لقمة ربما حرَمَتْ لُقْماتٍ.

فكذلك المؤمن العاقل، لا يترك لجامَها، ولا يُهمل مِقْوَدَها، بل يُرخي

لها في وقتٍ والطِّوَلُ[١] بيده، فما دامت على الجادَّة؛ لم يضايقْها في التضييق عليها، فإذا رآها مالتْ ردَّها باللُّطف، فإن ونَتْ[٢] وأبت فبالعنف، ويحسِبُها في مقام المداراة كالزوجة التي مبنى عقلها على الضَّعف والقِلَّة، فهي تُدارى عند نشوزِها بالوعْظ، فإن لم تصلُح فبالهجرِ، فإن لم تستقمْ فبالضرب، وليس في سياط التأديبِ أجودُ من سوْطِ عَزْم.

هذه مجاهدةٌ من حيث العمل.

فأما من حيثُ وعظُها وتأنيبُها، فينبغي لمن رآها تسكنُ للخلق، وتتعرضُ بالدناءة من الأخلاق أن يُعَرِّفَها تعظيمَ خالقِها لها، فيقول: ألستِ التي قال فيك: خلقتكِ بيديَّ، وأسجدتُ لكِ ملائكتي، وارتضاكِ للخلافة في أرضه، وراسلَكِ، واقترض منكِ واشترى[٣]؟

فإن رآها تتكبَّرُ؛ قال لها: هل أنت إلا قطرةٌ من ماء مهين، تقتُلُك شرقَةٌ، وتُؤلِمُك بقَّةٌ؟ وإنْ رأى تقصيرها؛ عرَّفها حقَّ الموالي على العبيد. وإن وَنَتْ في العمل؛ حدَّثها بجزيل الأجر. وإنْ مالت إلى الهوى؛ خوَّفها عظيم الوزر، ثم يحذِّرُها عاجلَ العقوبة الحسيَّةِ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمعنوية كقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فهذا جهادٌ بالقول، وذاك جهادٌ بالفعل.

---

(١) الطِّوَل: الحبل تُشَدُّ به الدابة ويُمْسِك صاحبُه بطَرَفه ويُرْسِلها تَرْعَى.

(٢) ونَتْ: قصَّرت وفترت.

(٣) قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ﴾ [التوبة: ١١١].

فصل

[أسباب تخلف إجابة الدعاء]

رأيت من البلاء أن المؤمنَ يدعو فلا يُجاب، فيكرّرُ الدعاءَ، وتطولُ المدةُ، ولا يرى أثراً للإجابة. فينبغي له أن يعلمَ أن هذا من البلاء الذي يحتاجُ إلى الصبر، وما يَعْرِضُ للنفس من الوَسواس في تأخير الجواب مرضٌ يحتاج إلى طبٍّ.

ولقد عرضَ لي من هذا الجنس. فإنه نزلت بي نازلةٌ، فدعوتُ وبالغتُ، فلم أرَ الإجابةَ، فأخذ إبليسُ يجول في حلَبَات كيدِهِ.

فتارة يقولُ: الكرمُ واسعٌ والبُخل معدومٌ، فما فائدة تأخيرُ الجواب؟

فقلتُ له: اخسأ يا لَعينُ. فما أحتاجُ إلى تَقاضٍ، ولا أرضاك وكيلاً.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياكِ ومساكنةَ وسوستِه؛ فإنه لو لم يكنْ في تأخير الإجابة إلا أن يبلُوَكِ المقدِّرُ في محاربة العدوِّ؛ لكفى في الحكمة.

قالت: فَسَلِّني عن تأخير الإجابةِ في مثل هذه النازلة.

فقلت: قد ثبتَ بالبرهان أن الله ﷻ مالِكٌ، وللمالك التصرُّف بالمنع والعطاءِ، فلا وجهَ للاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتتْ حكمتُه بالأدلة القاطعة؛ فربما رأيتِ الشيءَ مصلحةً والحكمةُ لا تقتضيه، وقد يخفى وجهُ الحكمة فيما يفعلُه الطبيبُ من أشياءَ تؤذي في الظاهرِ يقصِدُ بها المصلحةَ، فلعلَّ هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخيرُ مصلحةً والاستعجالُ مَضَرَّةً، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**». قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي**»[1].

---

(١) (**صحيح لغيره**) رواه أحمد (٣/ ١٩٣ و٢١٠)، وأبو يعلى (٢٨٦٧)، والطبراني في «الأوسط»، والبزار (٦٦٦٦).

الرابع: أنه قد يكونُ امتناع الإجابة لآفةٍ فيكِ، فربما يكون في مأكولكِ شُبهةٌ، أو قلبُكِ وقتَ الدعاء في غفلةٍ، أو تزاد عقوبتكِ في مَنْعِ حاجتِك لِذنبٍ ما صَدَقْتِ في التوبة منه.

فابحثي عن بعض هذه الأسباب لعلك توفَّقين بالمقصود.

كما رُوي عن أبي يزيد: أنه نزل بعضُ الأعاجم في داره، فجاء فرآه، فوقف بباب الدار، وأمر بعضَ أصحابه، فدخلَ، فقلع طيناً جديداً قد طَيَّنَهُ، فقام الأعجمي وخرجَ. فَسُئِلَ أبو يزيدَ عن ذلك فقال: هذا الطينُ من وجهٍ فيه شُبهةٌ، فلما زالتِ الشبهة؛ زال صاحبُها.

وعن إبراهيم الخوَّاصِ رحمة الله عليه: أنه خرج لإنكار منكرٍ، فَنَبَحَهُ كلبٌ له، فمنعَه أن يمضيَ، فعاد، ودخلَ المسجدَ، وصلَّى ثم خرج، فبصبصَ[1] الكلب له فمضى وأنكرَ، فزال المنكرُ، فسُئِل عن تلك الحال؟ فقال: كان عندي منكرٌ، فمنعني الكلبُ، فلما عُدْتُ، تُبْتُ من ذلك، فكان ما رأيتم.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحثُ عن مقصودِكِ بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادةُ إثمٍ، أو تأخيرٌ عن مرتبة خيرٍ، فكان المنع أصلحَ.

والسادس: أنه ربما كان فَقْدُ ما فَقَدْتِهِ سبباً للوقوف على الباب واللَّجَإِ، وحصولُه سبباً للاشتغال به عن المسؤول.

وهذا الظاهر؛ بدليل أنه لولا هذه النازلةُ ما رأيناكِ على باب اللَّجَإِ.

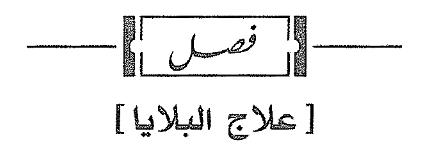
فالحقُّ ﷻ علم من الخلق اشتغالَهم عنه، فلذَعَهُم في خلال النعم بعوارضَ تدفعُهم إلى بابه، يستغيثونَ به، فهذا من النِّعَم في طيِّ البلاء، وإنما البلاءُ المحْضُ ما يَشْغَلُكِ عنه، فأما ما يُقيمُكِ بين يديه؛ ففيه جمالُك.

وإذا تدبَّرْتِ هذه الأشياءَ؛ تشاغلتِ بما هو أنفعُ لكِ من حصول ما فاتكِ،

---

(١) بَصْبصَ الكلبُ: حَرَّك ذَنَبَه. والبَصْبَصةُ: تحريكُ الكلب ذَنَبه طمَعاً أو خوْفاً.

من رفع خللٍ، أو اعتذارٍ من زللٍ، أو وقوفٍ على الباب إلى ربِّ الأرباب.



[علاج البلايا]

من نزلت به بليَّةٌ، فأراد تمحيقَها؛ فليتصوَّرْها أكثرَ مما هي تَهُنْ. ولْيتخايلْ ثوابَها، ولْيتوهَّم نزولَ أعظم منها، يَرَ الرِّبح في الاقتصار عليها، ولْيتلمح سرعةَ زوالها، فإنه لولا كَرْبُ الشدة ما رُجِيتْ ساعاتُ الراحة، وليعلمْ أن مدة مُقامها عنده كمدةِ مُقام الضيف، فلْيتفقدْ حوائجَه في كلِّ لحظةٍ، فيا سرعةَ انقضاء مُقامه، ويا لذةَ مدائحه وبشرِهِ في المحافل، ووصفِ المضيف بالكرم.

فكذلك المؤمنُ في الشدَّة، ينبغي أن يراعيَ الساعات، ويتفقدَ فيها أحوالَ النفس، ويتلمحَ الجوارحَ، مخافةَ أن يبدوَ من اللسان كلمةٌ، أو من القلب تسخُّطٌ، فكأنْ قد لاحَ فجرُ الأجر، فانجابَ[1] ليلُ البلاء ومُدحَ الساري بِقِطع الدُّجى، فما طلعتْ شمسُ الجزاء إلّا وقد وصلَ إلى منزل السلامة.



[ضرورة اقتران العلم والعمل]

لما رأيت رأيَ نفسي في العلم حسناً، فهي تُقدِّمُه على كلِّ شيءٍ، وتعتقدُ الدليلَ، وتُفضِّل ساعةَ التشاغل به على ساعات النوافل، وتقولُ: أقوى دليل لي على فضلِهِ على النوافل: أني رأيتُ كثيراً ممن شغلتهم نوافلُ الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقَدْحِ في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادَّةِ السَّهلةِ والرأي الصحيح.

---

(١) انجاب: انكشف وانقضى.

إلَّا أني رأيتُها واقفةً مع صورة التشاغُل بالعلم، فصحتُ بها: فما الذي أفادكِ العلمُ؟ أين الخوفُ؟ أين القلقُ؟ أين الحذرُ؟

أو ما سمعتِ بأخبار أخيارِ الأحبار في تعبُّدِهم واجتهادهم؟

أما كان الرسولُ ﷺ سيدَ الكلِّ، ثم إنَّه قام حتى وَرِمَتْ قدماه؟

أما كان أبو بكرٍ رضي الله عنه شَجِيِّ النَّشيجِ كثيرَ البكاءِ؟

أما كان في خدِّ عمرَ رضي الله عنه خطَّانِ من آثارِ الدُّموع؟

أما كان عثمانُ رضي الله عنه يختمُ القرآنَ في ركعةٍ؟

أما كان عليٌّ رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابِه حتى تَخْضَلَّ لحيتُه بالدموع، ويقولُ: يا دنيا غرِّي غيري؟

أما كان سعيدُ بن المسيبِ ملازِماً للمسجد فلم تَفُتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنة؟

أما قالتِ ابنةُ الربيع بن خُثَيْم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنامُ؟ فقال: إن أباكِ يخافُ عذابَ البيات[1].

أما صام يزيدُ الرقاشيُّ أربعين سنةً؟ وكان يقول: والهفاه، سبقني العابدونَ وقُطِعَ بي.

أما صام منصورُ بن المعتمرِ أربعين سنة؟

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبُّدهم: أبو حنيفةَ، ومالكٌ، والشافعيُّ، وأحمدُ؟

فاحذَري من الإخلادِ إلى صورةِ العلم مع تركِ العَمَل به، فإنها حالةُ الكُسالى الزَّمْنى:

وَخُـذْ لـكَ مِـنْـكَ عـلـى مُـهْـلَـةٍ ... ومُـقـبـلُ عـيـشِـكَ لـمْ يُـدْبِـرِ

(١) بَيَّتَ القوْمَ والعَدُوَّ: أَوقَع بهم ليلاً؛ والاسمُ البَياتُ. وأَتاهم الأَمر بَياتاً: أَي أَتاهم في جوفِ الليل.

وخَفْ هجْمَةً لا تُقيلُ العِثا ... رَ وتَطوي الوُرودَ على المصدَرِ
ومَثِّلْ لنفسِكَ أيَّ الرَّعيـ ... ـلِ يضمُّكَ في حلْبَةِ المحشرِ

فصل

[فوائد العزلة والانقطاع إلى الله لمن خشي على دينه]

كنتُ في بداية الصَّبْوة قد أُلْهمتُ سلوكَ طريقِ الزُّهاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحُبِّبَتْ إليَّ الخَلوةُ، فكنت أجد قلباً طيباً، وكانت عينُ بصيرتي قوية الحِدَّة، تتأسفُ على لحظةٍ تمضي في غير طاعةٍ، وتبادِرُ الوقتَ في اغتنام الطاعات، ولي نوعُ أنسٍ، وحلاوةُ مناجاةٍ.

فانتهى الأمرُ إلى أن صار بعضُ ولاةِ الأمور يستحسنُ كلامي، فأمالني إليه، فمالَ الطبعُ، ففقدتُ تلك الحلاوةَ.

ثم استمالَني آخرُ، فكنتُ أتَّقي مخالطتَهُ ومطاعمَهُ لخوفِ الشُّبهاتِ، وكانت حالتي قريبةً، ثم جاء التأويلُ، فانبسطتُ فيما يُباحُ؛ فعُدِمَ ما كنتُ أجد من استنارةٍ وسكينةٍ، وصارتِ المخالطةُ توجبُ ظُلمةً في القلب، إلى أن عَدِمَ النورَ كلَّه.

فكان حنيني إلى ما ضاع منِّي يوجِبُ انزعاجَ أهلِ المجلسِ، فيتوبونَ ويصلُحونَ، وأخرجُ مفلِساً فيما بيني وبين حالي.

وكثُر ضجيجي من مرضي، وعَجَزْتُ عن طبِّ نفسي، فدعوت وتوسلتُ في صلاحي، ولجأت إلى زيارة القبور، فاجتذبَني لُطْفُ مولايَ بي إلى الخلْوةِ على كراهةٍ مِنِّي، وردَّ قلبي عليَّ بعد نفورٍ منّي، وأراني عيبَ ما كنتُ أوثره، فأفقتُ من مرض غفلتي، وقلتُ في مناجاة خلوَتي:

سيدي، كيف أقدِرُ على شكركَ، وبأيِّ لسانٍ أنطق بمدحِك؛ إذ لم تؤاخذْني على غفلتي، ونبهتَني من رقدتي، وأصلحتَ حالي على كُرْهٍ من طبعي.

فما أربَحَني فيما سُلِبَ مني إذ كانت ثمرتُهُ اللجأَ إليك! وما أوفرَ جمْعي إذ ثمرتُهُ إقبالي على الخلوة بك. وما أغناني إذ أفقرتني إليك.

وما آنسني إذا أوحشتني من الغافلين من خلقك.

آه على زمانٍ ضاع في غير عبادتك! أسفاً لوقت مضى في غير طاعتك.

قد كنتُ إذا انتبهتُ وقت الفجر لا يؤلمني نومي طولَ الليل، وإذا انسلخَ عَنِّي النهارُ لا يوجِعُني ضَياعُ ذلك اليوم، وما علمتُ أن عدمَ الإحساس لقوةِ المرض.

فالآنَ قد هبَّتْ نسائمُ العافيةِ، فأحسستُ بالألم؛ فاستدللتُ على الصحة... فيا عظيمَ الإنعام تمِّمْ ليَ العافيةِ.

آه من سُكْرٍ لم يُعْلَمْ قَدْرُ عربدته إلا في وقتِ الإفاقةِ.

لقد فتقتُ ما يصعُبُ رتْقه، فوا أسفاً على بضاعةٍ ضاعتْ، وعلى ملّاحٍ تعبَ في موج الشَّمال مصاعداً مدةً، ثم غلبه النوم فَرُدَّ إلى مكانه الأول.

يا منْ يقرأُ تحذيري من التخليط؛ فإني ـ وإن كنت خنتُ نفسي بالفعل ـ نصيحٌ لإخوتي بالقول:

احذروا إخواني من الترخص فيما لا يُؤمنُ فسادُه، فإن الشيطان يُزيِّنُ المباحَ في أول مرتبةٍ، ثم يجرُّ إلى الجُناح؛ فتلمَّحوا المآل، وافهموا الحال. وربما أراكُمُ الغاية الصالحة؛ وكان في الطريق إليها نوعُ مخالفةٍ.

فيكفي الاعتبارُ في تلك الحال بأبيكم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، إنما تأمل آدمُ الغايةَ ـ وهي الخلدُ ـ ولكنه غَلِطَ في الطريق.

وهذا أعجب مصايدِ إبليسَ التي يصيدُ بها العلماءَ، يتأوَّلون لعواقبِ المصالح؛ فيستعجلونَ ضررَ المفاسد.

مثالُه: أنْ يقولَ للعالم: ادخُلْ على هذا الظالم فاشفع في مظلوم. فيستعجلُ الداخلُ رؤيةَ المنكرات، ويتزلزلُ دينُه، وربما وقع في شَرَكٍ صار به أظلمَ من ذلك الظالم.

فمن لم يثق بدينه؛ فليحذرْ من المصائد، فإنها خَفِيَّةٌ.

وأسلمُ ما للجبان العزلةُ، خصوصاً في زمانٍ قد مات فيه المعروفُ وعاش المنكرُ، ولم يبقَ لأهل العلم وَقْعٌ عند الولاةِ، فمن داخَلَهم؛ دخَلَ معهم فيما لا يجوزُ، ولم يقدِرْ على جذبِهم مما هم فيه.

ثم من تأمل حال العلماء الذين يعملون لهم في الولاياتِ؛ يراهُم منسلخين من نفع العلم، قد صاروا كالشُّرطة.

فليس إلا العزلةُ عن الخلْقِ والإعراضُ عن كل تأويل فاسدٍ في المخالطةِ. ولأَنْ أنفع نفسي وحدي خيرٌ لي من أن أنفع غيري وأتضرَّرَ.

فالحذر الحذرَ من خوادع التأويلاتِ وفواسدِ الفتاوى. والصبرَ الصبرَ على ما توجبُه العزلةُ. فإنه إنِ انفردْتَ بمولاك؛ فتح لك باب معرفتِهِ، فهان كلُّ صعبٍ، وطاب كلُّ مُرٍّ، وتيسَّرَ كلُّ عسرٍ، وحصَّلْتَ كلَّ مطلوبٍ.

والله الموفق بفضله، ولا حول ولا قوةَ إلَّا به.

فصل

[خير الأمور أوسطها]

رأيتُ نفسي كلما صفا فكرُها، أو اتَّعظتْ بدارجٍ[١]، أو زارتْ القبور، تتحركُ همَّتُها في طلبِ العزلةِ والإقبال على معاملةِ الله تعالى.

فقلتُ لها يوماً وقد كلَّمتْني في ذلك: حدِّثيني ما مقصودُكِ؟ وما نهايةُ مطلوبكِ؟ أتُراكِ تريدين مني أن أسكنَ قفراً لا أنيس به، فتفوتُني صلاةُ الجماعةِ، ويضيعُ مني ما قد علمتُه لِفَقْدِ من أعلِّمُه، وأن آكل الجَشْبَ[٢] الذي لم أتعوَّدْه، وأن ألبسَ الخَشِنَ الذي لا أطيقُه، وأن أتشاغَلَ عن طلبِ ذُرِّيَّةٍ تتعبَّدُ بعدي.

---

(١) دَرَجَ ودَرِجَ: أي مضى لسبيله. ودَرَجَ القومُ: إذا انقرضوا.

(٢) الجَشِبَ، هو الغَلِيظُ الخَشِنُ من الطَّعامِ، وقيل: غيرُ المأدوم.

بالله ما نفعني العلم الذي بذلت فيه عُمُري إن وافقتُك؟

وأنا أعَرِّفُكِ غلط ما وقع لك بالعلم:

اعلمي أن البدن مطيةٌ، والمطية إذا لم يُرفق بها لم تصل براكبها إلى المنزل. وليس مرادي بالرفق الإكثارَ من الشهوات، وإنما أعني أخذَ البُلغة(١) الصالحة للبدن، فحينئذ يصفو الفكر، ويصحُّ العقل، ويقوى الذهنُ.

ألا ترين إلى تأثير المعوِّقات عن صفاء الذهن في قوله عليه الصلاة والسلام: «لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهْوَ غَضْبَانُ»(٢)، وقاس العلماء على ذلك الجوعَ وما يجري مجراه مِنْ كونه حاقِناً أو حاقِباً(٣)؟ وهل الطبع إلّا ككلب يشغَلُ الآكلَ؛ فإذا رمى له ما يتشاغلُ به؛ طابَ له الأكلُ؟

فأما الانفرادُ والعزلة؛ فعن الشر لا عن الخير، ولو كان فيها لكِ وَقْعُ خيرٍ؛ لَنُقِلَ ذلك عن رسول الله ﷺ وعن أصحابِه ﵃.

هيهاتَ، لقد عرفتِ أن أقواماً دامَ بهم التقلُّلُ واليُبْسُ إلى أن تغيَّر فكرُهم، وقوى الخِلْطُ السوداويُّ عليهم؛ فاستوحشوا من الناس، وفيهم من ترقَّى به الخِلْطُ إلى رؤيةِ الأشباح فيظنُّها الملائكة!!

فاللهَ اللهَ في العلم، واللهَ اللهَ في العقل، فإنَّ نورَ العقل لا ينبغي أن يُتَعرَّضَ لإطفائه، والعلمُ لا يجوزُ الميل إلى تنقيصِه، فإذا حُفِظا؛ حَفِظا وظائفَ الزمان، ودفعا ما يؤذي، وجَلَبا ما يُصلحُ، وصارتِ القوانينُ مستقيمةً في المطعم والمشرب والمخالطةِ.

فقالت لي النفسُ: فوظِّفْ لي وظيفةً، واحْسِبْني مريضاً قد كتبتَ له شَرْبَةً.

---

(١) بُلْغةٌ: أي كِفايةٌ.

(٢) رواه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم في الأقضية: باب (٧) رقم (١٦/١٧١٧)، وأحمد (٥/٣٧)، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) الحاقن: من احتبس بوله. والحاقب: من احتبس غائطه.

فقلت لها: قد دللتُك على العلم، وهو طبيبٌ ملازمٌ، يصفُ كلَّ لحظةٍ لكلِّ داءٍ يَعْرِضُ دواءً يلائمُ.

وفي الجملة: ينبغي لك ملازمةُ تقوى الله ﷻ في المنطق والنظر، وجميع الجوارح، وتحقُّقُ الحلال في المطعم، وإيداعُ كلِّ لحظة ما يصلُحُ لها من الخير، ومناهبَةُ الزمان في الأفضل، ومجانبةُ ما يؤدِّي إلى ما يؤذي من نَقْص ربح أو وقوع خُسرانٍ. ولا تعملي عملاً إلا بعد تقديم النِّيةِ. وتأهَّبي لمزعج الموت، فكأنْ قد، وما عندك من مجيئه في أيِّ وقتٍ يكون. ولا تتعرضي لمصالح البدن، بل وفِّريها عليه، وناوليه إياها على قانونِ الصوابِ، لا على مقتضى الهوى، فإن إصلاحَ البدن سببٌ لإصلاح الدِّين. ودعي الرعونةَ التي يدلُّ عليها الجهل لا العلم، فعليك بالعلم، فإنه شفاءٌ من كل داءٍ، والله الموفق.

فصل

[الإسلام دين النظافة]

تلمَّحتُ على خلق كثير من الناس إهمالَ أبدانهم، فمنهم من لا ينظفُ فمه بالخِلال بعد الأكل، ومنهم من لا يُنقِّي يديه في غسلِها من الزَّهَم، ومنهم من لا يكادُ يستاكُ، وفيهم من لا يراعي الإبطَ... إلى غير ذلك، فيعود هذا الإهمالُ بالخلل في الدين والدنيا.

أما الدينُ فإنه قد أمَرَ المؤمن بالتنظُّف والاغتسال للجُمعة، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثومَ، وأمر الشرعُ بتنقية البراجم وقصِّ الأظفارِ، والسواكِ، والاستحدادِ... وغير ذلك من الآداب. فإذا أُهمِلَ ذلك؛ تُرِكَ مسنونُ الشرع، وربما تعدى بعضُ ذلك إلى فساد العبادة، مثل أن يُهملَ أظفارَه؛ فيجمَعَ تحتَه الوسخَ المانعَ للماء في الوضوءِ أن يصلَ.

وأما الدنيا؛ فإني رأيت جماعةً من المهمِلين أنفسَهم يتقدمون إلى

السِّرار[١]، والغفلةُ التي أوجبتْ إهمالَهم أنفسَهم أوجبتْ جهلَهم بالأذى الحادثِ عنهم، فإذا أخذوا في مناجاةِ السِّرِّ؛ لم يمكنْ أنْ أصدِفَ عنهم؛ لأنهم يقصِدونَ السِّرَّ، فألقى الشدائدَ من ريح أفواهِهِم، ولعلَّ أكثَرَهم من وقت انتباهِهِم ما أمرَّ أصبعَه على أسنانِه.

ثم يوجبُ مثلُ هذا نفورَ المرأة، وقد لا تستحسنُ ذِكْرَ ذلك للرجلِ، فيثمرُ ذلك التفاتَها عنه.

وقد كان ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يقول: إني لأحبُّ أن أتزين للمرأة كما أحبُّ أن تتزين لي.

وفي الناس من يقول: هذا تصنُّعٌ. وليس بشيءٍ؛ فإن الله تعالى زيَّنَنا لَمَّا خلَقَنا؛ لأن للعين حظّاً في النظر، ومن تأمل أهدابَ العين والحاجبين وحسنَ ترتيب الخلقة، علمَ أن الله زيَّن الآدميَّ.

وقد كان النبي ﷺ أنظفَ الناس وأطيبَ الناس.

وفي الحديث عنه ﷺ: يَرفَعُ يدَيه حتى يُرَى بياضُ إبطَيْه[٢]، وكان لا يفارقُه السِّواكُ، وكان يكره أن يُشَمَّ منه ريحٌ ليستْ طيبةً.

وفي حديثِ أنس الصَّحيح: ما شانَهُ الله ببيضاءَ[٣].

وقد قالتِ الحكماء: من نَظَّف ثوبَه قلَّ همُّه، ومن طاب ريحُه زاد عقلُه.

فالمتنظِّف ينعِّمُ نفسَه، ثم إنه يَقْرُبُ من قلوب الخَلْق، وتحبُّه النفوسُ؛ لنظافته وطيبِه.

وقد كان النبي ﷺ يحبُّ الطِّيب.

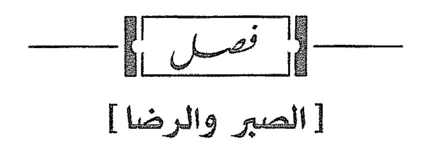
ثم إنه يُؤْنِسُ الزوجةَ بتلك الحال؛ فإنَّ النساء شقائقُ الرجال، فكما أنه يكره الشيءَ منها؛ فكذلك هي تكرهُه.

---

(١) السّرار: المناجاة عن قرب بالسر.
(٢) كما جاء في دعاء الاستسقاء، والدعاء.
(٣) رواه مسلم في الفضائل: باب (٢٩) رقم (٢٣٤١/١٠٥)، وأحمد (٣/٢٥٤).

وقد رأيت جماعةً يزعمون أنهم زهَّادٌ، وهم من أقذر الناس، وذلك أنهم ما قوَّمهُمُ العلمُ.

ومن تأمَّل خصائصَ الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً في العلم والعمل، فبه يكونُ الاقتداءُ، وهو الحُجَّةُ على الخلق.



[الصبر والرضا]

ليس في التكاليفِ أصعبُ من الصبر على القضاءِ، ولا فيه أفضلُ من الرِّضا به.

فأما الصبرُ؛ فهو فرضٌ. وأما الرضا؛ فهو فضلٌ.

وإنما صعُب الصبر لأن القَدَرَ يجري في الأغلبِ بمكروهِ النفس.

وليس مكروهُ النفس يقف على المرض والأذى في البدن، بل هو يتنوع.

فمن ذلك أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدري ما يصنع بالمال، فهو يصوغُهُ أوانيَ يستعملها. ومعلوم أن البلورَ والعقيقَ قد يكونُ أحسنَ منها صورةً؛ غير أن قلة مبالاته بالشريعة جعلت عنده وجودَ النهي كعدِمِه. ويلبس الحرير، ويظلم الناسَ، والدنيا مُنصبَّة عليه.

ثم ترى خَلْقاً من أهل الدِّين، وطلاب العلم مغمورينَ بالفقر والبلاء، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم. فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس، ويبتدئ بالقدْح في حكمة القَدَر؛ فيحتاجُ المؤمنُ إلى الصبر على ما يلقى من الضر في الدنيا وعلى جدال إبليس في ذلك.

وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدِّين.

ففي مثل هذه المواطن يتمحص الإيمان.

ومما يقوِّي الصبر على الحالتين: النقلُ، والعقلُ.

أما النقل؛ فالقرآنُ والسُّنَّةُ.

أما القرآن؛ فمنقسمٌ إلى قسمين:

أحدُهما: بيانُ سبب إعطاءِ الكافر والعاصي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]... وفي القرآن من هذا كثير.

والقسم الثاني: ابتلاءُ المؤمنِ بما يَلْقى:

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]... وفي القرآن من هذا كثيرٌ.

وأما السُّنَّةُ؛ فمنقسمةٌ إلى قولٍ وحالٍ:

أما الحالُ؛ فإنه ﷺ كان يتقلَّبُ على حصيرٍ تؤثِّر في جنبه، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: هَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. فَقَالَ: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا**»[1].

وأما القولُ؛ فقولهِ عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[2].

وأما العقل؛ فإنه يقوِّي عساكر الصبر بجنودٍ:

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٢٤٦٨ و٥١٩١)، ومسلم في الطلاق: باب (٥) رقم (١٤٧٩/ ٣٤)، وأحمد (١/ ٣٤)، وابن ماجه (٤١٥٣)، والحاكم (٧٠٧٢) كلهم من حديث عمر. ورواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٢٧) و«الأوسط»، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤١٣) من حديث ابن مسعود.

(٢) (صحيح) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم (٧٨٤٧) من حديث سهل بن سعد.

منها: أن يقول: قد ثبتتْ عندي الأدلةُ القاطعةُ على حكمةِ المُقدِّرِ؛ فلا أترُكُ الأصل الثابتَ لما يظنُّه الجاهل خللاً.

ومنها: أن يقولَ: ما قد استهولْتَهُ أيُّها الناظرُ من بَسْط يد العاصي هي قبضٌ في المعنى، وما قد أثَّر عندك من قبضٍ يد الطائع بسْطٌ في المعنى؛ لأن ذلك البسطَ يوجب عقاباً طويلاً، وهذا القبضَ يؤثِّرُ انبساطاً في الأجر جزيلاً، فزمانُ الرَّجُلين ينقضي عن قريبٍ، والمراحل تُطوى، والرُّكبان في السير الحثيثِ.

ومنها: أن يقولَ: قد ثبتَ أن المؤمن بالله كالأجير، وأنَّ زمنَ التكليف كبياض نهار، ولا ينبغي للمُسْتَعْمَل في الطين أن يلبس نظيفَ الثياب، بل ينبغي أن يصابر ساعاتِ العمل، فإذا فرغ تنظف ولبس أجود ثيابه، فمن ترفَّهَ وقت العمل؛ ندم وقت تفريق الأجرة، وعوقب على التواني فيما كُلِّفَ.

فهذه النَّبذَةُ تقوِّي أزْرَ الصبر.

وأزيدُها بسطاً فأقول: أتَرى إذا أُريد اتخاذُ شهداءَ، فكيف لا يُخلقُ أقوامٌ يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين؟ أفيجوزُ أن يَفْتك بعُمَرَ إلا مِثْلُ أبي لؤلؤة؟ وبعليٍّ إلّا مِثْلَ ابنِ مُلْجِمٍ؟ أفيصحُّ أن يقتلَ يحيى بن زكريا إلّا جبَّارٌ كافرٌ؟

ولو أن عين الفهم زال عنها غشاءُ العَشَا؛ لرأتِ المسببَ لا الأسبابَ، والمُقدِّرَ لا الأقدارَ، فصبرتْ على بلائه، إيثاراً لما يريد. ومن هاهنا ينشأ الرضا.

إنْ كانَ رِضاكُمْ في سَهَري فسلامُ اللهِ على وَسَني



فصل

[مقام الرضا عن الله ﷻ]

لما أنهيتُ كتابةَ الفصل المتقدم؛ هتف بي هاتف من باطني: دعْني من شرح الصبر على الأقدار، فإني قد اكتفيتُ بأُنْموذَج ما شرحتَ. وَصِفْ حالَ الرضا؛ فإني أجد نسيماً من ذِكْره فيه رَوْحٌ للرُّوح.

فقلت: أيها الهاتفُ، اسمعِ الجوابَ، وافهمِ الصوابَ: إنَّ الرضا من

جملة ثمرات المعرفةِ، فإذا عرفتَهُ رضيتَ بقضائه، وقد يجري في ضمن القضاء مراراتٌ يجدُ بعضَ طعمها الراضي، أما العارفُ؛ فتقلُّ عنده المرارةُ لقوة حلاوةِ المعرفة، فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبةِ؛ صارت مرارةُ الأقدار حلاوةً، كما قال القائل:

عــذابُــهُ فــيــكَ عــذْبُ ... وبُــعْــدُهُ فــيــكَ قُــرْبُ
وَأنــتَ عِــنْــدي كَــرُوحــي ... بــلْ أنــتَ مِــنْــهــا أحَــبُّ
حَــسْــبــي مِــنَ الــحُــبِّ أنّــي ... لِــمَــا تُــحِــبُّ أُحِــبّ

وقال بعض المحبين في هذا المعنى:

ويقبُحُ مِنْ سِواكَ الفِعْلُ عِندي ... فتفعَلُهُ فيَحْسُنُ مِنْكَ ذاكا

فصاح بيَ الهاتفُ: حدِّثني بماذا أرضى؟ قدِّر أني أرضى في أقداره بالمرض والفقرِ، أفأرضى بالكسل عن عبادته والبعد عن أهل محبته؟ فبيِّنْ لي ما الذي يدخلُ تحت الرضا مما لا يدخُلُ؟

فقلتُ له: نِعْمَ ما سألتَ؛ فاسمعِ الفرقَ سماعَ من ألقى السمع وهو شهيدٌ: ارضَ بما كان منه، فأما الكسلُ والتخلُّفُ فذاك منسوب إليك، فلا ترضَ به من فعلكَ. وكن مستوفياً حقهُ عليك، مناقشاً نفسك فيما يقرِّبكَ منه، غيرَ راضٍ منها بالتواني في المجاهدة. فأما ما يصدُرُ من أقضيته المجرَّدة التي لا كسب لك فيها؛ فكن راضياً بها؛ كما قالت رابعة: إنَّ الراضي لا يتخيَّر، ومن ذاق طعم المعرفة؛ وجد فيه طعمَ المحبةِ؛ فوقع الرضا عنده ضرورةً.

فينبغي الاجتهادُ في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العملُ بمقتضى المعرفة بالجدِّ في العبادة، لعل ذلك يورثُ المحبة؛ فقد قال ﷻ في الحديث القدسيّ: «**لا يزالُ العبدُ يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ به...**»[1].

فذلك الغنى الأكبرُ... ووا فقراه!

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٦٥٠٢).

فصل

[من حيل إبليس على الصوفية]

ليس في الوجود شيء أشرف من العلم. كيف لا وهو الدليلُ، فإذا عُدِمَ وقَعَ الضَّلالُ.

وإنَّ من خفِيِّ مكائدِ الشيطانِ أن يُزيِّنَ في نفس الإنسان التعبّدَ؛ ليشغَلَهُ عن أفضل التعبُّد، وهو العلم. حتى إنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورمَوْها في البحرِ. وهذا قد ورد عن جماعة.

وأحسن ظنِّي بهم أن أقولَ: كان فيها شيء من رأيهم وكلامِهم فما أحبُّوا انتشارَه. وإلّا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يُخافُ عواقبُه؛ كان رميُها إضاعةً للمال لا يَحِلُّ.

وقد دنتْ حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفةِ حتى منعوا من حملِ المحابر تلامذَتَهم، وحتى قال جعفر الخُلْدي: لو ترَكَني الصوفيةُ جئتُكم بإسناد الدنيا، كتبتُ مجلساً عن العباس الدوري، فلقيني بعضُ الصوفية، فقال: دعْ علم الورق، وعليك بعلم الخِرَق.

ورُئِيَتْ محبرةٌ مع بعض الصوفية، فقال له صوفيٌّ آخرُ: استرْ عورَتَكَ! وقد انشدوا للشبلي:

إذا طالَبوني بِعِلْمِ الوَرَقْ ... بَرَزْتُ عليهِمْ بِعِلْمِ الخِرَقْ

وهذا من خفِيِّ حيل إبليس، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإنما فعل وزيَّنَه عندهم لسببين:

أحدهما: أنه أرادَهُم يمشونَ في الظُّلمةِ.

والثاني: أنَّ تصفُّحَ العلم كل يوم يزيدُ في العالِمِ. ويكشفُ له ما كان خَفِيَ عنه، ويقوي إيمانَه ومعرفتَه، ويُريه عيبَ كثيرٍ من مسالكه إذا تصفَّح منهاجَ الرسول ﷺ والصحابة.

فأراد إبليس سدَّ تلك الطرق بأخفى حيلة، فأظهرَ أن المقصودَ العملُ، لا العلمُ لنفسه، وخفي على المخدوع أن العلمَ عملٌ، وأيُّ عملٍ.

فاحذرْ من هذه الخديعة الخفية، فإن العلم هو الأصل الأعظم، والنورُ الأكبر.

وربما كان تقليبُ الأوراقِ أفضلَ من الصوم والصلاة والحج والغزْو.

وكم من مُعرضٍ عن العلم يخوض في عذابٍ من الهوى في تعبُّده، ويضيِّع كثيراً من الفرض بالنفل، ويشتغلُ بما يزعُمُه الأفضلَ عن الواجب.

ولو كانت عنده شُعلةٌ من نور العلم لاهتدى. فتأمَّل ما ذكرتُ لك تَرْشُدْ إن شاء الله تعالى.

فصل

[تعليل النفس يعين على تحمل المشاق]

مرَّ بي حمَّالانِ تحتَ جذعٍ ثقيل، وهما يتجاوبانِ بإنشادِ النَّغَم وكلماتِ الاستراحةِ. فأحدُهما يُصغي إلى ما يقولُه الآخرُ، ثم يعيدُه أو يجيبُه بمثله، والآخر هِمَّتُه مثلُ ذلك.

فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا؛ زادتِ المشقةُ عليهما، وثقُلَ الأمرُ، وكلما فعلا هذا؛ هانَ الأمر.

فتأملت السببَ في ذلك، فإذا به تعليقُ فكر كل واحد منهما بما يقولُه الآخرُ، وطَرَبُهُ به، وإجالةُ فكره في الجواب بمثل ذلك، فينقطعُ الطريقُ، وينسى ثقلَ المحمول.

فأخذت من هذا إشارة عجيبةً، ورأيت الإنسان قد حُمِّلَ من التكليف أموراً صعبةً، ومن أثقل ما حُمِّل مُداراةُ نفسه وتكليفُها الصبرَ عما تحبُّ وعلى ما تكرهُ. فرأيت الصوابَ قطعَ طريقِ الصبرِ بالتسلية والتلطفِ للنفس، كما قال الشاعر:

فإنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْها المَجَرَّة من   ضَوْءِ الصباح وعِدْها بالرَّواح ضُحى

ومن هذا ما يُحكى عن بشرٍ الحافي رحمة الله عليه: سارَ ومعه رجلٌ في طريقٍ، فعطشَ صاحبُه، فقال له: نشربُ من هذا البئرِ. فقال بشرٌ: اصبر إلى البئرِ الأخرى. فلما وصلا إليها قال له: البئرَ الأخرى. فما زال يعلِّله... ثم التفتَ إليه فقال له: هكذا تنقطعُ الدنيا.

ومن فهم هذا الأصل؛ علل النفس، وتلطف بها، ووعدها الجميلَ لتصبرَ على ما قد حُمِّلت، كما كان بعض السلف يقول لنفسه: والله ما أريدُ بمنعِكِ من هذا الذي تحبين إلَّا الإشفاقَ عليك.

وقال آخر: ما زلتُ أسوقُ نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي، حتى سُقتُها وهي تضحكُ.

واعلم أن مداراة النفس والتلطُّفَ بها لازم، وبذلك ينقطع الطريقُ.

فهذا رمزٌ إلى الإشارةِ، وشرحُه يطولُ.

فصل

[التحذير من مزالق علم الكلام]

مِنْ أضرِّ الأشياء على الناس كلامُ المتأولينَ، والنُّفاةِ للصفات والإضافات.

فإن الأنبياءَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ بالغوا في الإثباتِ؛ ليتقرَّرَ في أنفس الناس وجودُ الخالقِ، فإن النفوسَ تأنسُ بالإثباتِ، فإذا سمعَ الشخص ما يوجبُ النَّفْيَ؛ طَرَدَ عن قلبه الإثباتَ، فكان أعظمَ ضررٍ عليه، وكان هذا المنزِّه من العلماء ـ على زعمه ـ مقاوماً لإثباتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو، وشارعاً في إبطال ما يُفتونَ به.

وبيانُ هذا: أنَّ الله تعالى أخبر باستوائِهِ على العرش؛ فأَنِسَتِ النفوسُ إلى إثبات الإله ووجوده، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، وقال

تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ [الفتح: ٦]، ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأخبر عنه الرسول ﷺ أنه «**ينزل إلى السماء الدُّنيا**»[(١)]، وقال: «**قلوبُ العِبادِ** بين **أُصْبُعَيْنِ**»[(٢)]، وقال: «**كَتَبَ التوراةَ بيده**»[(٣)]، «**وكَتَبَ كتاباً فهو عنده فوقَ العرش**»[(٤)]. . . إلى غير ذلك مما يطولُ ذِكْرُه.

فإذا امتلأ المسلم من الإثباتِ، وكاد يأنسُ من الأوصاف بما يفهمُه الحسُّ؛ قيل له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فمحا من قلبه ما نقشَهُ الخيالُ، وتبقى ألفاظُ الإثباتِ متمكنةً.

ولهذا أقرَّ الشرعُ مثل هذا، قال أحد الصحابة لرسول الله ﷺ: أوَ يضحكُ ربُّنا؟ فقال: «**نعم**»[(٥)].

وقال: «**إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَماوَاتِهِ لَهَكَذَا**»، وَقالَ بأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ»[(٦)]. كل هذا ليقرِّرَ الإثباتَ في النفوس.

وأكثرُ الخلق لا يعرفون الإثباتَ إلّا على ما يعلمونَ من الشاهِدِ، فَيُقْنَعُ منهم بذلك إلى أن يفهموا التنزيه.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥ و٦٣٢١ و٧٤٩٤)، ومسلم في صلاة المسافرين ٦: باب (٢٤) رقم (١٦٨/٧٥٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر ٤٦: باب (٣) رقم (١٧/٢٦٥٤)، وأحمد (١٦٨/٢ و١٧٣)، والنسائي في الكبرى (٧٧٣٣ و٧٨٣٨) من حديث ابن عمرو، ورواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١١٢/٣) من حديث أنس.

(٣) رواه مسلم في القدر: باب (٢) رقم (١٣/٢٦٥٢)، وأبو داود (٤٧٠١)، وابن ماجه (٨٠).

(٤) رواه البخاري (٣١٩٤ و٧٤٠٤ و٧٤٢٢ و٧٤٥٣)، ومسلم في التوبة: باب (٤) رقم (١٤/٢٧٥١).

(٥) (**حسن**) رواه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (١١/٤ و١٢ و١٣)، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٨١٠) لطرقه.

(٦) (**ضعيف**) رواه أبو داود (٤٧٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، و«السنة» لابن أبي عاصم.

ولا يجوزُ لعالمٍ أن يأتي إلى عقيدة مسلم قد أَنِسَ بالإثبات فيهوِّشَها؛ فإنه يُفسدُه، ويصعُبُ صلاحُه.

وهذه جنايةٌ عظيمةٌ على الأنبياء، توجبُ نقضَ ما تعبوا في بيانه، وقد حُدِّثنا بما نعقل، وضُربتْ لنا الأمثال بما نعلم، وقد ثبت عندنا بالأصل المقطوع به أنه لا يجوزُ عليه ما يعرفُه الحسُّ.

وأصلحُ ما نقول للناس: أَمِرُّوا هذه الأشياءَ كما جاءتْ، ولا تتعرضوا لتأويلها.

وذلك يُقصد به حفظ الإثبات، وهذا الذي قصدَه السلفُ؛ كلُّ ذلك لِيَحْمِلَ على الاتِّباع، وتبقى ألفاظُ الإثبات على حالها.

وأجهلُ الناس من جاء إلى ما قَصَدَ النبي ﷺ تعظيمَه، فأضعفَ في النفوس قُوى التعظيم.

وينبغي أن يُفهمَ أوضاعُ الشرع ومقاصدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد مَنَعوا مِنْ كشفِ ما قد قَنَّعَ الشرعُ؛ فنهى رسولُ الله ﷺ عن الكلام في القَدَرِ، ونهى عن الاختلاف؛ لأن هذه الأشياءَ تَخْرُجُ إلى ما يؤذي؛ فإن الباحثَ عن القدر إذا بلغ فهمُهُ إلى أن يقول: قضَى وعاقبَ؛ تزلزلَ إيمانُه بالعدل، وإن قال: لم يُقدِّرْ ولَمْ يقضِ؛ تزلزلَ إيمانُهُ بالقُدرةِ والمُلْكِ. فكانَ الأولى تركَ الخوض في هذه الأشياء.

ولعلَّ قائلاً يقول: هذا منعٌ لنا عن الاطِّلاع على الحقائقِ، وأمرٌ بالوقوفِ مع التقليدِ.

فأقولُ: لا، إنما أعلمكَ أنَّ المرادَ منك الإيمانُ بالجمل، وما أُمِرْتَ بالتَّنقير لمعرفةِ الكُنْه، مع أن قُوى فهْمِك تَعْجِزُ عن إدراك الحقائق.

فإنَّ الخليلَ عليه الصلاة والسلام قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ﴾. فأراه ميتاً حَيِيَ ولم يُرِهِ كيف أحياه؛ لأن قُواه تعجزُ عن إدراك ذلك.

وقد كان النبي ﷺ ـ وهو الذي بُعِث لِيُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ـ يقنعُ من الناس بنفس الإقرارِ واعتقادِ الجُمَل.

وكذلك كانتِ الصحابةُ، فما نُقل عنهم أنهم قالوا: استوى بمعنى: استولى، وينزلُ بمعنى: يرحم. بل قنعوا بإثبات الجُمَلِ التي تُثبتُ التعظيمَ عند النفوس، وكفُّوا كفَّ الخيال بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم هذا منكرٌ ونكيرٌ إنما يسألانِ عن الأصول المجملة، فيقولان: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟

ومن فهم هذا الفصل؛ سَلِمَ من تشبيهِ المُجَسِّمةِ، وتعطيلِ المعطِّلة، ووقف على جادَّةِ السلفِ الأول. والله الموفق.

فصل

[كيفية أخذه تعالى للأسماع والأبصار]

قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فلاحت لي فيها إشارةٌ كدتُ أطيش منها.

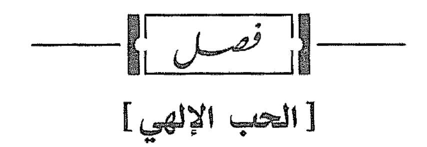
وذلك أنه إنْ كان عَنَى بالآية نفسَ السمع والبصر؛ فإن السمعَ آلةٌ لإدراكِ المسموعاتِ، والبصرَ آلةٌ لإدراك المُبْصَراتِ، فهما يَعْرِضانِ ذلك على القلبِ، فيتدبَّرُ ويعتبرُ؛ فإذا عُرضتِ المخلوقاتُ على السمع والبصر؛ أوصلا إلى القلب أخبارَها من أنها تدلُّ على الخالقِ، وتحملُ على طاعة الصانع، وتحذِّرُ من بطشه عند مخالفتِه.

وإن عنى معنى السمع والبصر؛ فذلك يكون بذهولِهما عن حقائق ما أدركا شُغْلاً بالهوى، فيُعاقَبُ الإنسان بسلْبِ معاني تلك الآلات، فيرى وكأنه ما رأى، ويسمعُ وكأنه ما سمعَ، والقلبُ ذاهلٌ عما يتأذى به، لا يدري ما يُراد به، لا يؤثِّر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تُجْلى، ولا يدري أين هو، ولا ما المرادُ منه، ولا إلى أين يُحْمَلُ، وإنما يلاحظُ بالطبع مصالحَ عاجلتِهِ، ولا يتفكرُ في خسران آجلته، لا يعتبرُ برفيقِه، ولا يتعظ بصديقِه، ولا يتزودُ لطريقة؛ كما قال الشاعرُ:

النَّاسُ في غَفْلَةٍ والموتُ يوقِظُهُمْ ... وما يُفيقونَ حتَّى يَنْفَدَ العُمُر
يُشيِّعونَ أهالِيهمْ بِجَمْعِهِمُ ... وينظرونَ إلى ما فيهِ قدْ قُبروا
ويرجِعونَ إلى أحلامِ غفلتهمْ ... كأنهم ما رأوْا شيئاً ولا نَظَروا

وهذه حالةُ أكثرِ الناس.

فنعوذُ بالله من سَلْبِ فوائدِ الآلات؛ فإنها أقبحُ الحالات.



[الحب الإلهي]

نظرتُ فيما تكلَّمَ به الحكماءُ في العشقِ وأسبابِه وأدويتِه، وصنَّفتُ في ذلك كتاباً سميتُه بـ «ذمِّ الهوى»، وذكرتُ فيه عن الحكماءِ أنهم قالوا: سببُ العشق حركةُ نفسٍ فارغةٍ.

إلَّا أنه خطرَ لي بعد ذلك معنى عجيبٌ، وهو أنه لا يتمكنُ العشقُ إلا مع واقفٍ جامدٍ، فأما أربابُ صعود الهمم؛ فقد تسلَّت أنفسُهم وتعلَّقتْ بمطلوبٍ آخرَ، فإنَّهم أبداً في الترقِّي، لا يصدُّهم صادٌّ، فإذا عَلِقَتِ الطِّباعَ محبةُ شخصٍ؛ لم يبلُغوا مرتبةَ العشق المستأثِرِ، بل ربما مالوا ميلاً شديداً، إما في البداية لقلةِ التفكُّرِ، أو لقلة المخالطة والاطلاع على العيوب، وإما لتشبث بعض الخلال الممدوحة بالنفوس من جهة مناسبةٍ وقعتْ بين الشخصين، كالظريف مع الظريف، والفطن مع الفطنِ، فيوجب ذلك المحبةَ؛ فأما العشقُ؛ فلا، فهُمْ أبداً في السير فلا يُوقَفُ، وإبلُ الطبع تتبعُ حادي الفهم؛ فإن للطبع متعلَّقاً لا تجدُه في الدنيا؛ لأنه يرومُ ما لا يصحُّ وجودُه من الكمال في الأشخاص.

وأما مُتعلَّقُ القلوبِ من محبة الخالق البارئ؛ فهو مانعٌ لها من الوقوف مع سواه، وإن كانت محبته لا تجانِسُ محبةَ المخلوقينَ، غير أن أربابَ المعرفةِ وَلْهَى، قد شغلهم حبُّه عن حبِّ غيره، وصارت الطباعُ مستغرقةً لقوَّةِ معرفة القلوب ومحبتها.

وإنما تعتري هذه الحالاتُ أربابَ المعرفة بالله ﷻ وأهلَ الأَنَفَةِ من الرذائل.

ومجموعُ ما أردتُ شرحُه، أن طباعَ المتيقظينَ تترقى فلا تقفُ مع شخص مستحسن، وسببُ ترقيها التفكير في طلب ما هو أهمُّ منه، وقلوب العارفين تترقى إلى معروفها فتَعْبُرُ في معبر الاعتبار، فأما أهلُ الغفلة؛ فجمودُهم وغفلتُهم يوجبُ أَسْرَهُمْ وقَسْرَهم وحَيْرَتَهم.

فصل

[في التعلق بالمسبِّب لا بالأسباب]

قلوبُ العارفين يُغار عليها من الأسباب، وإن كانتْ لا تساكنُها؛ لأنها لمّا انفردت لمعرفتها؛ انفردَ لها بتولِّي أمورِها، فإذا تعرَّضت بالأسباب؛ مَحَا أثر الأسباب: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

والأسباب طريقٌ، ولا بدَّ من سلوكها، والعارف لا يساكنها؛ غيرَ أنه يُجَلَّى له من أمرها ما لا يُجَلَّى لغيره من أنها لا تساكَنُ، وربما عوقب إن مالَ إليها وإن كان ميلاً لا يقبلُهُ، غير أن أقلَّ الهفوات يوجب الأدب.

وتأملْ عُقبى سليمان ﷺ لما قال: **«لأطوفنَّ الليلةَ على مائةِ امرأةٍ، تَلِدُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ غلاماً، ولم يقلْ: إن شاءَ اللهُ. فما حمَلَتْ إلَّا واحدةٌ، جاءتْ بشِقِّ غلام»**(١).

ولقد طرقتني حالة أوجبتِ التشبُّثَ ببعض الأسباب، إلا أنه كان من ضرورةِ ذلك لقاءُ بعض الظَّلَمَة ومداراتُهُ بكلمةٍ، فبينما أنا أفكر في تلك الحال؛ دخل عليَّ قارئٌ، فاستفتحَ، فتفاءلتُ بما يقرأ، فقرأ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٩ و٥٢٤٢ و٦٦٣٩ و٦٧٢٠)، ومسلم في الأيمان: باب (٥) رقم (١٦٥٤/٢٣).

ﭐلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]، فبُهتُّ من إجابتي على خاطري، وقلت لنفسي: اسمعي! فإنني طلبت النصرَ في هذه المداراةِ؛ فأعلمني القرآنُ أنني إذا ركنت إلى ظالم؛ فاتني ما ركنتُ لأجله من النصر.

فيا طوبى لمن عرفَ المسبِّبَ وتعلَّق به، فإنها الغايةُ القصوى، فنسأل الله أن يرزقَنا.

فصل

[المؤمن والذنوب]

المؤمنُ لا يبالغُ في الذنوب، وإنما يَقْوَى الهوى وتتوقدُ نيرانُ الشهوة فينحدرُ. وله مرادٌ لا يعزِمُ المؤمن على مُواقعتهِ، ولا على العوْدِ بعد فراغه، ولا يستقصي في الانتقام إن غَضِبَ، وينوي التوبةَ قبل الزلل.

وتأملْ إخوةَ يوسفَ عليه السلام، فإنهم عزموا على التوبة قبل إبعاد يوسفَ، فقالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، ثم زاد ذلك تعظيماً فقالوا: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، ثم عزموا على الإنابة فقالوا: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، فلما خرجوا إلى الصحراء؛ همُّوا بقتله بمقتضى ما في القلوب من الحسد، فقال كبيرُهم: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، ولم يُردْ أن يموتَ، بل يلتقطُه بعضُ السيَّارة، فأجابوا إلى ذلك.

والسبب في هذه الأحوال أن الإيمان إنما يقمعُ النفوس على حسب قوته، فتارةً يردُّها عند الهمِّ، وتارة يضعُفُ فيرُدُّها عند العزم، وتارة عن بعض الفعل، فإذا غلبتِ الغفلةُ وواقعَ الذنْبَ؛ فَتَرَ الطبعُ، فنهض الإيمانُ للعملِ، فينغِّصُ بالندم أضعافَ ما الْتذَّ.

فصل

[في أن التوفيق للطاعات نعمة تحتاج إلى شكر]

تأملت قوله ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، فرأيت فيه معنى عجيباً:

وهو أنهم لما وُهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الأصنام، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء، كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب الذي به باينوا البهائم.

فإذا آمنوا بفعلهم الذي ندب إليه العقل الموهوب، فقد جهلوا قدر الموهوب، وغفلوا عمَّن وهَب.

وأي شيء لهم في الثمرة والشجرة ليس ملكاً لهم؟

فعلى هذا كل متعبد ومجتهد في علم إنما رأى بنور اليقظة وقوة الفهم والعقل صواباً؛ فوقع على المطلوب.

فينبغي أن يوجِّه الشكر إلى من بعث له في ظلام الطبع القبس.

ومثلُ هذا رؤيةُ المتقي تقواه؛ حتى إنه يرى أنه أفضلُ من كثيرٍ من الخلقِ، وربما احتقرَ أهلَ المعاصي وشمخَ عليهم.

ولا أقولُ لك: خالطِ الفساق احتقاراً لنفسك. بل اغضبْ عليهم في الباطنِ، وأعرض عنهم في الظاهرِ. ثم تلمَّح جريان الأقدار عليهم.

فأكثرُهم لا يعرفُ من عصى، وجمهورُهم لا يقصدُ العصيانَ؛ بل يريد موافقَةَ هواه، وعزيز عليه أن يَعصي. وفيهم من غلب عليه تلمُّح العفوِ والحِلْم؛ فاحتقرَ ما يأتي لِقوَّةِ يقينه بالعفو! وهذه كلُّها ليستْ بأعذارٍ لهم. ولكن تلمحْه أنت يا صاحبَ التقوى، واعلم أنَّ الحُجَّة عليك أوْفى من الحُجَّةِ عليهم؛ لأنك تعرفُ مَنْ تَعصي، وتعلمُ ما تأتي، بل انظرْ إلى تقليبِ القلوب بين إصبعين؛ فربما دارتِ الدائرةُ فصرتَ المنقطعَ ووُصل المقطوعُ.

فالعجب ممن يُدِلُّ بخير عمله، وينسى من أنعم ووفّق.



[في توحيد الأسماء والصفات]

اعلم أن شرعَنا مضبوطُ الأصول، محروسُ القواعدِ، لا خَلَلَ فيه ولا دَخَلَ، وكذلك كلُّ الشرائع، إنما الآفةُ تدخلُ من المبتدعين في الدِّينِ أو الجُهَّال.

فمن ذلك أن الرسول ﷺ: جاء بكتابٍ عزيزٍ من الله ﷻ، قيل في صفته: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبيَّن ما عساه يُشْكِلُ مما يُحتاج إلى بيانِهِ بسنَّتِهِ؛ كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فقال بعد البيان: «**تركتُكُم على بيضاءَ نقيَّةٍ**»(١).

فجاء أقوامٌ فلم يقنعوا بتبيينِهِ، ولم يرْضَوْا بطريقةِ أصحابه.

فمنهم: من تعرَّض لِمَا تَعِبَ الشرعُ في إثباته في القلوب فمحاه منها؛ فإن القرآن والحديث يُثبتان الإله ﷻ بأوصافٍ تُقرِّرُ وجودَه في النفوس كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقول النبي ﷺ: «**يَنزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حين يَبقى ثُلثُ الليلِ الآخرُ يقول: مَن يَدعوني فأستجيبَ له، مَن يسألني فأُعطِيَه، من يَستغفِرُني فأغفِرَ له**»(٢)، «**إنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ**

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٦) وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٨٠٨) أيضاً إلى أبي يعلى والبزار، وحسّنه الألباني في «المشكاة» (١٧٧)، وفي «ظلال الجنة» (٥٠) لطرقه.

(٢) رواه البخاري (١١٤٥ و٦٣٢١ و٧٤٩٤)، ومسلم في صلاة المسافرين: باب (٢٤) رقم (١٦٨/٧٥٨ و١٦٩ و١٧٠ و١٧٢).

بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»[(١)]، «**ويضحك**»[(٢)]، «**ويغضب**».

فلما علم الشرع ما يطرُقُ القلوبَ من التوهمات عند سماعِها؛ قطع ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم إن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذي هو المُعْجِزُ الأكبرُ، وقد قصد الشرعُ تقريرَ وجودِهِ فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأثبتَه في القلوب بقوله تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وفي المصاحف بقوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢٢]، وقول رسول الله ﷺ: «**لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو**»[(٣)].

فقال قومٌ من هؤلاء: مخلوقٌ! فأسقطوا حرمتَه من النفوس، وقالوا: لم ينزلْ ولا يُتصورُ نزولُه! وكيف تنفصلُ الصفةُ عن الموصوف؟!

فعادوا على ما تعب الرسول في إثباته بالمَحْوِ.

كما قالوا: إن الله ﷻ ليس في السماء، ولا يُقال: استوى على العرش، ولا ينزِلُ إلى السماء الدنيا، بل ذاك رحمتُه!! فمحوْا من القلوب ما أريد إثباتُهُ فيها، وليس هذا مراد الشارع.

وإنما ذكرت بعض أقوالهم؛ لئلا يُسكنَ إلى شيء منها، فالحذرُ من هؤلاء، وإنما الطريقُ طريقُ السَّلَف.

وكان المقصودُ من شرح هذا أنَّ ديننا سليمٌ، وإنما أَدخل أقوامٌ فيه ما تأذَّيْنا به.

---

(١) رواه مسلم في التوبة: باب (٥) رقم (٢٧٥٩/ ٣١)، وأحمد (٤/ ٣٩٥ و٤٠٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٦٨٤٠ و٢١٢٢٦)، والطيالسي (٤٩٠)، والبزار (٣٠٢١).

(٢) وردت صفة الضحك في عدة أحاديث صحيحة، انظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦ و٢٨٢٦).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم في الإمارة: باب (٢٤) رقم (١٨٦٩/ ٩٤).

فصل

[المبتدعين في الدين من جهّال الزهاد والمتصوفة]

لقد أدخلَ المتزهِّدونَ في الدِّين ما يُنفِّرُ الناسَ، وأكثرُ أدلة هذه الطريق القُصَّاصُ، فإن العاميَّ إذا دخل إلى مجلسهم وهو لا يُحسنُ الوضوءَ كلموه بدقائق الجنيدِ وإشارات الشبلي، فرأى ذلك العاميُّ أن الطريقَ الواضحَ لزومُ زاويةٍ وتركُ الكسب للعائلة، ومناجاةُ الحقِّ في خلوةٍ على زعمه؛ مع كونِه لا يعرفُ أركانَ الصلاةِ، ولا أدَّبهُ العلمُ، ولا قوَّم أخلاقَهُ شيءٌ من مخالطة العلماء.

فلا يستفيدُ من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإسطبل. فإنِ امتدَّ عليه الزمانُ في تقلُّلِهِ زاد يُبْسُهُ، فربما خايلتْ له الماليخوليا أشباحاً يظنُّهم الملائكةَ! ثم يطأطئ رأسَه، ويمدُّ يدَه للتقبيل.

فكم قدْ رأينا من أكَّارٍ[1] ترك الزرعَ وقعدَ في زاويةٍ، فصار إلى هذه الحالةِ، فاستراح من تعبه. فلو قيل له: عُدْ مريضاً. قال: ما لي عادةٌ. فلعنَ اللهُ عادةً تخالفُ الشريعة.

فيرى العامَّةُ بما يورده القُصَّاصُ أن طريق الشرع هذه، لا التي عليها الفقهاء، فيقعون في الضَّلال.

ومن المتزهدين من لا يبالي عَمِلَ بالشرع أم لا!

ثم يتفاوتُ جهَّالُهم، فمنهم من سلك مذهب الإباحةِ، ويقول: الشيخ لا يُعارَضُ، وينهمك في المعاصي. ومنهم من يحفظ ناموسَه، فيفتي بغير علمٍ لئلا يقالَ: الشيخُ لا يدري.

ثم مِنَ الدَّخَلِ الذي دخلَ دينَنا طريقُ المتصوِّفة، فإنهم سلكوا طرقاً أكثرُها تنافي الشريعةَ.

---

(١) الأُكَرُ: الحُفَرُ في الأَرْض، واحِدَتُها أُكْرَةٌ. والأَكَّارُ: الحَرَّاثُ.

ومنهم من فَسَحَ لنفسه في كل ما يحبُّ من التنعم واللذات، واقتنع من التصوُّف بالقميص والعمامة، ولم ينظرْ من أين يأكلُ ولا من أين يشربُ، وخالط الأمراءَ من أرباب الدنيا، حفظاً لماله وجاهِه.

ومنهم أقوامٌ عملوا سُنناً لهم تلقوها من كلماتٍ أكثرُها لا يثبُتُ.

ومنهم من أكبَّ على سماع الغناء والرقص واللعب.

والمقصودُ أن تعلم أن الشرع تامٌّ كاملٌ، فإن رُزقت فهماً لهُ؛ فأنت تَتَّبعُ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، وتترُكُ بُنيَّاتِ الطريق، ولا تقلدُ في دينك الرجال.

ومن أيده الله تعالى بلطفه؛ رزقهُ الفهمَ، وأخرجَه عن ربقةِ التقليد، وجعله أُمَّةً وحده في زمانه، لا يلتفتُ إلى من لامَ، قد سلَّم زِمامه إلى دليلِه في واضح السبيل.

ألهمنا الله وإياكم اتباع الرسول ﷺ، فإنه درةُ الوجودِ.

فصل

[التقوى أصل السلامة]

اعلم أن الزمان لا يثبتُ على حال، كما قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فتارةً فقرٌ، وتارةً غنىً، وتارةً عزٌّ، وتارةً ذلٌّ، وتارةً يُفرح الموالي، وتارةً يُشمتُ الأعادي.

فالسعيدُ من لازم أصلاً واحداً على كل حالٍ، وهو تقوى الله ﷻ، فإنه إن استغنى زانَتْهُ، وإن افتقرَ فتحتْ له أبوابَ الصبر، وإن عوفي تمتِ النعمة عليه، وإن ابْتُليَ حملتْه، ولا يضرُّه إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياءِ تزولُ وتتغيرُ، والتقوى أصلُ السلامةِ، حارسٌ لا ينامُ، يأخذُ باليد عند العثرةِ، ويواقِفُ على الحدود.

والمنكرُ من غرته لذةٌ حصلتْ مع عدمِ التقوى، فإنها ستحولُ وتخلِّيه خاسراً.

ولازِم التقوى في كل حالٍ، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعةَ، وفي المرض إلا العافيةَ. هذا نقدُها العاجلُ، والآجلُ معلومٌ.



[ثمرة الصبر عن المعاصي]

تأملت أمراً عجيباً وأصلاً ظريفاً، وهو انهيالُ الابتلاءِ على المؤمنِ، وعرضُ صورةِ اللذاتِ عليه مع قدرتِه على نيلِها، وخصوصاً ما كان في غير كُلفةٍ من تحصيلِهِ، كمحبوبٍ موافقٍ في خَلْوةٍ حصينةٍ.

فقلتُ: سبحان الله، هاهنا يَبينُ أثرُ الإيمان، لا في صلاةِ ركعتين.

والله ما صعد يوسفُ ﷺ ولا سَعِدَ إلا في مثل ذلك المقام، فبالله عليكم يا إخواني، تأملوا حالَهُ لو كان وافَقَ هواه، منْ كان يكون؟ وقيسوا بين تلك الحالةِ وحالةِ آدمَ ﷺ، ثم زِنُوا بميزان العقل عُقبى تلك الخطيئة وثمرةَ هذا الصبر، واجعلوا فَهْمَ الحال عُدَّةً لكم عند كلِّ مشتهى.

وإنَّ اللَّذات لَتَعْرِضُ على المؤمن، فمتى لَقِيَها في صف حربِهِ وقد تأخَّرَ عنه عسكرُ التدبُّر للعواقبِ؛ هُزِمَ.

وكأني أرى الواقعَ في بعض أشْراكِها، ولسانُ الحال يقول له: قفْ مكانك، أنت وما اخترتَ لنفسكَ.

فغايةُ أمره الندمُ والبكاءُ.

فإنْ أمِنَ إخراجَه من تلك الهوَّة؛ لم يخرجْ إلا مدهوناً بالخُدوش.

وكم من شخصٍ زلت قدمُهُ، فما ارتفعت بعدَها.

ومن تأمل ذُلَّ إخوةِ يوسف ﷺ يومَ قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]؛ عرَفَ شُؤْمَ الزللِ، ومن تدبر أحوالَهم؛ قاسَ ما بينَهم وبين أخيهم من الفروق؛ وإن كانتْ توبتُهم قُبِلتْ؛ لأنه ليس من رقَعَ وخاطَ كَمَنْ ثوبُه صحيحٌ.

وربَّ عَظْمٍ هِيضَ ولم ينجبرْ، فإنْ جُبرَ؛ فعلى وَهىً[(١)].

فتيقظوا إخواني لِعرْضِ المشتَهيات على النفوس، واستوثِقوا من لُجُمِ الخيل.

فصل

[بعض لطائف تأخير إجابة الدعاء]

تأملت حالةً عجيبةً، وهي: أن المؤمنَ تنزلُ به النازلةُ فيدعو، ويبالغ، فلا يرى أثراً للإجابة، فإذا قاربَ اليأسَ؛ نُظِرَ حينئذ إلى قلبه، فإن كان راضياً بالأقدار، غيرَ قنوطٍ من فضل الله ﷻ، فالغالبُ تعجيلُ الإجابة حينئذ؛ لأن هناك يصلُحُ الإيمانُ ويُهزمُ الشيطان، وهناك تَبينُ مقادير الرجال.

وقد أُشيرَ إلى هذا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكذلك جرى ليعقوبَ ﵇، فإنه لما فقد ولداً وطال الأمرُ عليه، لم ييأسْ من الفرج، فأُخِذَ ولدُه الآخرُ، ولم ينقطعْ أملُه من فضل ربه: ﴿أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وكذلك قال زكريا ﵇: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

فإياك أن تستطيلَ مدَّةَ الإجابة. وكنْ ناظراً إلى أنه المالِكُ، وإلى أنه الحكيم في التدبير، والعالمُ بالمصالحِ، وإلى أنه يريد اختبارَكَ ليَبْلُوَ أسرارَك، وإلى أنه يريد أن يرى تضرُّعَك، وإلى أنه يريد أن يأجُرَكَ بصبرك، إلى غير ذلك. وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتحاربَ وسوسةَ الشيطان، وكلُّ واحدةٍ من هذه الأشياء تقوِّي الظنَّ في فضله، وتوجِبُ الشكرَ له؛ إذْ أهَّلَكَ بالبلاء للالتفاتِ إلى سؤاله، وفَقْرُ المُضطرِّ إلى اللَّجَإِ إليه غنىً كلُّه.

---

(١) وَهَى الشيء فهو واهٍ: ضَعُفَ.

فصل

[شؤم المعصية وبركة الطاعة]

مَنْ تأمَّلَ عواقبَ المعاصي؛ رآها قبيحةً.

ولقد تفكرتُ في أقوام أعرفُهم، يُقِرُّون بالزِّنا وغيره، فأرى مِنْ تعثُّرِهم في الدنيا مع جلادتِهم ما لا يقفُ عند حدٍّ، وكأنهم قد أُلْبِسوا ظُلْمةً. فالقلوبُ تنفُرُ عنهم.

فإن اتَّسع لهم شيء فأكثرُه من مال الغير، وإن ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القَدَرِ.

هذا وقد شُغِلوا بهذه الأوساخَ عن ذِكْرِ الآخرة.

ثم عكستُ فتفكرتُ في أقوام صابروا الهوى، وتركوا ما لا يَحِلُّ، فمنهم من قد أينعتْ له ثمراتُ الدنيا من قوتٍ مستلذٍّ، ومهادٍ مُستطابٍ، وعيشٍ لذيذٍ، وجاهٍ عريضٍ، فإن ضاق بهم أمرٌ وسَّعَهُ الصبرُ، وطيَّبه الرضا.

ففهمتُ بالحال معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فصل

[لزوم باب المولى سبحانه على كل حال]

ينبغي للعاقل أن يُلازمَ بابَ مولاه على كلِّ حال، وأن يتعلَّقَ بجزيل فضلِه إنْ عصى وإن أطاعَ، وليكنْ له أنسٌ في خلوتِه به، فإن وقعَتْ وحشةٌ؛ فليجتهدْ في رفع الموحِش كما قال الشاعر:

أمُسْتَوْحِشٌ أنتَ ممّا جَنَيْتَ ... فأحْسِنْ إذا شِئْتَ واسْتَأْنِسِ

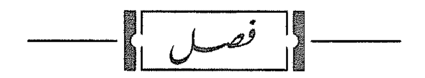
فإن رأى نفسَه مائلاً إلى الدنيا طلبها منه، أو إلى الآخرة سألَه التوفيقَ

للعمل لها، فإن خاف ضررَ ما يرومُهُ من الدنيا سأل الله إصلاحَ قلبِه، وطِبَّ مرضِهِ، فإنه إذا صَلَحَ لم يطلبْ ما يؤذيه.

ومن كان هكذا، كان في العيش الرَّغَد.

غيرَ أنَّ من ضرورة هذه الحال ملازمةُ التقوى، فإنه لا يصلُحُ الأُنسُ إلا بها.

وقد كان أربابُ التقوى يتشاغلونَ عن كلِّ شيءٍ إلا عن اللَّجَإِ والسؤال.



[استعينوا على إنجاح أموركم بالكتمان]

ينبغي لمن تظاهرتْ نِعَمُ الله ﷻ عليه أن يُظهرَ منها ما يُبِينُ أثرَها، ولا يكشِفَ جملتَها.

وكتمانُ الأمور في كلِّ حالٍ فعلُ الحازم، فإنَّه إنْ كشف مقدار سِنِّهِ؛ استهرموه إنْ كان كبيراً، واحتقروه إنْ كانَ صغيراً. وإنْ كشفَ قدرَ مالِه؛ استحقروه إنْ كان قليلاً، وحسدوه إنْ كان كثيراً.

وقسْ على ما ذكرتُ ما لم أذكُرْه، ولا تكنْ من المذاييع الغِرِّ[(١)]، الذين لا يحمِلون أسرارَهم حتى يُفْشُوها إلى من لا يصلُحُ.

وربَّ كلمةٍ جرى بها اللسان هلَكَ بها الإنسانُ.

فصل

[في عبرة العثرة]

رأيتُ كلَّ من يعثُرُ بشيءٍ أو يَزْلَقُ في مطرٍ يلتفتُ إلى ما عَثَرَ به فينظرُ إليه، طبْعاً موضوعاً في الخلق: إمّا ليحذرَ منه إن جازَ عليه مرةً أخرى، أو

(١) الغِرّ: الذي ينْخَدِع لانقياده ولِينِه وقلة فطنته للشّرِّ وقلة تجربته، وهو ضد الخَبّ.

لينظُرَ ـ مع احترازه وفهمه ـ كيف فاته التحرُّزُ من مثل هذا؟! فأخذتُ من ذلك إشارةً، وقلت:

يا من عَثَرَ مراراً هلّا أبصرت ما الذي عثَّرك فاحترزتَ من مثله، أو قبَّحت لنفسكَ ـ مع حزمها ـ تلك الواقعةَ؟ فإنَّ الغالبَ ممن يلتفتُ أنَّ معنى التفاتِه: كيف عثر مثلي ـ مع احترازه ـ بمثلِ ما أرى؟

فالعجبُ لك! كيف عثرتَ بمثل الذنب الفلانيِّ والذنب الفلانيِّ! كيف غرَّك زُخرفٌ تعلمُ بعقلك باطنَه، وترى بعين فكرِك مآلَه؟ كيف آثرت فانياً على باق؟! كيف بِعْتَ بِوَكْسٍ[1]؟ كيف اخترت لذةَ رقْدَةٍ على انتباهِ معاملةٍ؟!

آهٍ لك! لقدِ اشتريتَ بما بعتَ أحمالَ ندمٍ لا يُقِلُّها ظَهْرٌ، وتنكيسَ رأسٍ أمسى بعيد الرفعِ، ودموعَ حُزنٍ على قُبْحِ فعلٍ ما لِمَدَدِها انقطاعٌ.

وأقبحُ الكلِّ أن يُقالَ لك: بماذا؟ ومن أجل ماذا؟ وهذا على ماذا؟!



[التقوى سعادة في الدنيا ونجاة في الآخرة]

تأملت قولَه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. قال المفسرون: ﴿هُدَاىَ﴾: رسولُ الله ﷺ وكتابي. فوجدته على الحقيقة: أن كلَّ منِ اتبع القرآنَ والسُّنَّة، وعمل بما فيهما، فقد سَلِمَ من الضلال بلا شكٍّ، وارتفعَ في حقِّه شقاءُ الآخرةِ بلا شكٍّ؛ إذا مات على ذلك، وكذلك شقاءُ الدنيا، فلا يشْقى أصلاً، ويُبيِّنُ هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

فإن رأيتَه في شِدَّةٍ؛ فَلَهُ من اليقين بالجزاء ما يُصَيِّرُ الصَّابَ[2] عنده عسلاً، وإلَّا غلبَ طيبُ العيش في كل حال.

---

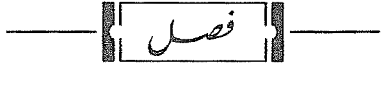
(١) الوَكْسُ: النقص واتِّضاع الثمن في البَيْع.
(٢) الصَّابُ: شجر مُرّ، وقيل: عُصارة شجر مُرّ.

والغالبُ أنه لا ينزلُ به شدَّةٌ إلا إذا انحرفَ عن جادَّةِ التقوى، فأما الملازمُ لطريق التقوى فلا آفة تطرُقُه، ولا بليةَ تنزلُ به. هذا هو الأغلبُ.

فإنْ نَدَر من تطرُقُه البلايا مع التقوى، فذاك في الأغلبِ لتقدُّم ذنبٍ يُجازى عليه.

فإنْ قدَّرْنا عدمَ الذَّنْبِ؛ فذاك لإدخالِ ذَهَبِ صبرهِ كيرَ البلاءِ حتى يخرجَ تِبْراً أحمرَ، فهو يرى عذوبةَ العذابِ لأنه يشاهدُ المبتلي في البلاء الآلم.

قال أحدهم: أَحَبَّكَ الناسُ لِنعمائِك، وأنا أحبُّك لبلائك.



[المؤمن لا يتلذذ بالمعاصي]

لا ينالُ لَذةَ المعاصي إلّا سكرانُ الغفلةِ.

فأما المؤمنُ فإنه لا يلتذُّ؛ لأنه عند التذاذِهِ يقفُ بإزائِه عَلَمُ التحريم وحذرُ العقوبة.

فإن قويتْ معرفتُه؛ رأى بعينِ علمه قربَ الناهي، فيتنغصُ عيشُه في حال التذاذِهِ.

فإن غَلبَ سُكْرُ الهوى؛ كان القلبُ متنغِّصاً بهذه المراقبات، وإنْ كان الطبع في شهوته.

وما هي إلّا لحظةٌ، ثم خُذْ من غَريمِ نَدَمٍ ملازمٍ، وبكاءٍ متواصل، وأسفٍ على ما كان مع طول الزمان، حتى إنه لو تيقَّنَ العفوَ؛ وقفَ بإزائه حذرَ العتاب.

فأفٍّ للذُّنوب ما أقبحَ آثارَها وما أسوأَ أخبارَها! ولا كانتْ شهوةٌ لا تُنالُ إلّا بمقدارِ قوةِ الغفلةِ.

فصل

[في تلبيس إبليس على بعض الزهاد]

بَكَّرْتُ يوماً أطلبُ الخلوةَ إلى جامع الرّصافة، فجعلت أجول وحدي وأتفكرُ في ذلك المكان ومن كان به من العلماء والصالحينَ، ورأيتُ أقواماً قد جاوروا فيه، فسألت أحدَهم: منذُ كم أنت هاهنا؟ فأومأ إليَّ قريبٍ من أربعين سنةً. فجعلت أتفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدةَ، فأخذتِ النفسُ تُحسنُ ذلك، وتذمُّ الدنيا والاغترارَ بها.

فأقبل العلمُ يُنكرُ على النفس، ونهضَ الفهم لحقائقِ الأمور وموضوعِ الشرع يُقوّي ما قال العلمُ، فتجلَّى من ذلك أن قلتُ للنفس: اعلمي أن هؤلاء على ضربين:

منهم من يجاهد نفسَه في الصبر على هذه الأحوال، فتفوتُه فضائلُ المخالطة لأهل العلم، والعملُ، وطلبُ الولد، ونفعُ الخلق، وانتفاعُ نفسه بمجالسة أهل الفهم، وربما أورثْته الخلوةُ وسوسةً، وربما ظن أنه من الأولياء واستغنى بما يعرفه، وربما خَيَّلَ له الشيطانُ أشياءَ من الخيالات وهو يَعُدُّها كراماتٍ! وربما ظن أن الذي هو فيه الغايةُ، ولا يدري أنه إلى الكراهة أقربُ؛ فإن رسولَ الله ﷺ نهَى أن يبيتَ الرجلُ وحدَه[1]؛ وهؤلاء كلٌّ منهم يبيتُ وحده. ونهى عن التَّبَتُّل[2]؛ وهذا تبتل. ونهى عن الرَّهبانيةِ... وهذا من خفيِّ خدعِ إبليس التي يوقعُ بها في وَرَطاتِ الضلال بألطفِ وجهٍ وأخفاه.

والضرب الثاني: مشايخُ قد فَنُوا فانقطعوا ضرورةً؛ إذْ ليس لأحدِهم مأوى؛ فهم في مقام الزَّمْنى.

---

(١) (صحيح) رواه أحمد (٢/ ٩١). وهو في «صحيح الجامع» (٦٩١٩)، و«الصحيحة» (٦٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٧٣ و٥٠٧٤)، ومسلم في النكاح: باب (١) رقم (١٤٠٢/ ٦ و٧).

فقالت لي النفسُ: لا أرضى هذا الذي تقولُه؛ فإنك إنما تميلُ إلى إيثار نكاح المُستحسناتِ والمطاعمِ المُشتَهَياتِ؛ فإذا لم تكنْ من أهل التعبُّد فلا تطعن فيهم.

فقلتُ لها: أما المستحسناتُ؛ فإنَّ المقصودَ من النكاح أشياءُ: منها طلبُ الولد، ومنها شفاءُ النفس بإخراجِ الفضلةِ المؤذيةِ، وبتمام خروج تلك الفضلةِ تَفْرُغُ النفس عن شواغِلِها فتدري أين هي؛ كما نأمرُ القاضي بالأكلِ قبل الحُكْم، وننهاه عن الحُكْمِ وهو غضبانُ أو حاقنٌ.

ثم للنفس حظٌّ فهي تستوفيه استيفاءَ الناقةِ حظَّها من العلَفِ في السفر، وذلك يُعين على سيرها.

وأما المطاعمُ؛ فالجاهلُ من يطلُبها لذاتها أو لنفسٍ لذَّاتها، وإنما المرادُ إصلاحُ الناقة لجمعِ همِّها، ونيلِ مُرادها من غرضِها الصارفِ لها عن الفكرِ في هواها.

وهذه التي أشرتُ إليها؛ إنْ قُصِدَتْ للحاجة إليها، أو لقضاء وَطَرَ النفس منها، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيويةِ منها؛ فكلُّه قصدٌ صحيحٌ، لا يُعكِّرُ عليه من يقول تسبيحاتٍ أكثرُ ألفاظِها ردِيَّةٌ.

كلا؛ ليس إلا العلمُ الذي هو أفضلُ الصفات، وأشرفُ العبادات، وهو الآمرُ بالمصالح، والناطقُ بالنصائح.

ثم منفعة العلم معروفةٌ، وزهدُ الزاهد لا يتعدى عتبةَ بابه، وقد قال ﷺ: **«فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»**(١).

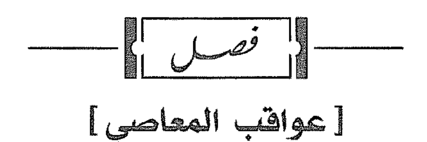
ثم اعتبرْ فضلَ الرُّسلِ على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام.

وغايةُ العلماءِ تصرُّفُهم بالعلم في المباح، وأكثرُ المتزهدين جَهَلَةٌ يستعبِدُهم تقبيلُ اليَدِ لأجل تَرْكِهم ما أبيحَ.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢ و٣٧٠١ و٤٢١٠)، ومسلم في فضائل الصحابة: باب (٤) رقم (٢٤٠٦/٣٤).

فكم فوَّتتِ العُزلةُ علماً يصلُحُ به أصلُ الدين، وكم أوقعتْ في بليةٍ هلك بها الدينُ، وإنما عُزلة العالم عن الشر فحسب. والله الموفق.



[عواقب المعاصي]

ينبغي لكلِّ ذي لبٍّ وفطنةٍ أن يحذرَ عواقبَ المعاصي؛ فإنه ليس بين الآدميِّ وبين الله تعالى قرابةٌ ولا رَحِمٌ، وإنما هو قائم بالقسطِ، حاكمٌ بالعدل.

وإن كان حِلْمُهُ يسع الذنوبَ؛ إلا أنه إذا شاء عفا، فعفَّى[1] كلَّ كثيفٍ من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير. فالحذرَ الحذرَ.

ولقد رأيت أقواماً من المُتْرفين كانوا يتقلبون في الظُّلم والمعاصي باطنةً وظاهرةً، فأُخِذوا من حيث لم يحتسبوا. فقُلعت أصولُهم، ونُقِضَ ما بَنَوْا من قواعدَ أحكموها لذراريهم، وما كان ذلك إلا لأنَّهم أهملوا جانبَ الحقِّ ﷻ، وظنُّوا أن ما يفعلونَه من خيرٍ يقاوِمُ ما يجري من شرٍّ، فمالتْ سفينةُ ظنونِهم، فدخلها من ماء الكَيْدِ ما أغرقهم.

ورأيت أقواماً من المنتسبينَ إلى العلم أهملوا نظرَ الحقِّ ﷻ إليهم في الخلوات؛ فمَحا محاسنَ ذِكْرِهِم في الجَلَوات، فكانوا موجودينَ كالمعدومينَ، لا حلاوةَ لرؤيتهِم، ولا قلبَ يَحِنُّ إلى لقائِهم.

فاللهَ اللهَ في مراقبة الحق ﷻ، فإنَّ ميزانَ عدلِه تَبينُ فيه الذَّرَّةُ، وجزاؤُهُ مُراصِدٌ للمخطئِ ولو بعدَ حينٍ.

وربما ظنَّ أنه العفوُ، وإنما هو إمهالٌ، وللذنوب عواقبُ سيئةٌ.

فاللهَ اللهَ. الخلواتِ الخلواتِ. البواطنَ البواطنَ. النياتِ النياتِ. فإن عليكم من الله عيناً ناظرةً.

---

(١) فعفَّى: محا وأزال.

وإياكم والاغترارَ بحلمه وكرمه، فكم قدِ استدرجَ. وكونوا على مراقبةِ الخطايا، مجتهدينَ في مَحْوِها. وما شيءٌ ينفعُ كالتضرُّع مع الحِمية عن الخطايا، فلعلَّه...

وهذا فصلٌ إذا تأمله المعامِل لله تعالى نفعَهُ.

ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى: قدرتُ على لذةٍ وليست بكبيرةٍ، فنازعتني نفسي إليها، اعتماداً على صِغَرِها وعِظَم فضل الله تعالى وكرمِه، فقلتُ لنفسي: إنْ غَلبتِ هذه، فأنتِ أنتِ، وإذا أتَيْتِ هذه، فمن أنت؟ فارعوتْ ورجعتْ عما همَّت به، والله الموفق.

فصل

[إياكم ومحقرات الذنوب]

كثيرٌ من الناس يتسامحون في أمور يظنُّونها قريبةً وهي تقدحُ في الأصول؛ كاستعارةِ طلّابِ العلم جُزْءاً لا يردُّونه، وقصدِ الدخول على من يأكُلُ ليأكل معه، والتسامح بعرض العدو التذاذاً بذلك، واستصغاراً لمثل هذا الذنب.

وإطلاقِ البصر استهانةً بتلك الخطيئة، ونحوِ ذلك مما يظنّه صغيراً وهو عظيم.

وأهونُ ما يَصْنَعُ ذلك بصاحبِهِ أنْ يحُطَّهُ من مرتبةِ المتميِّزين بين الناس، ومن مَقام رِفْعَةِ القَدْرِ عند الحق.

فاللهَ اللهَ، اسمعوا ممن قد جرَّب، كونوا على مراقبةٍ، وانظروا في العواقب، واعرِفوا عظمةَ النَّاهي، واحذروا من شَرَرَةٍ تُسْتَصْغَرُ؛ فربما أحرقتْ بلداً.

وهذا الذي أشرتُ إليه؛ يسيرٌ يدُلُّ على كثير، وأُنموذجٌ، يُعَرِّفُ باقي المحقَّراتِ من الذنوب.

والعلمُ والمراقبةُ يُعرِّفانِك ما أخللت بذِكْرِهِ، ويعلمانك إن تلمَّحْتَ بعين البصيرة أثرَ شؤمِ فعلِه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

فصل

[في تقديم التوبة بين طلب الحوائج]

رأيتُ من نفسي عجباً: تسألُ اللهَ ﷻ حاجاتِها، وتنسى جناياتِها!

فقلتُ: يا نفسَ السوء! أوَ مثلُك ينطِقُ؟! فإنْ نطقَ فينبغي أن يكونَ السؤالُ العفوَ فحسبُ.

فقالتْ: فمِمَّنْ أطلبُ مراداتي؟

قلتُ: ما أمنعُك من طلب المُرادِ، إنما أقول: حقِّقي التوبةَ وانطِقي.

فاللهَ اللهَ من جراءةٍ على طلب الأغراض مع نسيانِ ما تقدَّمَ من الذُّنوب التي توجبُ تنكيسَ الرأسِ، ولئنْ تشاغلتِ بإصلاحِ ما مضى والندمِ عليه؛ جاءتْكِ مراداتُك!

وقد كان بشرٌ الحافي يبسُطُ يديهِ للسؤالِ، ثم يقول: مثلي لا يسألُ! ما أبقتِ الذنوب لي وجهاً.

وهذا يختصُّ ببشرٍ لقوةِ معرفتِه، كان وقتَ السؤال كالمُخاطِبِ كفاحاً، فاستحيا للزَّلل. فأما أهلُ الغفلةِ فسؤالُهم على بُعْدٍ.

فافهم ما ذكرتُه، وتشاغلْ بالتَّوبة من الزللِ.

ثم العجبُ من سؤالاتِكَ! فإنك لا تكادُ تسألُ مهِمّاً من الدنيا، بل فضولَ العيش، ولا تسألُ صلاحَ القلبِ والدِّين مثلَ ما تسألُ صلاحَ الدنيا.

فاعقل أمركَ، فإنك من الانبساطِ والغفلةِ على شفا جُرُفٍ، ولْيكنْ حزنُكَ على زلاتك شاغلاً لك عن مُراداتك؛ فقد كان الحسنُ البصري شديد الخوف، فلما قيل له في ذلك؟ قال: وما يُؤْمِنُني أن يكون اطَّلع على بعضِ ذنوبي فقالَ: اذهبْ لا غفرتُ لك.

فصل

[العجب داء الجهلة والغافلين]

أعجبُ العَجَبِ دعوى المعرفةِ مع البُعدِ عن العِرْفانِ بالله!

ما عرَفَهُ إلَّا مَنْ خافَ منه، فأما المطمئنُّ؛ فليس من أهل المعرفة.

وفي المتزهدين أهلُ تغفيلٍ... يكادُ أحدُهم يوقنُ أنه وليٌّ محبوبٌ ومقبولٌ!

وربما احتقرَ غيرَه، وظن أن مَحِلَّته محفوظةٌ به، تَغُرُّه رُكيعاتٌ يَنْتَصِبُ فيها! وربما ظنَّ أنه قُطْبُ الأرض، وأنه لا ينالُ مقامَه بعدَه أحدٌ! وكأنه ما علم أنه بينا العالِمُ يدأبُ حتى ينال مرتبةً يعتقدُها؛ نشأ طفلٌ في زمانه ترقَّى إلى سبْرِ عيوبِه وغلطِه!

وكم من متكلم يقول: ما مثلي!، لو عاش فسمعَ ما حَدَثَ بعده من الفصاحةِ؛ عدَّ نفسه أخرسَ!

فاللهَ اللهَ من مساكنةِ مسكنٍ ومخالفةِ مقامٍ، وليكنِ المتيقظُ على انزعاجٍ، محتقراً للكثيرِ من طاعاتِه، خائفاً على نفسه من تقلُّباتِه ونفوذِ الأقدارِ فيه.

واعلم أن تلَمُّحَ هذه الأشياء التي أشرتُ إليها يضرب عُنُقَ العُجْبِ، ويُذْهِبُ كِبْرَ الكِبْرِ[1].

فصل

[ضرورة الاستعداد لنزول البلاء]

من عاشَ مع الله ﷻ طَيِّبَ النفس في زمن السلامةِ؛ خِفْتُ عليه زمنَ البلاءِ، فهناك المحكُّ، وطيبُ النفس والرضى هناك يَبِينُ.

---

(١) كِبْر الكبر: عُظمه وجُلّه.

فأما من تواصلتْ لديه النِّعمُ؛ فإنه يكونُ طيِّبَ القلب لتواصُلها، فإذا مسَّتهُ نفحةٌ من البلاءِ فبعيدٌ ثباتُه.

قال الحسن البصريُّ: كانوا يتساووْن في وقت النِّعم؛ فإذا نزلَ البلاءُ تباينوا.

فالعاقل من أعدَّ ذُخراً، وحصَّل زاداً، وازداد من العُدَدِ للقاءِ حرب البلاء.

ولا بدَّ من لقاءِ البلاءِ؛ ولو لم يكن إلَّا عندَ صرعةِ الموتِ، فإنها إن نزلتْ ـ والعياذ بالله ـ فلم تجدْ معرفةً توجبُ الرِّضى أو الصبرَ؛ أخرجتْ إلى الكفر.

ولقد سمعتُ بعضَ من كنتُ أظنُّ فيه كثرةَ الخير وهو يقول في ليالي موتِه: ربي هو ذا يظلمني. فلم أزلْ منزعِجاً مهتمّاً بتحصيل عُدَّةٍ ألقى بها ذلك اليومَ.

كيف، وقد قيل: إن الشيطانَ يقول لأعوانه في تلك الساعة: عليكم بهذا، فإنْ فاتكم؛ لم تقدِروا عليه.

وأيُّ قلبٍ يَثْبُتُ عند إمساكِ النَّفَسِ، والأخذِ بالكَظَمِ[1]، ونزْع النَّفْس، والعلم بمفارقة المحبوباتِ إلى ما لا يدري ما هو؛ وليسَ في ظاهرِهِ إلّا القبرَ والبلاءَ.

فنسألُ الله ﷻ يقيناً يقينا شرَّ ذلك اليوم؛ لعلنا نصبرُ للقضاءِ أو نرضى به، ونرغبُ إلى مالك الأمورِ في أنْ يهبَ لنا من فواضلِ نِعَمِهِ على أحبابِهِ؛ حتى يكونَ لقاؤهُ أحبَّ إلينا من بقائِنا، وتفويضُنا إلى تقديرِه أشهى لنا من اختيارِنا.

ونعوذُ بالله من اعتقادِ الكمال لتدبيرِنا، حتى إذا انعكسَ علينا أمرٌ؛ عُدْنا

---

(١) الكَظَم: مَخْرَج النفَس. ويقال أَخذ بكَظَمه: أي بحلقه؛ ويقال: أَخذت بِكَظَمه: أي بمَخْرَج نَفَسه.

إلى القَدَرِ بالتسخُّطِ، وهذا هو الجهلُ المحضُ والخِذلانُ الصريحُ، أعاذنا الله منه.

فصل

[معرفة الله الحقة تورث سعادة الدنيا والآخرة]

ليس في الدنيا ولا في الآخرةِ أطيبُ عيشاً من العارفينَ بالله ﷻ.

فإن العارفَ به مستأنسٌ به في خلوتِهِ، فإنْ عمَّتْ نعمةٌ عَلِمَ منْ أهداها، وإن مرَّ مُرٌّ؛ حَلا مذاقُه في فيه لمعرفته بالمبتلي، وإن سَأَلَ فتعوَّق مقصودُه؛ صار مرادُهُ ما جرى به القدر، عِلْماً منه بالمصلحة بعد يقينِهِ بالحكمةِ وثقتهِ بحسن التدبيرِ.

وصفةُ العارف: أن قلبَه مراقبٌ لربّهِ، قائمٌ بين يديه، ناظرٌ بعين اليقين إليه، فقد سرى من بركةِ معرفته إلى الجوارح ما هذَّبها.

فإنْ نَطَقْتُ فلمْ أنطق بغيرِكُمُ وإن سكتُّ فأنتم عَقْدُ إضْماري

إذا تسلَّط على العارف أذىً؛ أعرضَ نظرُه عن السَّبب، ولم يَرَ سوى المسبِّب، فهو في أطيب عيشٍ معه. إن سَكَتَ تفكَّر في إقامة حقِّه، وإن نطق تكلَّم بما يُرضيه، لا يسكُنُ قلبه إلى زوجةٍ ولا إلى ولدٍ، ولا يتشبثُ بذيل محبة أحدٍ، وإنما يعاشر الخلق ببدنه، وروحُهُ عند مالِكِ روحِهِ.

فهذا الذي لا همَّ عليه في الدنيا، ولا غمَّ عندَه وقتَ الرحيل عنها، ولا وحشةَ له في القبر، ولا خوفَ عليه يومَ المحشر.

فأما من عَدِمَ المعرفةَ فإنه مُعَثَّرٌ، لا يزال يَضِجُّ من البلاء لأنه لا يعرفُ المبتلي، ويستوحشُ لفقدِ غرضِهِ لأنه لا يعرفُ المصلحةَ، ويستأنسُ بجنسه لأنه لا معرفةَ بينه وبين ربه، ويخافُ من الرحيل لأنه لا زادَ له ولا معرفةَ بالطريقِ.

فصل

[روعة الصبر]

بالله عليكَ يا مرفوعَ القَدْرِ بالتقوى، لا تَبعْ عِزَّها بذُلِّ المعاصي. وصابرْ عَطَشَ الهوى في هَجِير المشتهى وإنْ أرمضَ[1]. فإذا بلغتَ النهاية من الصبرِ؛ فاحتكمْ وقلْ! فهو مقامُ من لو أقسم على الله لأبرَّهُ.

بالله عليك تذوَّق حلاوة الكفِّ عن المنهيِّ، فإنها شجرةٌ تُثمرُ عِزَّ الدنيا وشرف الآخرة.

ومتى اشتد عطشُك إلى ما تهوى؛ فابسُط أناملَ الرجاء إلى من عندَه الرَّيُّ الكامل، وقلْ: قد عيلَ صبرُ الطبع في سِنيِّهِ العجافِ، فعجِّل ليَ العامَ الذي فيه أُغاثُ وأعْصِرُ.

بالله عليكَ تفكَّر فيمن عَرَضَتْ له فتنةٌ في الوقت الأخير، كيف غرق وقت الصعود.

أفٍّ والله للدنيا إن أوجبَ نيلُها إعراضَ الحبيب.

إنَّما نَسَبُ العاميِّ باسمهِ واسم أبيهِ، فأما ذوو الأقدارِ؛ فالألقابُ قبلَ الأنساب.

قل لي: من أنت؟ وما عملُك؟ وإلى أيِّ مقام ارتفعَ قدْرُك؟ يا من لا يصبرُ لحظةً عما يشتهي.

بالله عليك أتدري من الرجلُ؟ الرجلُ ـ والله ـ منْ إذا خلا بما يُحِبُّ مِنَ المُحَرَّم، وقدَرَ عليهِ، وتقلقل عطشاً إليه؛ نظرَ إلى نظرِ الله إليه، فاستحى من إجالةِ همِّه فيما يكرهُه، فذهبَ العطش.

---

(١) الهجير: هو شدّة الحر وقت الظهيرة. الرَّمَضُ: شدّة وَقْع الشمس على الرمل وغيره، أَرْمَضَ الحَرُّ القومَ: اشتدّ عليهم.

كأنَّك لا تتركُ لنا إلا ما لا تشتهي، أوْ ما لا تصْدُقُ الشهوةَ فيه، أو ما لا تقدرُ عليه!

كذا والله عادتُك. إذا تصدَّقتَ أعطيت كِسرةً لا تصلُحُ لك، أو في جماعة يمدحونك.

هيهات، والله لا نلتَ ولايَتنا حتى تكونَ معاملتُك لنا خالصةً. تبذُلُ أطايِبَكَ، وتترُكُ مشتهياتِك، وتصبرُ على مكرهاتِكَ؛ علماً منك ـ تدَّخرُ ثوابَك لدينا إن كنتَ معامِلاً ـ بأنَّك أجيرٌ وما غربتِ الشمسُ.

فإن كنت محبّاً؛ رأيت ذلك قليلاً في جنب رضا حبيبِك عنكَ.

وما كلامنا مع الثالث!

فصل

[ضرورة التسليم بحكمة المولى وإن لم تُدرك]

رأيتُ في العقل نوعَ منازعة للتطلع إلى معرفة جميع حِكَمِ الرب ﷻ في حُكْمِهِ. فربما لم يتبين له شيءٌ منها فيقف متحيراً.

وربما انتهزَ الشيطان تلك الفرصةَ، فوسوس إليه: أين الحكمةُ من هذا؟!

فقلتُ له: احذرْ أن تُخدَعَ يا مسكينُ، فإنه قد ثبتَ عندك بالدليل القاطع ـ لِمَا رأيتَ من إتقان الصنائع ـ مبلغُ حكمةِ الصانعِ، فإنْ خَفِيَ عليك بعضُ الحِكَمِ؛ فلِضَعْفِ إدراكك.

ثم ما زالتْ للملوك أسرارٌ، فمن أنت حتى تطلع بضعفك على جميع حِكَمِهِ؟

يكفيك الجمل، وإياك إياك أن تتعرض لما يخفى عليكَ؛ فإنك بعضُ موضوعاتِه وذرةٌ من مصنوعاتِه؛ فكيف تتحكم على من صدرتَ عنه؟!

ثم قد ثبتتْ عندك حكمتُه في حُكمِه ومُلكه، فأعمل آلتكَ على قدر قوتك في مطالعة ما يمكن من الحِكَم؛ فإنه سيورِّثُك الدَّهَشَ. وغَمِّضْ عمّا يخفى

عليك؛ فحقيق بذي البصر الضعيف ألّا يُقاويَ نور الشمس.



[سياسة النفس بالحكمة والعزم]

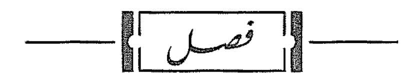
أعجب الأشياء مجاهدةُ النفس؛ لأنها تحتاج إلى صناعةٍ عجيبة:

فإن أقواماً أطلقوها فيما تحبُّ، فأوقعتْهم فيما كرهوا.

وإن أقواماً بالغوا في خلافِها حتى منعوها حقها وظلموها، وأثَّر ظلمُهم لها في تعبُّداتهم.

وإنما الحازمُ من تَعْلَمُ منه نفسُه الجدَّ وحفظَ الأصول. فإذا فسحَ لها في مباحٍ لم تتجاسر أن تتعداه، فيكونُ معها كالملِكِ إذا مازحَ بعضَ جندِه؛ فإنه لا ينبسطُ إليه الغلامُ، فإن انبسطَ؛ ذكرَ هيبةَ المملكة.

فكذلك المحققُ، يُعطيها حظها، ويستوفي منها ما عليها.



[في قيمة الوقت وفهم معنى الوجود]

رأيتُ عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً: إنْ طالَ الليلُ؛ فبحديث لا ينفعُ، أو بقراءة كتاب فيه غَزاةٌ وسمَرٌ. وإنْ طال النهار؛ فبالنوم. وهم في أطراف النهار على دجلةَ أو في الأسواق. فشبَّهتُهم بالمتحدثين في سفينةٍ وهي تجري بهم وما عندهم خبرٌ.

ورأيتُ النادرينَ قد فهموا معنى الوجودِ، فهم في تعبئةِ الزادِ والتأهُّبِ للرحيل، إلا أنهم يتفاوتونَ، وسببُ تفاوُتِهم قلةُ العلم وكثرتُه بما يَنْفَقُ في بلد الإقامةِ[1]:

---

(١) بلد الإقامة: أي الدار الآخرة.

فالمتيقظونَ منهم يستكثرون منه فيزيد ربحهم.

والغافلون منهم يحملون ما اتفق.

فكم ممن قد قُطعت عليه الطريق فبقي مفلساً.

فالله الله في مواسم العمر. والبدارَ قبل الفوات.

فصل

[العلماء العاملون]

لقيتُ مشايخَ، أحوالُهم مختلفةٌ، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفَعَهم لي في صحبته العاملُ منهم بعلمِهِ؛ وإنْ كان غيرُه أعلمَ منه.

ولقيتُ جماعة من علماء الحديثِ يحفظونَ ويعرفونَ، ولكنَّهم كانوا يتسامحون بغيبةٍ يُخرجونها مخرجَ جرحٍ وتعديلٍ، ويأخذون على قراءة الحديث أجرةً، ويُسرعون بالجواب لئلا ينكسرَ الجاهُ وإنْ وقَعَ خطأٌ.

ولقيت عبدَ الوهاب الأنماطيَّ، فكان على قانون السَّلفِ، لم يُسمعْ في مجلسه غيبةٌ، ولا كان يطلبُ أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرقائقِ بكى واتَّصلَ بكاؤُه، فكان ـ وأنا صغيرُ السنِّ حينئذٍ ـ يعملُ بكاؤه في قلبي، ويبني قواعدَ، وكان على سمتِ المشايخ الذين سمعنا أوصافَهم في النقل.

ولقيتُ الشيخَ أبا منصورٍ الجواليقيَّ، فكان كثيرَ الصمتِ، شديدَ التحري فيما يقولُ، متقناً، محققاً، وربما سُئلَ المسألةَ الظاهرةَ التي يبادرُ بجوابها بعضُ غلمانه، فيتوقفُ فيها حتى يتيقنَ، وكان كثيرَ الصوم والصمتِ. فانتفعتُ برؤيةِ هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي بغيرِهما.

ففهمت من هذه الحالةِ أن الدليل بالفعل أرشدُ من الدليل بالقول.

ورأيت مشايخَ كانت لهم خلواتٌ في انبساطٍ ومُزاحٍ؛ فراحوا عن القلوب، وبدَّد تفريطُهم ما جمعوا من العلم، فقلَّ الانتفاعُ بهم في حياتهم، ونُسوا بعد مماتِهم، فلا يكادُ أحدٌ أن يلتفتَ إلى مصنفاتهم.

فاللهَ اللهَ في العمل بالعلم؛ فإنه الأصلُ الأكبرُ.

والمسكينُ كلُّ المسكينِ من ضاع عُمُرُه في علمٍ لم يعملْ به، ففاتتهُ لذاتُ الدنيا وخيراتُ الآخرة، فَقَدِمَ مفلساً على قُوَّةِ الحجَّةِ عليه.



[لا تأمن مكر الله، فالله يمهل ولا يهمل]

سبحان الملك العظيم، الذي من عرفهُ خافهُ، وما أَمِنَ مكرَه قطُّ منْ عَرَفَهُ.

لقد تأملت أمراً عظيماً: أنّهُ ﷻ يُمهل حتى كأنه يُهملُ، فترى أيدي العصاةِ مطلقةً كأنه لا مانعَ، فإذا زادَ الانبساطُ ولمْ ترْعَوِ العقولُ؛ أخذَ أخْذَ جبارٍ.

وإنما كان ذلك الإمهالُ لِيَبْلُوَ صبرَ الصابرِ ولِيُمْلِيَ في الإمهال للظالم، فيُثَبِّتَ هذا على صبرِه، ويَجزي هذا بقبيح فعله.

مع أنَّ هنالك من الحِلم في طيِّ ذلك ما لا نعلمُهُ.

فإذا أَخَذَ أَخْذَ عقوبةٍ؛ رأيتَ على كلِّ غلطةٍ تَبِعَةً، وربما جُمِعتْ فضُرِب العاصي بالحجر الدامغ.

وربما خَفِيَ على الناس سببُ عقوبتِهِ، فقيلَ: فلانٌ مِنْ أهل الخيرِ، فما وجهُ ما جرى له؟

فيقولُ القدرُ: حدودٌ لذنوبٍ خَفِيَّةٍ، صار استيفاؤها ظاهراً.



[ذكر الموت خير واعظ]

من أظرف الأشياء إفاقةُ المُحْتَضَرِ عند موتِه، فإنه ينتبه انتباهاً لا يُوصفُ، ويقلقُ قلقاً لا يُحدُّ، ويتلهفُ على زمانه الماضي، ويودُّ لو تُرِكَ كيْ يتداركَ ما

فاته ويصدُق في توبته على مقدارِ يقينه بالموت، ويكادُ يقتُلُ نفسَه قبلَ موتِها بالأسف!

ولو وُجِدَ قليلٌ من تلك الأحوالِ في أوانِ العافية؛ حَصَلَ كلُّ مقصودٍ من العمل بالتقوى.

فالعاقل مَنْ مثَّل تلك الساعةِ، وعمِلَ بمقتضى ذلك.

فإن لم يتهيأ تصويرُ ذلك على حقيقته؛ تخايلَهُ على قَدْرِ يَقَظَتِهِ؛ فإنه يكُفُّ كَفَّ الهوى، ويبعثُ على الجِدِّ.

فأما من كانت تلك الساعةُ نُصبَ عينيه، كان كالأسيرِ لها.

كما رُوي عن حبيب العجميِّ أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته: إذا مُتُّ اليومَ؛ ففلانٌ يغسِّلُني، وفلانٌ يحملُني.

وقال معروف لرجل: صَلِّ بنا الظهر، فقال: إن صليت بكمُ الظهرَ لم أصلِّ بكمُ العصرَ. فقال: وكأنك تؤملُ أن تعيشَ إلى العصرِ، نعوذُ بالله من طول الأمل.

وذكَرَ رجلٌ رجلاً بينَ يديه بغيبةٍ، فجعل معروف يقول له: اذكرِ القُطن إذا وضعوه على عينيك.

فصل

[الورع في اتقاء الشبهات]

أمكنني تحصيلُ شيء من الدنيا بنوعٍ من أنواع الرُّخصِ، فكنتُ كلما حَصَلَ شيء منه فاتني من قلبي شيءٌ، وكلما استنارتْ لي طريقُ التحصيل تجدد في قلبي ظلمةٌ.

فقلت: يا نفسَ السوء! الإثم حوازُ القلوبِ، وقد قال النبي ﷺ: «**اسْتَفْتِ قلبَكَ**»[1]، فلا خيرَ في الدنيا كلِّها إذا كان في القلب من تحصيلِها

(١) (حسن) رواه أحمد (٤/٢٢٨)، والدارمي (٢٥٣٣)، وأبو يعلى (١٥٨٦ و١٥٨٧).

شيءٌ أوجبَ نوعَ كَدَرٍ، والنومُ على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذُّ من تَكِئاتِ الملوك.

وما زلتُ أغلِبُ نفسي تارةً وتغلِبني أخرى، ثم تدَّعي الحاجةَ إلى تحصيل ما لا بد لها منه، وتقول: فما أتعدى في الكسب المباحَ في الظاهر. فقلت لها: أوليسَ الورع يمنع من هذا؟ قالت: بلى. قلتُ: أليستِ القسوةُ في القلب تحصُلُ بِهِ؟ قالت: بلى. قلتُ: فلا خيرَ لك في شيء هذا ثمرتُه.

فخلوت يوماً بنفسي فقلت لها: ويحكِ، اسمعي أحدِّثك: إن جمعت شيئاً من الدنيا من وجهٍ فيه شُبهةٌ، أفأنتِ على يقينٍ من إنفاقه؟ قالت: لا. قلتُ: فالمحنةُ أن يحظى به الغيرُ ولا تنالينَ إلّا الكدر العاجلَ والوِزْرَ الذي لا يُؤْمَنُ.

ويحك، اتركي هذا الذي يمنعُ منه الورعُ لأجلِ الله فعامليه بتركهِ، كأنك لا تريدينَ ألّا تترُكي إلّا ما هو محرّمٌ فقط أو ما لا يَصِحُّ وجهُهُ؟ أو ما سمعتِ: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً لله ﷻ إِلاّ أَبْدَلَكَ الله بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ**»[1]؟.

أما لكِ عبرةٌ في أقوام جمعوا فحازَهُ سواهُم، وأمَّلوا فما بلغوا مُناهم؟

كمْ من طيِّبِ العيش لا يملك دينارين. وكم من ذي قناطيرَ مُنَغَّصٍ.

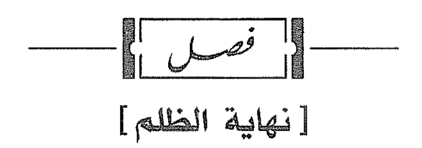
أما لكِ فطنةٌ تتلمحُ أحوالَ من يترخصُ من وجهٍ فيُسلَبُ منه من أوجهٍ؟ ربما نزل المرضُ بصاحبِ الدار أو ببعضِ من فيها، فأنفقَ في سنتهِ أضعافَ ما ترخص في كسبهِ، والمُتَّقي معافىً.

فضجتِ النفس من لوْمي وقالت: إذا لم أتعدَّ واجبَ الشرع فما الذي تريدُ مِنّي؟ فقلت لها: أضِنُّ بك عن الغَبْنِ، وأنت أعرفُ بباطنِ أمرك. قالت: فقلْ لي ما أصنعُ؟ قلتُ: عليكِ بالمراقبة لمن يراكِ، ومثِّلي نفسَكِ بحضرةِ

---

(١) (صحيح) رواه أحمد (٥/٧٨ و٧٩ و٣٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٥٧٤٨) وفي «الْكُبْرَى» (١٠٨٧٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٣٥ و١١٣٧ و١١٣٨)، وصححه الألباني في «حجاب المرأة» (ص٤٧).

مَعَظَّم من الخلْقِ، فإنك بين يدي الملك الأعظم، يرى من باطِنك ما لا يراهُ المعظَّمون من ظاهرِك، فخذي بالأحوط، واحذري من الترخُّص في بيع اليقين والتقوى بعاجل الهوى، والله مرشدك إلى التحقيق، ومعينك بالتوفيق.



[نهاية الظلم]

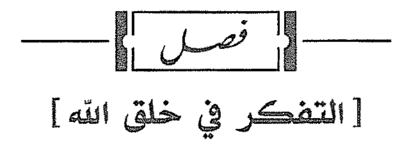
ما زلت أسمع عن جماعةٍ من الأكابرِ وأربابِ المناصبِ أنَّهم يشربونَ الخمورَ، ويفسُقونَ، ويظلِمونَ، ويفعلونَ أشياءَ توجبُ الحدودَ.

فبقيت أتفكرُ، أقول: متى يثبُتُ على مثل هؤلاء ما يوجبُ حدّاً؟ فلو ثبتَ، فمن يُقيمُهُ؟ وأستبعدُ هذا في العادة؛ لأنهم في مقام احترامٍ لأجل مناصِبِهم.

فبقيتُ أتفكر في تعطيل الحدِّ الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نُكِبوا، وأُخِذوا مراتٍ، ومرَّت عليهمُ العجائبُ، فقوبل ظلمُهُم بأخذِ أموالِهم، وأخذت منهم الحدودُ مضاعفةً بعد الحبسِ الطويلِ والقيدِ الثقيلِ والذُّلِّ العظيمِ، وفيهم من قُتِلَ بعد ملاقاةِ كلِّ شدةٍ!

فعلمتُ أنه ما يُهملُ شيءٌ.

فالحذرَ الحذرَ، فإنَّ العقوبةَ بالمرصادِ.



[التفكر في خلق الله]

عرَضَ لي في طريق الحج خوفٌ من العربِ، فسرْنا على طريق خيْبَرَ، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبة ما أذهلني، وزادتْ عظمةُ الخالق ﷻ في صدري، فصار يَعْرِضُ لي عند ذِكْرِ تلك الطُّرُقِ نوعُ تعظيمٍ لا أجدُهُ عند ذِكْرِ غيرِها.

فصحتُ بالنفس: ويحك! اعْبري إلى البحر، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكْر، تشاهدي أهوالاً هي أعظمُ من هذه.

ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنك ترينه بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كذرَّةٍ في فلاةٍ.

ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حول العرش، وتلمحي ما في الجِنانِ والنيران.

ثم اخرجي عن الكُلِّ، والتفتي إلى ربك؛ فإنك تشاهدينَ العالَمَ في قبضته.

فكيفَ يغْفَلُ أربابُ القلوبِ عن ذِكْرِ هذا الإلهِ العظيم؟!

بالله لو صَحَتِ النفوسُ عن سُكرِ هواها لذابتْ من خوفِهِ، أو لغابتْ في حُبِّه؛ غيرَ أن الحِسَّ غَلَبَ؛ فعظُمتْ قدرةُ الخالق عند رؤية جبل، وإنَّ الفطنةَ لو تلمحتِ المعانيَ؛ لدلتِ القدرةُ عليه أوفى من دليل الجبل.

سبحان من شَغَلَ أكثرَ الخلق بما هم فيه عما خُلِقوا له! سبحانه.

فصل

[وجوب الصبر على البلاء مع كثرة الدعاء]

للبلاءِ نهاياتٌ معلومةُ الوقتِ عند الله ﷻ، فلا بد للمُبتلى من الصبر إلى أن ينقضيَ أوانُ البلاء، فإن تقلقلَ قبل الوقتِ لم ينفعِ التقلقلُ، فاستعجال زوال البلاء مع تقديرِ مدته لا ينفع.

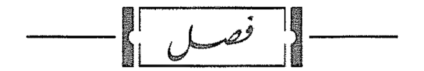
فالواجبُ الصبرُ، وإن كان الدعاءُ مشروعاً، ولا ينفعُ إلّا به.

إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجلَ، بل يتعبَّدُ بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم، ويقطَعُ الموادَّ التي كانت سبباً للبلاءِ، فإنَّ غالبَ البلاء أن يكونَ عقوبةً.

فأما المستعجلُ؛ فمزاحمٌ للمدبِّر، وليس هذا مقامَ العبوديةِ، وإنما المقامُ

الأعلى هو الرِّضا، والصبر هو اللازم، والتلافي بكثرة الدعاء نِعْمَ المعتمدُ، والاعتراضُ حرامٌ، والاستعجالُ مزاحمةٌ للتدبير.

فافهمْ هذه الأشياءَ فإنَّها تُهوِّنُ البلاءَ.



[في بعض ما يعين على الصبر]

ليس في الوجودِ شيءٌ أصعبُ من الصبر: إمّا عن المحبوب، أوْ على المكروهات؛ وخصوصاً إذا امتدَّ الزمان، أو وقع اليأسُ من الفرج.

وتلك المدةُ تحتاج إلى زادٍ يُقْطَعُ به سفرُها، والزادُ يتنوعُ من أجناسٍ:

فمنهُ: تلمُّحُ مقدارِ البلاءِ، وقد يمكنُ أن يكون أكثر.

ومنه: أنه في حالٍ فوقَها أعظمُ منها؛ مثلُ أن يُبتلى بفقدِ ولدٍ وعندَه أعزُّ منه.

ومن ذلك: رجاءُ العِوَضِ في الدنيا.

ومنه: تلمحُ الأجرِ في الآخرة.

ومنه التلذذُ بتصويرِ المدح والثناء من الخلق فيما يَمدحونَ عليه، والأجر من الله ﷻ.

ومن ذلك: أن الجزعَ لا يفيدُ... إلى غير ذلك من الأشياءِ التي يقدحُها العقلُ والفكرُ.

فليس في طريق الصبر نفقةٌ سواها، فينبغي للصابر أن يَشْغَلَ بها نفسَه، ويقطعَ بها ساعاتِ ابتلائه وقد صبحَ المنزلَ.

فصل

[لا تتعجل إجابة الدعاء]

ينبغي لمن وقعَ في شدة ثم دعا ألّا يختلجَ في قلبه أمرٌ من تأخير الإجابة أو عدمِها؛ لأن الذي إليه أنْ يدْعو، والمدعوُّ مالكٌ حكيمٌ، فإنْ لم يُجبْ؛ فَعَلَ ما يشاءُ في مُلْكِهِ، وإن أخَّرَ؛ فَعَلَ بمقتضى حكمتِهِ.

فالمعترِضُ عليه في سرِّه خارجٌ عن صفةِ عبدٍ، مزاحمٌ لمرتبة مُسْتَحِقٍّ.

ثم لْيَعلمْ أن اختيارَ الله ﷻ له خيرٌ من اختيارِه لنفسه.

فإذا سلَّمَ العبدُ تحكيماً لحكمتِهِ وحُكْمِهِ، وأيقن أنَّ الكلَّ مُلْكَهُ؛ طاب قلبُه قُضِيتْ حاجتُه أوْ لمْ تُقْضَ.

وفي الحديث: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَاّ أَعْطَاهُ الله بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»[1].

فافهمْ هذه الأشياءَ، وسلِّم قلبَك من أن يختلجَ فيه ريبٌ أو استعجالٌ.



[فضل العلم والعلماء]

من أرادَ أن يعرفَ رُتبة العلماء على الزُّهاد؛ فلينظرْ في رُتبة جبريلَ وميكائيلَ ومَنْ خُصَّ من الملائكة بولايةٍ تتعلقُ بالخلقِ، وباقي الملائكةِ قيامٌ للتعبُّد.

---

(١) (**حسن صحيح**) رواه أحمد (٣/ ١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، وابن أبي شيبة (٢٤٩٠٦)، والحاكم (١٨١٦)، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشعب» (١١٢٩).

وقد حَظِيَ أولئك بالتقريب على مقاديرِ علمِهم بالله تعالى.

فإذا مرَّ أحدُهم بالوحي؛ انزعجَ أهلُ السماء حتى يُخبرَهم بالخبر، فـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبأ: ٢٣]، كما إذا انزعجَ الزاهدُ من حديثٍ يسمعه؛ سأل العلماءَ عن صحتِه ومعناه.

فسبحان من خصَّ فريقاً بخصائصَ شَرُفوا بها على جنسهم.

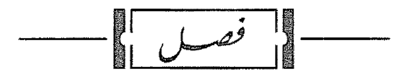
ولا خصيصةَ أشرفُ من العلم، فأقرب الخلقِ من الله العلماءُ.

وليس العلمُ بمجرد صورتِهِ هو النافع، بل معناهُ.

وإنما ينالُ معناه من تعلّمه للعمل به، فكلما دلَّهُ على فضل اجتهد في نيله، وكلما نهاهُ عن نقصٍ بالغ في مباعدتِه، فحينئذٍ يكشفُ العلمُ له سِرَّه، ويسهُلُ عليه طريقُه.

والذي لا يعمل بالعلم لا يُطْلِعُهُ العلمُ على غوْره، ولا يكشف له عن سره.

فافهم هذا، وحسِّنْ قصدَكَ، وإلا فلا تتعجبْ.



[الهمة العالية في طلب المعالي]

منْ أعْمَلَ فكرَه الصافي؛ دلَّه على طلبِ أشرفِ المقاماتِ، ونهاه عن الرضا بالنقص في كلِّ حالٍ.

وقد قال أبو الطيبِ المتنبي:

ولـمْ أرَ فـي عُـيـوب الـنـاسِ عـيـبـاً كـنـقـصِ الـقـادريـنَ عـلـى الـتَّـمـام

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غايةِ ما يمكِنُه. فلو كان يُتَصَوَّرُ للآدميِّ صعودُ السمٰوات؛ لرأيتُ من أقبح النقائصِ رضاهُ بالأرض، ولو كانتِ النبوة تحصُلُ بالاجتهاد؛ رأيتُ المقصِّرَ في تحصيلِها في حضيضٍ؛ غيرَ أنه إذا لم

يمكنْ ذلك؛ فينبغي أن يطلبَ الممكنَ، والسيرة الجميلة عند الحكماء: خروجُ النفس إلى غايةِ كمالِها الممكنِ لها في العلم والعمل.

وأنا أشرحُ من ذلك ما يدلُّ مذكورُهُ على مُغْفَلِهِ(١):

أما في البدن: فليستِ الصُّورةُ داخلةً تحت كسبِ الآدميِّ، بل يدخُلُ تحت كسبِهِ تحسينُها وتزيينُها. فقبيحٌ بالعاقل إهمالُ نفسِهِ.

وقد نبَّه الشرع على الكلِّ بالبعض، فأمَرَ بقصِّ الأظفارِ، ونتفِ الإبِطِ، وحلقِ العانةِ، ونهى عن أكل الثوم والبصل النَّيّء لأجل الرائحة.

وينبغي له أن يقيسَ على ذلك ويطلُبَ غايةَ النظافةِ.

وقد كان النبي ﷺ يُعرفُ مجيئُهُ بريحِ الطِّيبِ(٢)، فكان الغايةَ في النظافةِ والنزاهةِ.

ثم ينبغي له أن يرفُقَ ببدنه الذي هو راحلتُهُ، ولا يَنْقُصَ من قُوتِها فتنقُصَ قوته.

ولست آمر بالشِّبَع، إنما آمر بالتوسط، ولا يُلتَفَتُ إلى قول الموسوسينَ من المتزهدينَ الذين جدّوا في التقلُّل فضعفُوا عن الفرائض، وليس ذلك من الشرع، ولا نُقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه، إنما كان الرسول ﷺ وأصحابُه إذا لم يجدوا جاعوا، وربما آثروا فصبروا ضرورةً.

وكذلك ينبغي أن ينظر لهذه الراحلة في علَفِها ـ فربَّ لقمةٍ منعت لُقُماتٍ ـ فلا يعطيها ما يؤذيها، بل ينظرُ لها في الأصلح، ولا يتلفتُ إلى متزهد يقول: لا أبلِّغها الشهوات؛ فإنَّ النظرَ ينبغي أن يكون في حِلِّ المطعم وأخذِ ما يصلُحُ بمقدارٍ، والتوسطَ هو المحمود.

---

(١) المُغفل: ما لم يُذكر من الكلام.

(٢) (حسن) رواه الدارمي (٦٥)، وابن أبي شيبة (٢٢٠٧٤) وعبد الرزاق في «مصنفه» (٧٩٢٨) عن إبراهيم مرسلاً. ورواه الدارمي (٦٦)، وأبي حنيفة في «مسنده» (١/١٠٩) عن جابر. وأخرجه البزار (٧١١٨) عن أنس. وحسنه الألباني بمجموع طرقه. انظر: «صحيح الجامع» (٤٩٨٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٣٧).

ولم يُنقلُ عن الرسول ﷺ ولا أصحابه ﷺ ما أحدثه الموسوسون في ترك المشتهيات على الإطلاق.

وينبغي له أن يجتهد في الكسب، وليبلُغَ من ذلك غايةً لا تمنعُهُ عن العلم.

ثم ينبغي له أن يطلُبَ الغايةَ في العلم، وأن يطلبَ الغايةَ في معرفةِ الله تعالى ومعاملتِهِ.

وفي الجملةِ لا يترُكُ فضيلةً يمكنُ تحصيلُها إلا حصلَها.

فكنْ رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرَى وهامَةُ هِمَّتِهِ في الثُّرَيَّا

واعلم أنكَ في ميدان سباقٍ، والأوقاتُ تُنْتهبُ.

ولا تخلُدْ إلى كسل، فما فات ما فاتَ إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجدِّ والعزم.

وإن الهمةَ لتغلي في القلوب غلَيانَ ما في القدور، وقد قال بعضُ من سلَفَ:

ليس لي مالٌ سوى كَرَمي فَبِهِ أحيا من العَدَمِ
قَنِعَتْ نفسي بما رُزِقَتْ وتَمَطَّتْ في العُلا هِمَمي

فصل

[وجوب الاحتياط والحذر في معاشرة الأصدقاء]

من أعظم الغلطِ: الثقةُ بالناس، والاسترسالُ إلى الأصدقاء؛ فإن أشدَّ الأعداء وأكثرَهم أذىً الصديقُ المُنْقلبُ عدوّاً؛ لأنه قدِ اطلع على خفيِّ السرِّ.

قال الشاعرُ:

احْذَرْ عدوَّكَ مرَّةً واحذرْ صديقَكَ ألفَ مَرَّةْ
فَلَرُبما انقلَبَ الصديـ ـقُ فكانَ أعْلَمَ بالمضرَّةْ

واعلمْ أنّ مِنَ الأمرِ الموضوع في النفوسِ الحسدَ على النِّعم أو الغبطَةَ وحبَّ الرِّفعةِ، فإذا رآك من يعتقدُك مِثْلاً له وقدِ ارتقيتَ عليه؛ فلا بدَّ أنْ يتأثَّر، وربما حَسَدَ.

واجعلِ الأذكياءَ لحوائجِكَ الخارجةِ، والبُلْهَ لحوائجِكَ في منزِلكَ؛ لئلَّا يعلموا أسرارَك، فإنَّك إنِ إستخدمت الأذكياءَ؛ عرفوا باطِنَكَ، وإنِ استخدمتَ البُلْه انعكستْ مقاصِدُك.

واحترز من الأصدقاء، ثم لا تطلعهم على باطنٍ يمكنُ أن يُسترَ عنهم، وكن كما يُقال عن الذئبِ:

ينامُ بإحْدى مُقْلتيهِ ويَتَّقي بأُخرى الأعادي فهو يقظانُ هاجعُ

فصل

[العمر قصير فقدم الأهم على المهم]

رأيت الشَّرِهَ في تحصيل الأشياءِ يُفَوِّتُ الشَّرَهُ عليه مقصودَهُ.

وقد رأينا من كان شرِهاً في جمع المال فحصلَ له الكثيرُ منه، وهو مع ذلك حريصٌ على الازدياد، ولو فهمَ؛ علم أن المرادَ من المال إنفاقُه في العُمُرِ، فإذا أنفقَ العُمُرَ في تحصيله؛ فات المقصودان جميعاً.

وكم رأينا ممن جمع المال ولم يتمتعْ به، فأبقاهُ لغيره وأفنى نفسَه كما قال الشاعر:

كدُودةِ القَزِّ ما تبنيهِ يهدِمُها وغيرُها بالذي تبنيه يَنْتَفِعُ

وإن العاقل من قدّر عمره وعمل بمقتضاه، فإن العمر قصير.

ثم ليعلم أن الدنيا معبرة فيلتفت إلى فهم معاملة الله ﷻ، فإن العلم يدله عليه.

وإن لله ﷻ أقواماً يتولى تربيتهم، ويهيئ لهم أسباب القرب منه.

وقال سفيان بن عيينة: قال لي أبي ـ وقد بلغت خمس عشرة سنة ـ: إنه

قد انقضت عنك شرائع الصبا، فاتبع الخير تكن من أهله، فجعلت وصية أبي قبلةً أميل إليها ولا أميل عنها.

فصل

[من أخفى سريرة ألبسه الله ثوبها]

إنّ للخلوةِ تأثيراتٍ تَبِينُ في الجَلْوةِ.

كم من مؤمنٍ بالله ﷻ يحترمُهُ عند الخَلَوات؛ فيتركُ ما يشتهي حذَراً من عقابه، أو رجاءً لثوابه، أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرحَ عوداً هندياً على مجمرٍ فيفوحُ طِيبُهُ؛ فيستنشقُهُ الخلائقُ ولا يدرون أين هُو.

وعلى قدْرِ المجاهدةِ في ترك ما يهوى تقوى محبتُهُ، أو على مقدار زيادةِ دفعِ ذلك المحبوب المتروكِ يزيدُ الطيب، ويتفاوتُ تفاوتَ العود.

فترى عيونَ الخلْقِ تُعظِّمُ هذا الشخصَ، وألْسنتُهم تمدحُهُ.

وقد تمتدُّ هذه الأراييحُ بعد الموت على قدْرِها، فمنهم من يُذكرُ بالخير مدةً مديدةً ثم يُنْسى، ومنهم من يُذكر مائةَ سنةٍ ثم يَخْفى ذِكْرُهُ، ومنهم أعلامٌ يبقى ذِكْرُهُم أبداً.

وعلى عكس هذا منْ لم يحترمْ خلوتَهُ بالله، فإنه على قدْر مبارزته بالذُّنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب؛ يفوحُ منه ريحُ الكراهةِ، فتمقُتُه قلوب الصالحين.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبدَ ليخلوا بمعصية الله تعالى؛ فيُلقي اللهُ بغضَهُ في قلوب المؤمنينَ من حيثُ لا يشعرُ.

وربَّ خالٍ بذنبٍ كان سببَ وقوعِهِ في هُوَّةِ شِقْوَةٍ في عيشِ الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: ابقَ بما آثرتَ! فيبقى أبداً في التخبيطِ.

فانظروا إخواني إلى المعاصي أثَّرَتْ وعثَّرتْ.

فتلمحوا ما سطّرتُه، واعرفوا ما ذكرتُه، ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائِرَكم، فإن الأعمال بالنية، والجزاءَ على مقدار الإخلاص.

فصل

[المؤمن بين السراء والضراء]

سبحان المتصرفِ في خلقه بالاغتراب والإذلال لِيبلُوَ صبرَهم، ويُظْهِرَ جواهرَهم في الابتلاء.

هذا آدمُ ﷺ، تسجدُ له الملائكةُ، ثم بعد قليلٍ يُخرج من الجنة.

وهذا نوحٌ عليه السلام يؤذى، ثم بعد قليلٍ ينجو في السفينة ويَهْلِكُ أعداؤُه.

وهذا الخليلُ عليه السلام يُلقى في النار، ثم بعد قليلٍ يخرُجُ إلى السلامة.

وهذا الذبيحُ يضطجعُ مستسلماً، ثم يَسْلَمُ، ويبقى المدحُ.

وهذا يعقوبُ عليه السلام يذهبُ بصرُه بالفراق، ثم يعودُ بالوصولِ.

وهذا الكليمُ عليه السلام يشتغلُ بالرَّعْيِ، ثم يرْقَى إلى التَّكليم.

فمن تلمَّح بحرَ الدنيا، وعلم كيف تُتَلَقَّى الأمواجُ، وكيف يُصْبَرُ على مدافعة الأيام؛ لم يسْتهْوِلْ نزولَ بلاءٍ، ولم يفرحْ بعاجل رخاءٍ.

فصل

[النظر في العواقب]

أجهلُ الجُهَّالِ من آثر عاجلاً على آجلٍ لا يأمنُ سوءَ مغبتِهِ.

فكم قد سمعنا عن سلطانٍ وأميرٍ وصاحبِ مالٍ أطلقَ نفسَه في شَهَواتِها، ولم ينظرْ في حلال وحرام، فنزَلَ به من الندم وقتَ الموت أضعافُ ما التذَّ، ولقيَ من مريرِ الحَسَراتِ ما لا يقاوِمُه ولا ذرَّةً منه كلُّ لَذَّةٍ.

ولو كانَ هذا فحسبُ لكفى حُزْناً؛ كيفَ؛ والجزاءُ الدائمُ بين يديه.

فالدنيا محبوبةٌ للطبع لا ريبَ في ذلك، ولا أُنْكِرُ على طالِبِها ومُؤْثِرِ شَهَواتِها، ولكن ينبغي له أن ينظُرَ في كسْبها، ويعلمَ وجهَ أخذِها؛ ليسلمَ له عاقبةُ لذَّتِه، وإلَّا فلا خيرَ في لَذَّةٍ من بعدِها النارُ.

وهل عُدَّ في العقلاء قطُّ من قيل له: اجلسْ في المملكة سنةً ثم نقتُلُكَ! هيهاتَ! بل الأمرُ بالعكس، وهو أن العاقلَ من صابَرَ مرارةَ الجهدِ سنةً، بلْ سنينَ؛ ليستريحَ في عاقبتِه.

وفي الجملة: أفٍّ لِلَذَّةٍ أعْقبتْ عقوبةً.

وعن محمد بن علي القُوهستانيُّ، قالَ: حدَّثنا أحد أبناء الأمراء قال: رأيتُ في المنام كأنَّ آتياً أتى بعد موتِ أبي، فقال: أجبِ الأميرَ! فقمتُ معه، فأدخلني دارَ وَحْشَةٍ سوداءَ الحيطانِ، مُقَلَّعَةَ السقوفِ والأبوابِ، ثم أصْعدني درجاً فيها، ثم أدخلَني غرفةً، فإذا في حيطانِها أثرُ النيرانِ، وإذا في أرضِها أثرُ الرمادِ، وإذا أبي عريانُ واضعاً رأسَه بين ركبتيه، فقال لي كالمستفهم: بُنَيَّ؟ قلت: نعمْ أصلحَ اللهُ الأميرَ. فأنشأ يقول:

أبْلِغَنْ أهلَنا ولا تُخْفِ عنْهُمْ ... ما لقينا في الْبَرْزَخِ الخَفاقِ
قدْ سُئلْنا عن كلِّ ما قدْ فَعَلنا ... فارْحموا وحْشَتي وما قد ألاقي

أفهمتَ؟ قلتُ: نعم. فأنشأ يقولُ:

فلو أنَّا إذا مِتْنا تُرِكْنا ... لكانَ الموتُ راحةَ كلِّ حيٍّ
ولكِنّا إذا مِتْنا بُعِثْنا ... ونُسأَلُ بعدَهُ عن كلِّ شيٍّ

فصل

[لذة الحس والعقل]

اللَّذَّاتُ كلُّها بين حِسيٍّ وعقليٍّ، فنهايةُ اللذَّات الحسيةِ النكاحُ، وغايةُ اللذات العقليةِ العلمُ، فمن حصلتْ له الغايتانِ في الدنيا فقد نال النهاية.

وأنا أرشد الطالب إلى أعلى المطلوبين، غيرَ أنّ للطالب المرزوق علامةً، وهو أنْ يكون مرزوقاً عُلُوَّ الهمةِ، وهذه الهمةُ تولدُ مع الطفل، فتراه من زمن طفولته يطلب معاليَ الأمور.

فإنْ قال قائلٌ: فإذا كانتْ لي همةٌ ولم أُرْزَقْ ما أطلبُ، فما الحيلةُ؟

فالجوابُ: أنه إذا امتنع الرزقُ من نوعٍ لم يمتنعْ من نوع آخر. ثم من البعيد أن يرزقَكَ همةً ولا يُعينُك. فانظر في حالِك فلعله أعطاك شيئاً ما شكرتَه، أوِ ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرتَ عنه. واعلم أنه ربما زوى عنك من لذّاتِ الدنيا كثيراً ليؤثِرَكَ بلذات العلم؛ فإنك ضعيفٌ ربما لا تَقْوى على الجمع، فهو أعلم بما يُصلحُك.

وأما ما أردتُ شرحه لك:

فإن الشابَّ المبتدئَ في طلب العلم ينبغي له أن يأخذَ من كلِّ علم طرفاً، ويجعلَ علمَ الفقه الأهمَّ، ولا يُقَصِّرَ في معرفةِ النقل، فبه تبينُ سِيَرُ الكاملينَ، وإذا رُزق فصاحةً ثم أضيفَ إليها معرفةُ اللغة والنحو؛ فقد شُحِذَتْ شفرةُ لسانه على أجود مِسَنٍّ.

ومتى أدَّى العلمُ لمعرفةِ الله ﷻ؛ فُتِحتْ له أبوابٌ لا تُفتحُ لغيرِه.

وينبغي له بالتلطُّفِ أن يجعلَ جزءاً منْ زمانِه مصروفاً إلى توفير الاكتساب والتجارةِ، مستنيباً فيها غيرَ مباشرٍ لها، مع التدبيرِ في العيش الممتنع من الإسرافِ والتبذيرِ؛ فإنَّ روايةَ العلم والعملَ به إلى درجة المعرفةِ لله ﷻ آسرةٌ للمشاعر، فربما شغلتْه لذةُ ما وصلَ إليه عن كلِّ شيءٍ، ويا لها حالةٌ سليمةٌ من آفةٍ.

فصل

[توصيات تعين طالب العلم على الحفظ]

اعلم أن المتعلمَ يفتقرُ إلى دوام الدراسة، ومن الغلط الانهماكُ في الإعادة ليلاً ونهاراً؛ فإنه لا يلبثُ صاحبُ هذه الحال إلا أياماً ثم يَفْتُرُ.

ومن الغلط تحميلُ القلب حفظَ الكثيرِ أو الحفظ من فنون شتّى؛ فإن القلبَ جارحةٌ من الجوارح، وكما أن من الناس من يحملُ المائةَ رطلٍ، ومنهم من يعجِزُ عن عشرين رطلاً؛ فكذلك القلوبُ.

فليأخذِ الإنسانُ على قدرِ قوّتِه ودونَها؛ فإنه إذا استنفدها في وقتٍ؛

ضاعتْ منه أوقاتٌ؛ كما أن الشَّرِهَ يأكلُ فضلَ لُقيماتٍ فيكونُ سبباً إلى منع أَكَلاتٍ، والصوابُ أن يأخذَ قدْرِ ما يُطيقُ، ويعيدَه في وقتين من النهار والليل، ويرفِّه القُوى في بقيةِ الزمان.

والدوامُ أصلٌ عظيمٌ، فكم ممن ترك الاستذكارَ بعد الحفظِ؛ فضاعَ زمنٌ طويلٌ في استرجاع محفوظٍ قد نُسي.

وللحفظِ أوقاتٌ من العُمُر، فأفضلُها الصِّبا وما يقاربُه من أوقات الزمان، ولا يُحمدُ الحفظُ بحضرةِ خُضرةٍ وعلى شاطئ نهرٍ؛ لأن ذلك يُلهي.

والخلْوةُ أصلٌ، وجمعُ الهمِّ أصلُ الأصولِ. قيل لأبي حنيفةَ: بم يُستعانُ على حفظ الفقهِ؟ قال: بجمع الهمِّ. وقال حماد بن سلمةَ: بِقِلَّةِ الغَمِّ.

وإصلاحُ المِزاج من الأصولِ العظيمةِ، فإن لها أثراً في الحفظ. قال مكحولٌ: من نَظُفَ ثوبُه قلَّ همُّه، ومن طابتْ ريحُهُ زادَ عقلُهُ، ومن جَمَعَ بينهما زادتْ مروءتُه.

وترفيهُ النفس من الإعادة يوماً في الأسبوع؛ ليثبُتَ المحفوظُ؛ وتأخذَ النفسُ قوةً، كالبنيان يُتركُ أياماً حتى يستقرَّ؛ ثم يُبنى عليه.

وتقليلُ المحفوظ مع الدوام أصلٌ عظيمٌ، وألَّا يشرَعَ في فنٍّ حتى يُحْكِمَ ما قبلَه.

ثم لينظُرْ ما يحفظُ من العلم، فإن العُمُرَ عزيزٌ والعلمَ غزيرٌ، وإنَّ أقواماً يصرفونَ الزمانَ إلى حفظِ ما غيرُهُ أَوْلى منه؛ وإنْ كان كلُّ العلوم حسناً؛ ولكنّ الأَوْلى تقديمُ الأهمِّ والأفضل.

وأفضلُ ما تُشوغِلَ به حفظُ القرآنِ، ثم الفقهُ، وما بعدَ هذا بمنزلةِ تابع.

ومن قَصَدَ وجهَ الله تعالى بالعلم؛ دلَّهُ المقصودُ على الأحسن، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فصل

[عاقبة الذنب]

منْ أراد دوامَ العافية والسلامة فلْيتَّق اللهَ عَجَّلَّ؛ فإنه ما مِنْ عبدٍ أطلقَ نفسَه في شيءٍ ينافي التقوى وإنْ قلَّ؛ إلَّا وجَدَ عقوبتَه عاجلةً أو آجلةً.

ومن الاغترار أن تسيءَ فترى إحساناً، فتظُنَّ أنك قد سُومحتَ، وتنسى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما قالتِ النفس: إنه يَغفِرُ، فتسامَحَتْ! ولا شك أنه يغفرُ، ولكنْ لمن يشاءُ.

وأنا أشرحُ لك حالاً، فتأمَّلْهُ بفِكْرِكَ؛ تعرفْ معنى المغفرةِ.

وذلك أن من هَفا هفوةً، لم يقصِدْها، ولم يعزِمْ عليها قبل الفعل، ولا عَزَمَ على العَوْدِ بعد الفعل، ثم انتبهَ لما فعلَ، فاستغفرَ اللهَ؛ كان فِعْلُهُ ـ وإنْ دخَلَهُ عمداً ـ في مقام خطأٍ.

مِثْلُ أن يَعرِضُ له مُستحسنٌ؛ فيغلِبَهُ الطبعُ؛ فيطلقَ النظرَ، ويتشاغل في حال نظرِهِ بالتذاذِ الطبع عن تلمُّح معنى النَّهْي، فيكونَ كالغائبِ أو كالسكرانِ، فإذا انتبهَ لنفسهِ؛ نَدِمَ على فعلِه، فقام الندمُ بغسلِ تلك الأوساخ التي كانتْ كأنها غلطةٌ لم تُقصدُ، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأمَّا المداوم على تلك النظرةِ، المُردِّدُ لها، المصرُّ عليها، فكأنه في مقام متعمِّدٍ للنَّهْي، مبارزٍ بالخلافِ، فالعفوُ يبعُدُ عنه بمقدار إصراره، ومن البُعْدِ أن لا يرى الجزاءَ على ذلك.

واعلمْ أنه من أعظم المِحنِ الاغترارُ بالسلامةِ بعد الذنبِ؛ فإنَّ العقوبةَ تتأخَّرُ.

ومن أعظمِ العقوبةِ أنْ لا يُحِسَّ الإنسانُ بها، وأن تكونَ في سلْبِ الدِّينِ، وطمْسِ القلوبِ، وسوءِ الاختيارِ للنفسِ.

قال بعضُ المعتبَرينَ: أطلقتُ نظري فيما لا يَحِلُّ لي، ثم كنتُ أنتظرُ العقوبةَ، فأُلْجِئْتُ إلى سفرٍ طويلٍ لا نيةَ لي فيه، فلقيتُ المشاقَّ، ثم أعقبَ ذلك موتَ أعزِّ الخلقِ عندي، وذهابَ أشياءَ كانَ لها وقعٌ عظيمٌ عندي، ثم تلافيتُ أمري بالتوبة، فَصَلَحَ حالي، ثم عادَ الهوى، فحمَلَني على إطلاق بصري مرةً أخرى، فطُمِسَ قلبي، وعدِمْتُ رِقَّتَهُ، واسْتُلِبَ مني ما هو أكثرُ منْ فقدِ الأولِ، ووقع لي تعويضٌ عن المفقودِ بما كان فقْدُهُ أصلحُ.

فلما تأملتُ ما عُوِّضْتُ وما سُلِبَ مني؛ صِحْتُ من ألم تلك السِّياطِ، فها أنا أنادي من على الساحل:

إخواني: احذروا لُجَّةَ هذا البحرِ، ولا تغتروا بسكونِه، وعليكم بالساحلِ، ولازموا حِصْنَ التَّقوى فالعُقوبةُ مُرَّةٌ.

واعلموا أنّ في ملازمةِ التقوى مراراتٍ مِنْ فَقْدِ الأغراض والمُشْتَهَياتِ، غير أنها في ضَرْبِ المَثَلِ كالحِمْيَةِ تُعْقِبُ صِحَّةً، والتخليطُ ربما جلب موتَ الفجأةِ.

وبالله لو نُمتم على المزابل مع الكلاب في طَلَبِ رضى المبتلي؛ كان قليلاً في نيل رضاه، ولو بلغتُم نهايةَ الأماني من أغراض الدنيا، مع إعراضه عنكم؛ كانت سلامتُكم هلاكاً، وعافيتُكم مرضاً، وصحتُكم سَقَماً. والأمرُ بآخرِه، والعاقل من تلمَّح العواقب.

وصابروا رحمكم الله تعالى هَجيرَ البلاءِ؛ فما أسرعَ زوالَه.

واللهُ الموفقُ؛ إذْ لا حول إلَّا به، ولا قوة إلَّا بفضله.



[خطر الاشتغال بعلم الكلام]

قَدِمَ إلى بغدادَ جماعةٌ من أهل البدع الأعاجم؛ فارْتقوْا منابر التذكير للعوامِّ، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون: ليس لله في الأرض كلامٌ، وإن الله

ليس في السماءِ! وإن الجاريةَ التي قال لها النبي ﷺ: «أين اللهُ؟»: كانت خرساءَ، فأشارتْ إلى السماء؛ أي: ليس هو من الأصنام التي تُعبدُ في الأرض[(١)].

فما زالوا كذلك حتى هانَ تعظيمُ القرآن في صدور أكثرِ العوامِّ.

فشكا إليَّ جماعة من أهل السُّنَّة، فقلت لهم: اصبروا؛ فلا بد للشبهات أن تَرفَع رأسها في بعض الأوقات؛ وإن كانت مدموغةً، وللباطل جولةٌ، وللحق صولةٌ، والدجالون كثر، ولا يخلو بلدٌ ممن يضربُ البهرجَ على مثل سِكَّةِ السلطان[(٢)].

قال قائل: فما جوابُنا عن قولهم؟ قلتُ: اعلمْ ـ وفقك الله تعالى ـ أن الله ﷻ ورسولَه ﷺ قَنِعا من الخلق بالإيمان بالجُمَل، ولم يكلِّفا معرفةَ التفاصيل: إما لأن الاطلاعَ على التفاصيل يُخَبِّطُ العقائدَ، وإما لأن قُوى البشر تَعْجِزُ عن مطالعة ذلك.

فأولُ ما جاء به الرسولُ ﷺ إثبات الخالق وتوحيده، ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخالق بالنظر في صنعه، فقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

وما زال يستدلّ على وجوده بمخلوقاته، وعلى قدرته بمصنوعاته، ثم أثبتَ نبوةَ نبيه بمعجزاته، وكان من أعظمِها القرآنُ الذي جاء به، فَعَجَزَ الخلائق عن مثلِه.

---

(١) روى مسلم في كتاب المساجد: باب (٧) رقم (٥٣٧/٣٣)، وأحمد (٤٤٧/٥ و٤٤٨ و٤٤٩)، وأبو داود (٩٣٠ و٣٢٨٢)، والنسائي (١٢١٨) عن مُعَاوِيَةَ بنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ جَارِيَةٌ لِي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، فَقُلْتُ: أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قال: «ائْتِنِي بِهَا»، قال: «أَيْنَ الله؟»، قالَتْ: في السَّمَاءِ. قال: «فَمَنْ أَنَا؟»، قالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

(٢) أي: لا يخلو بلد من مزيف ومزور للعملة التي يصدرها السلطان.

واكتفى بهذه الأدلةِ الصحابةِ، ومضى على ذلك القرنُ الأول، والمَشْرَبُ صافٍ لم يتكدَّرْ.

وعَلِمَ اللهُ ﷻ ما سيكونُ من البدع؛ فبالغَ في إثبات الأدلة، وملأ بها القرآن.

ولما كان القرآنُ هو منبعَ العلوم وأكبرَ المعجزاتِ للرسول؛ أكدَ الأمرَ فيه، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فأخبرَ أنه كلامُه بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وأخبر أنه مسموعٌ بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ثم نزَّهَ نبيَّهُ ﷺ عن أن يكونَ أتى من قِبَلِ نفسه. فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وتوعَّدهُ لو فَعَلَ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وقال في حقّ الزاعم إنه كلامُ الخلق حين قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٥، ٢٦].

وتولَّى هو بنفسه عقابَ المكذبين بالقرآن، فقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

ثم دسَّ الشيطان دسائسَ البدعِ، فقال قوم: مخلوقٌ! فثبتَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثبوتاً لم يثبته غيرُه على دفْع هذا القول؛ لئلا يتطرَّقَ إلى القرآن ما يمحو بعضَ تعظيمِه في النفوس، ويخرجُه عن الإضافةِ إلى الله ﷻ.

والكلامُ في هذه المسألة مُرَتَّبٌ بِذِكْرِ الحُجج والشُّبه في كتب الأصول؛ فلا أطيلُ به هاهنا، بل أذكر لك جملةً تكفي من أراد الله هُداه:

وهو أن الشرعَ قنعَ منا بالإيمان جملةً، وبتعظيم الظواهر، ونهى عن الخوض فيما يثير غُبار شبهةٍ، ولا تقوى على قطع طريقِه أقدامُ الفهم.

وإذا كان قد نهى عن الخوض في القَدَرِ؛ فكيف يُجَوِّزُ الخوضَ في صفاتِ المُقَدِّرِ؟!

وما ذاك إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرتُهما: إما لخوف إثارةِ شبهةٍ تُزلزلُ العقائدَ، أو لأن قُوى البشر تَعْجِزُ عن إدراك الحقائق.

وهذه الأشياءُ لا يصلُحُ الخوضُ فيها؛ فإن ما دونها لا يمكن تحقيقُه على التفصيل، كالرُّوح مثلاً؛ فإنا نعلم وجودَها في الجملة، فأما حقيقتُها فلا، فإذا جهلنا حقائقَها؛ كُنَّا لصفات الحق أجهلَ.

فوجبَ الوقوفُ مع السمعيات، مع نفي ما لا يليقُ بالحق؛ لأن الخوْضَ يزيدُ الخائضَ تخبيطاً، ولا يفيدُه تحصيلاً، بل يوجبُ عليه نَفْيَ ما يثبُتُ بالسمع من غير تحقيقِ أمرٍ عقليٍّ، فلا وجه للسلامة إلا طريقُ السلف، والسلامُ.

فصل

[فضائل الصبر على المشبهات]

تراعنتْ عليَّ نفسي في طلبها شيئاً من أغراضها بتأويل فاسدٍ، فقلت لها: بالله عليك تصبَّري، وإذا هممتِ بفعلٍ؛ فقدِّري حصولَه، ثم تلمَّحي عواقبَه، وما تجتنين من ثمراتِه، فأقلُّ ذلك الندمُ على ما فعلتِ، ولا يُؤْمَنُ أن يثمرَ غضبَ الحقِّ ﷻ وإعراضَه عنكِ؛ فأفٍّ للقاطع عنه.

ثم اعلمي أيتها النفسُ أنه ما يمضي شيءٌ جِزافاً، وأنَّ ميزان العدل تَبِينُ فيه الذَّرة.

فتلمَّحي الأمواتَ والأحياءَ، وانظري إلى من نُشِرَ ذِكْرُهُ بالخير والشر.

فسبحان من أظهر دليلَ الخلواتِ على أربابها؛ وإنما هذا بعضُ الثمراتِ الحاصلةِ، ونحن نرى مَنْ يمشي ثلاثينَ فرسخاً ليقالَ: ساعٍ، فالمتَّقي قد نالَ شرفَ الذِّكْر؛ وإنْ لم يَقصدْ نيل ذلك.

قالتِ النفسُ: لقد أمرتَني بالصبرِ على العذاب؛ لأن تركَ الأغراضِ عذابٌ.

قلتُ: لكِ عن الغرضِ عِوَضٌ، ومِنْ كلِّ متروكٍ بدلٌ، وأنتِ في مقام مُستعبَدٍ، ولا يصحُّ للأجير أن يَلبسَ ثيابَ الراحةِ في زمان الاستئجار، وكلُّ

زمانِ المُتَّقي نهارُ صوم، ومن خاف العقابَ ترَكَ المُشتهى، ومن رامَ القُربَ استعملَ الوَرَعَ، وللصبر حلاوةٌ تَبين في العواقب.

فصل

[في أن اتباع الهوى من خسّة الهمة]

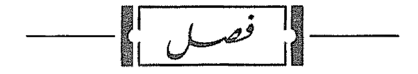
من نازعتْه نفسُه إلى لَذَّةٍ محرمةٍ، فشغَلَه نظره إليها عن تأمُّل عواقبها وعقابها، وسمع هتافَ العقل يناديه: ويحكَ لا تفعلْ، فإنك تقفُ عن الصعود، وتأخُذُ في الهبوط.

فإنْ شغَلَهُ هواه فلم يلتفتْ إلى ما قيل له؛ لم يزل في نزولٍ، وكان مَثَلُهُ في سوءِ اختيارِهِ كالمثل المضروب: أنَّ الكلبَ قال للأسدِ: يا سيدَ السباع، غيِّرْ اسمي، فإنه قبيحٌ. فقال له: أنت خائنٌ لا يصلُحُ لك غيرُ هذا الاسم. قال: فجرِّبني. فأعطاه شِقَّةَ لحم، وقالَ: احفظْ لي هذه إلى غدٍ وأنا أُغيِّرُ اسمَكَ. فجاعَ، وجعل ينظرُ إلى اللحم ويَصبِرُ، فلما غلبتْهُ نفسُه قال: وأيُّ شيءٍ باسمي؟ وما كلبٌ إلا اسمٌ حسنٌ، فأكلَ. وهكذا الخسيسُ الهمةِ، القنوعُ بأقلِّ المنازل، المختارُ عاجلَ الهوى على آجل الفضائل.

فاللهَ اللهَ في حريق الهوى إذا ثارَ. وانظرْ كيف تُطفئُه، فرُبَّ زلةٍ أوقعتْ في بئر بوارٍ، ورُبَّ أثرٍ لم ينقلعْ، والفائتُ لا يُستدركُ على الحقيقة.

فابْعد عن أسبابِ الفتنةِ؛ فإن المقاربةَ محنةٌ لا يكاد صاحبُها يسلمُ.

والسلام.



[الحياة ساحة حرب للهوى والشيطان]

رأيتُ الخلقَ كلَّهم في صفِّ محاربةٍ، والشياطينُ يرمونهم بنبلِ الهوى، ويضربونهم بأسياف اللَّذةِ.

فأما المخلطون؛ فصرعى من أول وقت اللقاء.

وأما المتقونَ؛ ففي جُهْدٍ جهيدٍ من المجاهدة.

فلا بُدَّ مع طول الوقوفِ في المحاربة مِنْ جِراحٍ، فهمْ يُجْرَحُونَ ويُداوَوْنَ؛ إلا أنهم من القتل محفوظونَ.

بلى، إنَّ الجِراحَةَ في الوجه شَيْنٌ باقٍ. فليحذَرْ ذلك المجاهدونَ.

فصل

[عجّل بالتوبة فإن عاقبة الذنوب وخيمة]

اعلموا ـ إخواني ومَنْ يقبلُ نصيحتي ـ أن للذنوب تأثيراتٍ قبيحةً، مرارتُها تزيدُ على حلاوتِها أضعافاً مضاعفةً، والمُجازي بالمرصاد، لا يسبِقُهُ شيءٌ، ولا يفوتُه.

فوا أسفاً لمضروبٍ بالسياط ما يُحِسُّ بالألم! ولِمُثْخَنٍ بالجراح وما عندهُ من نفْسِه خبرٌ! ولمُتقلِّبٍ في عقوباتٍ ما يدري بها! وإن أعظمَ العقوبة أنْ لا يدري بالعقوبة.

فوا عجباً للمغالِطِ نفسَه؛ يُرضي نفْسه بشهْوةٍ، ثم يُرضي ربَّه بطاعة، ويقولُ: حسنةٌ وسيئةٌ!

ويْحكَ! رُبَّ جِراحةٍ قتلتْ، ورُبَّ عثرةٍ أهلكتْ، وربَّ فارطٍ لا يُستدركُ.

ويْحَكَ! انتبهْ لنفسكَ، ما الذي تنتظر بتأخير أوبتك وتوبتك؟

قدِّرْ أنَّ ما تُؤمِّلُهُ من الدنيا قد حَصَلَ، فكان ماذا؟ فإنَّ آخر جرعة اللذة شرْقَة، فيا لَها جرعةٌ مريرةٌ.

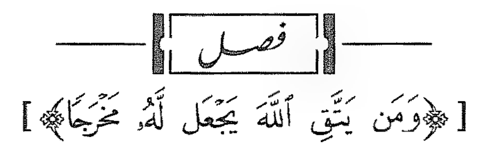
آهٍ لمحجوبِ العقل عن التأمُّل!

أما في هذه القبورِ نذيرٌ؟ أما في كُرورِ الزمان زاجرٌ؟ أين منْ مَلَكَ وبَلَغَ المُنى فيما أمَّلَ؟

فيا معدوماً بالأمس، يا متلاشيَ الأشلاءِ في الغدِ؟ بأيِّ وجهٍ تلقى ربَّكَ؟

أيُساوي ما تنالُه من الهوى لَفْظَ عتابٍ؛ فكيف إنْ أعقبَ العتابَ عقابٌ.

فنسألُ اللهَ ﷻ أنْ يُنبهَنا من رَقَداتِ الغافلينَ، وأن يُرينا الأشياءَ كما هي؛ لنعرفَ عيوبَ الذنوبَ. واللهُ الموفق.



[﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾]

ضاق بي أمرٌ أوجبَ غماً لازماً دائماً، وأخذتُ أبالغ في الفِكْر في الخلاص من هذه الهموم بكلِّ حيلة وبكل وجهٍ. فما رأيتُ طريقاً للخلاص، فَعَرَضَتْ لي هذه الآيةُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمتُ أنَّ التقوى سببٌ للمخرجِ من كلِّ غمٍّ. فما كان إلّا أنْ هممتُ بتحقيق التقوى؛ فوجدت المخرجَ.

فلا ينبغي لمخلوق أنْ يتوكلَ أو يتسببَ أو يتفكرَ إلا في طاعة الله تعالى وامتثال أمْره؛ فإنَّ ذلك سببٌ لفتح كلِّ مُرْتَجٍ[1].

ثمَّ أعْجبُهُ أنْ يكونَ من حيثُ لم يُقِدِّره المُتَفَكِّرُ المحتالُ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتقي أن يعلمَ أنَّ اللهَ ﷻ كافيه، فلا يُعَلِّقَ قلبَه بالأسبابِ؛ فقد قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

فصل

[من حِكم الإبطاء في إجابة الدعاء]

من العجب إلحاحُك في طلبِ أغراضِك! وكلَّما زادَ تعويقُها؛ زادَ إلحاحُك! وتنسى أنها قد تَمْتَنِعُ لأحد أمرين: إمّا لمصلحتِك. فربّما طلبتَ

---

(١) المرتج: المغلق.

مُعَجَّلَ أذى، وإمّا لذنوبِكَ. فإنّ صاحبَ الذنوب بعيدٌ من الإجابة.

فنظِّفْ طرقَ الإجابة من أوساخ المعاصي، وانظر فيما تطلُبُه، هل هو لإصلاح دينِك أو لمجردِ هواكَ؟

فإنْ كان للهوى المجرد؛ فاعلم أن من اللُّطف بكَ والرحمةِ لكَ تعويقَهُ، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفلِ يطلُبُ ما يؤذيه، فيُمْنَعُ رِفْقاً به.

وإنْ كان لصلاح دينِك، فربما كانتِ المصلحةُ تأخيرَه، أو كان صلاحُ الدِّين بعدمِهِ.

وفي الجملة تدبيرُ الحقِّ ﷻ لك خيرٌ من تدبيرِكَ، وقد يمنعُك ما تهوى ابتلاءً لِيَبْلُوَ صبرَك، فَأَرِهِ الصبرَ الجميلَ؛ تَرَ عن قُرْبٍ ما يَسُرُّ.

ومتى نظَّفتَ طرقَ الإجابة من أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه لك، فكلُّ ما يجري أصلحُ لك، عطاءً كان أو منعاً.

فصل

[الاستعداد ليوم الرحيل بالتوبة ومحاسبة النفس]

يجبُ على من لا يدري متى يبغتُهُ الموتُ أن يكونَ مستعداً، ولا يغترَّ بالشباب والصحةِ، فإن أقلَّ من يموتُ الأشياخُ، وأكثرَ من يموتُ الشبابُ، ولهذا ينذُرُ من يكْبَرُ، وقد أنشدوا:

يُعَمَّرُ واحدٌ فيَغُرُّ قوماً ... ويُنْسى مَنْ يموتُ من الشَّبابِ

ومن الاغترار طولُ الأمل، وما من آفةٍ أعظمُ منهُ، فإنَّه لولا طول الأمل ما وقَعَ إهمالٌ أصلاً، وإنما تُقَدَّمُ المعاصي وتُؤَخَّرُ التوبة؛ لطولِ الأملِ وتبادر الشهوات، وتُنْسى الإنابةُ لِطولِ الأملِ.

وإنْ لم تستطعْ قِصَرَ الأملِ؛ فاعملْ عَمَلَ قصيرِ الأمل، ولا تُمْسِ حتى تنظُرَ فيما مضى من يومِك، فإنْ رأيتَ زلَّةً؛ فامْحُها بتوبةٍ. أو خَرْقاً؛ فارْقَعْهُ باستغفارٍ. وإذا أصبحتَ فتأمل ما مضى في ليلِكَ. وإياكَ والتسويفَ فإنه أكبرُ جنودِ إبليسَ:

وخُـذْ لـكَ مـنـكَ عـلـى مُـهْـلَـةٍ   ومُـقْـبِـلُ عَـيْـشِـكَ لـمْ يُـدْبِـرِ
وخَـفْ هـجـمـةً لا تُـقـيـلُ الـعِـثـارَ   وتَـطْـوي الـورودَ عـلـى الـمـصْـدَرِ
ومـثِّـلْ لـنـفـسِـكَ أيُّ الـرعـيـل   يـضـمُّـكَ فـي حَـلْـبَـةِ الـمـحْـشَـرِ

ثم صوِّرْ لنفسك قِصَرَ العُمرِ، وكثرَةَ الأشغالِ، وقوَّةَ الندم على التفريط عند الموت، وطولَ الحسرةِ على البدارِ بعدَ الفوْتِ.

وصوِّرْ ثوابَ الكاملينَ وأنت ناقصٌ، والمجتهدين وأنت مُتكاسِلٌ، ولا تُخْلِ نَفْسَك من موعظةٍ تسمعُها، وفكرة تحادِثُها بها، فإنَّ النفسَ كالفرسِ المتشيطِنِ: إنْ أهملتَ لجامَه؛ لم تأمنْ أن يرميَ بكَ. وقَدْ والله دنَّسَتْكَ أهواؤُك، وضيعتَ عُمُرَك.

فالبدارَ البدارَ. ولا حول ولا قوة إلا الله.

فصل

[احذر عاقبة المعصية]

الحذرَ الحذرَ من المعاصي؛ فإن عواقبها سيئة، وكم من معصيةٍ لا يزالُ صاحبُها في هبوطٍ أبداً؛ مع تعثيرِ أقدامِه، وشدةِ فقرِه، وحسراته على ما يفوتُهُ من الدنيا.

فوا أسفاً لمعاقَبٍ لا يُحِسُّ بعقوبتِه.

وآهٍ من عقابٍ يتأخرُ حتى يُنْسى سببُهُ.

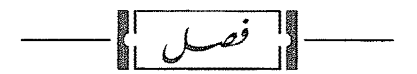
فوا حسرةً لمُعاقَبٍ لا يدري أنَّ أعظمَ العقوبةِ عدمُ الإحساس بِها!

فاللهَ اللهَ في تجويدِ التوبةِ؛ عساها تَكُفُّ كَفَّ الجزاءِ.

والحذرَ الحذرَ من الذنوبِ، خصوصاً ذنوب الخلوات، فإنَّ المبارزةَ لله تعالى تُسقِطُ العبدَ من عينِهِ.

ولا تغترَّ بسترِهِ أيها العاصي ولا بحلْمِه؛ فربما بَغَتَ العقابُ.

وعليك بالقلق واللّجإ إليه والتضرع، وأصْلحْ ما بينكَ وبينَهُ في السرِّ؛ وقدْ أصلحَ لكَ أحوالَ العلانيةِ.



[الجزاء من جنس العمل]

إخواني: اسْمعوا نصيحةَ مَنْ قدْ جرَّبَ وخَبَرَ.

إنه بقَدْرِ إجلالِكُم لله ﷻ يُجِلُّكم، وبمقدار تعظيم قدْرِهِ واحترامِهِ يُعَظِّمُ أقدارَكم وحُرْمَتَكُم.

ولقد رأيتُ واللهِ من أنفقَ عُمُرَهُ في العلم إلى أنْ كَبرَتْ سِنُّهُ، ثمَّ تعدَّى الحدودَ؛ فهانَ عند الخلقِ، وكانوا لا يلتفتونَ إليه مع غزارةِ علمِهِ.

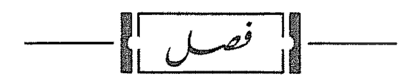
ولقد رأيتُ من كان يراقبُ اللهَ ﷻ في صبوته ـ مع قُصورِه بالإضافة إلى ذلك العالم ـ فعظَّمَ الله قدْره في القلوب؛ حتى عَلِقَتْهُ النفوس ووصَفَتْه بما يزيدُ على ما فيه من الخير.

ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام، فإذا زاغ؛ مالَ عنه اللُّطف.

ولولا عمومُ السترِ وشُمولُ رحمةِ الكريم؛ لافْتضح هؤلاء المذكورون، غيرَ أنه في الأغلب تأديبٌ أو تلطُّفٌ في العقاب كما قيل:

ومنْ كان في سُخْطِهِ مُحْسِناً ... فكيفَ يكونُ إذا ما رَضِي

غيرَ أنَّ العدلَ لا يُحابي، وحاكمَ الجزاءِ لا يجورُ، وما يَضيعُ عند الأمينِ شيءٌ.



[إلزم محراب التوبة والإنابة وإن تأخر الفرج]

أيُّها المذنبُ: إذا أحسستَ نفحاتِ الجزاءِ فلا تكثرنَّ الضجيج، ولا تقولنَّ: قد تُبْتُ وندمتُ، فهلَّا زالَ عني من الجزاء ما أكرهُ!

فلعلَّ توبتَكَ ما تحققتْ.

وإنَّ للمجازاة زماناً يمتدُّ امتدادَ المرضِ الطويل، فلا تنجعُ فيه الحيَلُ حتى ينقضيَ أوانه.

وإن بين زمان: ﴿وَعَصَىٰ﴾ إلى إبَّان: ﴿فَتَلَقَّىٰ﴾ مدةً مديدةً(١).

فاصبرْ أيها الخاطئُ حتى يتخللَ ماءُ عينيكَ خِلالَ ثوبِ القلبِ المُتنجس، فإذا عَصَرَتْهُ كَفُّ الأسى، ثم تكررتْ دُفَعُ الغَسَلاتِ، حُكِمَ بالطهارةِ.

وللبلايا أوقاتٌ ثم تنصرِمُ.

ورُبَّ عقوبةٍ امتدَّتْ إلى زمانِ الموت.

فاللازمُ لك أنْ تلازمَ مِحرابَ الإنابةِ، وتجلِسَ جِلْسَةَ المُستجدي، وتجعلَ طعامَكَ القلقَ، وشرابَكَ البكاءَ؛ فربما قَدِمَ بشيرُ القَبولِ؛ فارتدَّ يعقوبُ الحُزْنِ بصيراً، وإنْ مُتَّ في سجنِ شجنِكَ؛ فربما نابَ حزنُ الدنيا عن حزنِ الآخرةِ، وفي ذلك ربحٌ عظيمٌ.

فصل

[أطفئ نار الذنوب بدمع الندم]

الواجبُ على العاقل أنْ يحذرَ مغبَّةَ المعاصي، فإن نارَها تحتَ الرماد.

وربما تأخرتِ العقوبةُ ثم فَجَأَتْ، وربما جاءت مُستعجَلَةً.

فلْيبادرْ بإطفاءِ ما أوقد من نيرانِ الذنوب، ولا ماءَ يطفئُ تلك النارَ إلَّا ما كان من عَيْنِ العينِ(٢)؛ لعلَّ خصمَ الجزاءِ يرضى قبل أنْ يَبُتَّ الحاكمُ في حُكْمِهِ.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ [طه: ١٢١]، وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

(٢) عين العين: نبع العين؛ يعني: الدمع.

فصل

[عتاب ونجوى مع نفس أمّارة]

وا عجباً من عارفٍ بالله ﷻ يُخالِفُه ولو في تَلَفِ نفسه!

هل العيشُ إلّا معهُ؟ هل الدنيا والآخرةُ إلّا له؟

أفٍّ لمترخصٍ في فعل ما يكرهُ لنيل ما يُحبُّ! تالله لقد فاته أضعافُ ما حصَّلَ.

أقبلْ على ما أقولُه يا ذا الذوق!

هل وقعَ لك تعثيرٌ في عيشٍ وتخبيطٌ في حالٍ إلّا حالَ مخالفتِه؟!

يا أربابَ المعاملةِ، بالله عليكُم لا تُكدّروا المشربَ. قِفُوا على باب المراقبةِ وقوفَ الحراس، وادْفعوا ما لا يصلُحُ أنْ يلجَ فيُفْسِدَ، واهجروا أغراضَكم لتحصيل محبوبِ الحبيب؛ فإنّ أغراضَكُم تَحْصُلُ.

على أنني أقولُ: أفٍّ لمن ترَكَ بقصدِ الجزاءِ: أهذا شرطُ العبوديَّةِ؟ كلَّا إنّما ينبغي لي إذا كنتُ مملوكاً أنْ أفعلَ ليرْضَى لا لِأُعْطى؛ فإنْ كنتُ مُحِبّاً؛ رأيتُ قطعَ الآرابِ[1] في رضاه وصْلاً.

اقبلْ نُصحي يا مخدوعاً بِغرضِهِ.

إنْ ضعُفْتَ عن حَمْل بلائِهِ؛ فاستغثْ به، وإنْ آلمكَ كرْبُ اختياره؛ فإنكَ بين يديهِ، ولا تيأسْ من رَوْحِهِ وإنْ قَوِيَ خِناقُ البلاء.

إخواني: لنفسي أقولُ. فمن له شِرْبٌ معي؛ فلْيرِدْ.

أيتها النفسُ: لقد أعطاكِ ما لم تُأمّلي، وبلّغَكِ ما لم تطلُبي، وسترَ عليك مِنْ قبيحِك ما لو فاحَ؛ ضجّت المشامُّ.

فما هذا الضجيجُ من فواتِ كمالِ الأغراضِ؟ أمملوكةٌ أنتِ أم حُرَّةٌ؟ أما علمتِ أنكِ في دار التكليف؟

---

(١) الإِرْبُ: العُضْوُ، يقال: السُّجُودُ على سَبْعَةِ آرَابٍ.

وهذا الخطابُ ينبغي أن يكونَ للجُهَّالِ، فأين دعواك المعرفَةَ؟

أتُراه لو هبَّتْ نفحةٌ فأخَذَتِ البصرَ؛ كيف كانت تطيبُ لك الدنيا؟

وا أسفاً عليك، لقد عَشِيَتِ البصيرةُ التي هي أشرفُ، وما علمتِ كم أقولُ: عسى ولعلَّ. وأنت في الخطأِ إلى قُدَّامٍ.

قرُبَتْ سفينةُ العُمُر من ساحلِ القبْر وما لَكِ في المركب بضاعةٌ تربَحُ.

تلاعبتْ في بحر العُمُر ريحُ الضَّعْفِ؛ ففرقتْ تلفيقَ القُوَى، وكأنْ قد فَصَلَتِ المركبُ... بَلَغْتِ نهايةَ الأجل وعينُ هواكِ تتلفتُ إلى الصِّبا.

باللهِ عليكِ لا تُشمتي بكِ الأعداءَ.

هذا أقلُّ الأقسام. وأوْفى منها أنْ أقولَ: بالله عليك لا يفوتنَّك قَدَمُ سابقٍ مع قُدرتِكِ على قطع المضمار.

الخلوةَ الخلوةَ. واستحضري قرينَ العقلِ، وجُولي في حَيْرَةِ الفِكْرِ، واسْتدْركي صُبابَةَ الأجلِ قبلَ أن تميلَ بك الصبابةُ عن الصواب.

وا عجباً! كلَّما صَعِدَ العُمُر نَزَلْتِ! وكلَّما جَدَّ الموتُ هَزَلْتِ!

أتُراك ممن خُتمَ له بفتنةٍ، وقُضِيَتْ عليه عند آخرِ عُمُره المحنةُ؟

كان أولُ عمرك خيراً من الأخير... كنتِ في زمن الشبابِ أصْلَحَ منك في زمن أيام المشيب....

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

نسألُ اللهَ ﷻ ما لا يحصُلُ مطلوبنا إلّا به، وهو توفيقُهُ، إنه سميعٌ مجيبٌ.

فصل

[من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه]

قدَرْتُ في بعض الأيام على شهوةٍ للنفس هي عندَها أحلى من الماء الزُّلال في فم الصَّادي[1]، وقال التأويلُ: ما هاهنا مانعٌ ولا مُعَوِّقٌ إلا نوعُ ورعٍ. وكانَ ظاهرُ الأمر امتناعُ الجوازِ، فترددتُ بين الأمرين، فمنعتُ النفسَ عن ذلك؛ فَبَقِيَتْ حيرتي لمنع ما هو الغايةُ في غرضِها من غيرِ صادٍّ عنه بحالٍ إلَّا حَذَرَ المنع الشرعيِّ.

فقلت لها: يا نفس. واللهِ ما من سبيلٍ إلى ما تودينَ ولا ما دونه. فتقلْقَلتْ، فصُحت بها: كم وافقتُكِ في مُرادٍ ذهبتْ لَذَّتُهُ وبقي التأسُّفُ على فعله؟ فقدِّري بلوغَ الغرضِ من هذا المراد، أليس الندمُ يبقى في مجال اللذة أضعافَ زمانِها؟ فقالت: كيف أصنعُ؟ فقلت:

صَـبَـرْتُ ولا والله مـا بـي جـلادَةٌ على الحُبِّ لكنّي صبرتُ على الرَّغْمِ

وها أنا ذا أنتظرُ من الله ﷻ حُسْنَ الجزاءِ على هذا الفعل، وقد تركتُ باقي هذه الوجهةِ البيضاءِ، أرجو أن أرى حُسْنَ الجزاءِ على الصبرِ، فأسْطُرَه فيه إنْ شاء الله تعالى، فإنه قد يعجلُ جزاءَ الصبر وقد يؤخرُه. فإنْ عُجِّلَ؛ سطرتُهُ، وإنْ أُخِّرَ؛ فما أشكُّ في حسن الجزاء لمن خاف مقامَ ربِّه، فإنه «**مَنْ تَرَكَ شيئاً لله عوَّضَهُ الله خيراً منه**».

والله إني ما تركتُه إلا لله تعالى، ويكفيني تركُه ذخيرةً؛ حتى لو قيل لي: أتذكُرُ يوماً آثرتَ اللهَ على هواك؟ قلتُ: يومَ كذا وكذا.

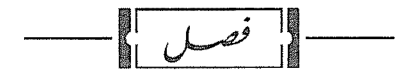
فافتخري أيتها النفسُ بتوفيقِكِ، واحمدي من وفَّقَك، فكم قد خَذَلَ سواكِ. واحذري أن تُخذلي في مِثلِها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) الصادي: العطشان.

وكان هذا في سنة إحدى وستينَ وخمسمائةٍ.

فلما دخلتْ سنةُ خمس وستينَ؛ عُوِّضْتُ خيراً من ذلك بما لا يُقارِبُ مما لا يمنعُ منه ورعٌ ولا غيرُه؛ فقلت: هذا جزاءُ التَّرْكِ لأجل الله سبحانه في الدنيا، ولَأَجْرُ الآخرةِ خيرٌ، والحمدُ لله.



[من آثر شهوته سُلب دينه]

لا أُنْكرُ على من طلبَ لذةَ الدنيا من طريقِ المباح؛ لأنه ليس كلُّ أحدٍ يَقْوى على التَّرْكِ.

إنما المِحْنةُ على مَنْ طَلَبها فلم يجدْها أو أكْثَرَها إلَّا من طريقِ الحرام، فاجتهدَ في تحصيلِها، ولم يُبالِ كيف حَصَلَتْ.

فهذه المحنةُ التي بُخِسَ العقلُ فيها حقَّه، ولم ينتفعْ صاحبُه بوجودهِ لأنَّهُ لو وَزَنَ ما آثَرَ عقابَه؛ طاشتْ كِفَّةُ اللذةِ التي فَنِيَتْ عند أولِ ذرةٍ من جزائِها.

وكم قد رأينا ممن آثرَ شهوتَه فَسَلَبَتْ دينَه.

فلْيعجبِ العاقلُ حين التصفُّح لأحوالِهم؛ كيف آثروا شيئاً ما أقاموا معه، وصاروا إلى عقابٍ لا يفارقُهم.

فاللهَ اللهَ في بخْسِ العقولِ حقَّها، ولينظرِ السالكُ أين يضعُ القدمَ، ولتكنْ عينُ التيقّظ مفتوحةً، فإنَّكم في صفِّ حرْبٍ لا يُدْرَى فيه من أين يُتَلَقَّى النَّبْلُ، فأعينوا أنفسَكم ولا تُعينوا عليها.

فصل

[الطاعة الحقة هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي]

الحقُّ ﷻ أقربُ بِعِلْمِه إلى عبدِهِ مِنْ حَبْل الوريدِ، لكنَّه عامَلَ العبدَ مُعاملةَ الغائبِ عنه البعيدِ منه.

فقلوبُ الجُهَّالِ تستشعرُ البُعدَ، ولذلك تقعُ منهمُ المعاصي؛ إذْ لوْ تحققتْ مراقبتُهم للحاضرِ الناظرِ؛ لكَفُّوا الكفَّ عنِ الخطايا.

والمتيقظونَ عَلِموا قُرْبَهُ؛ فحضرتهُمُ المراقبةُ، وكفَّتْهُم عن الانبساطِ، ولولا نوعُ تغطيةٍ على عينِ المراقبةِ الحقيقيةِ؛ لما انبسطتْ كَفٌّ بأكلٍ ولا قَدَرَتْ عينٌ على نظرٍ.

ومِنْ هذا الجنسِ: «**إنَّهُ لَيُغانُ على قلبي**»[1].

ومتى تحققتِ المراقبةُ؛ حَصَلَ الأُنْسُ.

وإنما يقعُ الأُنْسُ بتحقيقِ الطاعةِ؛ لأنّ المخالفةَ توجبُ الوحشةَ، والموافقةُ مَبْسَطَةُ المستأنسينَ.

فيا لذةَ عيشِ المستأنسينَ، ويا خَسارَ المستوحشينَ.

وليست العبادة والطاعةُ كما يظنُّ أكثرُ الجُهَّالِ أنها مجردُ الصلاةِ والصيام والتخليط بينهما؛ إنَّما الطاعةُ: الموافقةُ بامتثالِ الأمرِ واجتنابِ النَّهْيِ، هذا هو الأصل والقاعدةُ الكُلِّيَّةُ.

فكم من مُتعبدٍ بعيدٌ؛ لأنه مُضيِّعٌ للأصلِ وهادمٌ للقواعدِ بمخالفةِ الأمرِ وارتكابِ النهْي

وإنما المحققُ من أمسك ذؤابةَ[2] ميزانِ المحاسبةِ للنفسِ؛ فأدَّى ما عليه، واجتنبَ ما نُهِيَ عنْه.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**». رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة: باب (١٢) رقم (٢٧٠٢/ ٤١)، وأبو داود (١٥١٥)، وأحمد (٤/ ٢٦٠)، وابن حبان (٩٠٧)، والنسائي في «الْكُبْرَى» (١٠١٧٧ و١٠١٧٨).

(٢) الذُّؤَابةُ: الناصِيةُ، وقيل: الذُّؤَابةُ: مَنْبِتُ الناصيةِ من الرأْس، وذُؤَابةُ الجَبَلِ: أَعلاه.

فصل

[﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾]

نازعتْني نفسي إلى أمر مكروهٍ في الشرع، وجعَلَتْ تَنْصِبُ لي التأويلاتِ وتدفعُ الكراهة، وكانت تأويلاتُها فاسدةً، والحجةُ ظاهرةٌ على الكراهة.

فلجأتُ إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلتُ على القراءةِ، وكان درْسي قد بلغَ إلى سورة يوسفَ، فافتتحتها، وذلك الخاطرُ قد شَغَلَ قلبي حتى لا أدري ما أقرأ.

فلما بلغتُ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] انتبهتُ لها، وكأني خُوطِبتُ بها، فأفقتُ مِنْ تلك السَّكْرَةِ؛ فقلتُ: يا نفسُ أفهمتِ؟ هذا حُرٌّ بيعَ ظُلماً فراعَى حقَّ مَنْ أحسنَ إليه، وسمَّاه مالِكاً؛ وإنْ لم يكنْ له عليه مُلْكٌ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ثمَّ زادَ في بيان موجب كَفِّ كفِّه عما يؤذيه، فقال: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

فكيفَ بكِ، وأنتِ عبدٌ على الحقيقة لمولى ما زال يحسنُ إليك من ساعة وجودكِ، وإنَّ سَتْرَهُ عليكِ الزَّلَلَ أكثرُ من عددِ الحصى.

أفما تذْكرينَ كيف ربَّاكِ، وعلَّمكِ، ورزقكِ، ودافعَ عنكِ، وساقَ الخيرَ إليكِ، وهداكِ أقومَ طريقٍ، ونجَّاك من كلِّ كيدٍ، وسهَّلَ لكِ مداركَ العلوم، وسَتَرَ عن الخلقِ مقابحَكِ، فتلقوْها منكِ بِحُسْنِ الظنِّ، وساقَ رزقَك بلا كُلْفَةِ تكلفٍ ولا كَدَرَ مَنٍّ، رغَداً غيرَ نَزْرٍ؟

فوالله ما أدري أيَّ نعمةٍ عليكِ أشرحُ لك؛ صِحَّةَ الآلات، أمْ سلامةَ المزاج واعتدالَ التركيب، أم إلهامَ الرَّشادِ منذُ الصِّغرِ، أم الحفظَ بحُسنِ الوقاية عن الفواحشِ، أم تحبيبَ طريقِ النقل واتِّباع الأثر من غير جمودٍ على تقليدٍ لمعظم، ولا انخراطٍ في سلكِ مبتدع؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كم كائدٍ نصبَ لكِ المكايدَ فوقاكِ. كمْ عدوٍّ حطَّ منك بالذمِّ فرقَّاكِ. كمْ أعطشَ مِنْ شرابِ الأماني خَلْقاً وسَقاكِ. كم أماتَ مَنْ لم يبلُغْ بعضَ مُرادِكِ وأبقاكِ. فأنتِ تصبحينَ وتُمسينَ سليمةَ البدنِ، محروسةَ الدِّينِ، في تَزيُّدٍ من العلم وبلوغ الأمل.

فإنْ مُنِعْتِ مُراداً؛ فرُزِقْتِ الصبرَ عنه؛ فسلِّمي حتى يقعَ اليقينُ بأنَّ المنْعَ أصلحُ.

ولو ذهبت أعدُّ مِنْ هذه النعم ما سنحَ ذِكْرُهُ؛ امتلأتِ الطُّروسُ(١) ولمْ تنقطعِ الكتابةُ؛ فكيفَ يحسُنُ بك التعرُّضُ لما يكرههُ؟!

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فصل

[اتقاء الشبهات، وقطع أسباب الفتن]

ما رأيتُ أعظمَ فتنةً من مُقاربةِ الفتنةِ، وقلَّ أن يقاربَها إلّا من يقعُ فيها، **«ومنْ حامَ حولَ الحِمى يوشِكُ أنْ يقعَ فيه»**.

قال بعضُ المعتبرينَ: قَدَرْتُ مرّة على لذةٍ ظاهرُها التحريمُ، وتحتملُ الإباحةَ، إذِ الأمرُ فيها مردَّدٌ، فجاهدتُ النفسَ، فقالتْ: أنت ما تقدِرُ؛ فلهذا تترُكُ؛ فقارِبِ المقدورَ عليه، فإذا تمكَّنتَ فتركْتَ؛ كنتَ تاركاً حقيقةً. ففعلتُ وتركتُ. ثم عاودتْ مرةً أخرى في تأويل أرتْني فيه الجَوَازَ؛ وإنْ كان الأمرُ يَحْتَمِلُ، فلما وافقتُها؛ أثَّر ذلك ظلمةً في قلبي. فرأيتُ أنها تارةً تقوى عليَّ بالترخُّص والتأويل، وتارةً أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع، فإذا ترخَّصتُ لمْ آمنْ أن يكونَ ذلك الأمرُ محظوراً، ثم أرى عاجلاً تأثيرَ ذلك الفعل في القلب. فلما لم آمنْ عليها بالتأويل؛ تفكَّرْتُ في قطع طمعِها من ذلك الأمرِ

(١) سَنَح لي رأْيٌ وشِعْرٌ يَسْنَحُ: عَرَض لي أو تيسر. الطِّرْسُ: الصحيفة، ويقال: هي التي مُحِيت ثم كتبت، والجمع: أَطْراس وطُروس.

المؤثِّرِ، فلم أرَ ذلك إلّا بأنْ قلتُ لها: قدِّري أنَّ هذا الأمرَ مباحٌ قطعاً؛ فوالله الذي لا إله إلّا هو لا عُدْتُ إليه! فانقطعَ طمعُها باليمين والمعاهدةِ. وهذا أبلغُ دواءٍ وجدتُه في امتناعِها؛ لأن تأويلَها لا يبلُغُ إلى أن تأمُرَ بالحِنْثِ والتَّكفيرِ.

فأجودُ الأشياءِ قطعُ أسباب الفتن، وتركُ الترخُّص فيما يجوزُ إذا كان حاملاً ومؤدِّياً إلى ما لا يجوزُ. والله الموفق.

فصل

[سكرة الهوى حجاب]

لولا غيبةُ العاصي في وقتِ المعاصي كانَ كالمعانِدِ، غيرَ أنَّ الهوى يحولُ بينَه وبينَ الفهم للحال، فلا يرى إلا قضاءَ شهوتِه؛ وإنما يقصِدُ هواه فيقعُ الخلافُ[1] ضِمْناً وتبَعاً.

وأكثرُ ما يقعُ هذا في مقاربةِ الفتنةِ، وقلَّ من يسلمُ عند المقاربةِ؛ لأنه كتقديم نارٍ إلى حَلْفا[2].

ثم لو ميَّزَ العاقلُ بين قضاءِ وَطَرِهِ لحظةً وانقضاءِ باقي العُمُر بالحسرة على قضاءِ ذلك الوَطَرِ؛ لما قَرُبَ منه ولو أُعطي الدنيا؛ غيرَ أنَّ سكرةَ الهوى تحولُ بين الفِكْرِ وذلكَ.

آهٍ كمْ معصيةٍ مضتْ في ساعتِها كأنَّها لم تكنْ ثمَّ بَقِيتْ آثارُها، وأقلُّها ما لا يبرَحُ من المرارةِ في الندم.

والطريقُ الأعظمُ في الحذرِ أنْ لا يتعرضَ لسببِ فتنةٍ ولا يقارِبَه.

فمنْ فهمَ هذا وبالغَ في الاحترازِ؛ كان إلى السلامةِ أقربَ.

---

(١) أي: المخالفة للأمر والنهي.

(٢) الحلفا: نبات صحراوي.

فصل

[من أصلح سريرته رفع الله قدره]

لقد رأيتُ مَنْ يُكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشَّع في نفسه ولباسِهِ، والقلوبُ تنبوا عنه، وقَدْرُه في النفوس ليس بذاك. ورأيتُ مَنْ يلبسُ فاخرَ الثياب، وليس له كبيرُ نَفْلٍ ولا تخشُّعٍ، والقلوبُ تتهافتُ على محبتِهِ.

فتدبرتُ السببَ؛ فوجدتُه السريرةَ.

فمن أصلحَ سريرتَه فاحَ عبيرُ فضلِهِ، وعبقتِ القلوبُ بنشرِ طيبِه.

فاللهَ اللهَ في السرائرِ؛ فإنه ما ينفعُ مع فسادِها صلاحُ ظاهرٍ.

فصل

[من أسباب تأخر إجابة الدعاء]

نزلتُ في شِدّةٍ، وأكثرتُ منَ الدّعاءِ أطلُبُ الفرجَ والراحةَ، وتأخَّرَتِ الإجابةُ، فانزعجتِ النفسُ وقلقتْ.

فصحتُ بها: ويلكِ، تأمَّلي أمرَكِ. أمملوكةٌ أنتِ أم حرَّة مالكةٌ؟ أمُدَبَّرَةٌ أنت أم مُدَبِّرةٌ؟ أما علمتِ أن الدنيا دار ابتلاءٍ واختبارٍ؛ فإذا طلبتِ أغراضَكِ، ولم تصْبري على ما يُنافي مرادَك فأينَ الابتلاءُ؟ وهلِ الابتلاءُ إلَّا الإعراضُ وعكسُ المقاصدِ؟ فافْهمي معنى التكليفِ؛ وقد هان عليكِ ما عزَّ، وسَهُلَ ما استصعبَ.

فلما تَدَبَّرَتْ ما قلتُهُ؛ سكنتْ بعضَ السُّكونِ.

فقلتُ لها: وعندي جوابٌ ثانٍ، وهو أنك تقتضينَ الحقَّ بأغراضِكِ، ولا تقتضينَ نفسَكِ بالواجبِ له، وهذا عينُ الجهل، وإنما كان ينبغي أن يكونَ الأمرُ بالعكس؛ لأنكِ مملوكةٌ، والمملوكُ العاقلُ يطالبُ نفسَه بأداءِ حقِّ المالك، ويعلمُ أنه لا يجبُ على المالكِ تبليغُه ما يهوى. فسكنتْ أكثرَ من ذلك السكونِ.

فقلتُ لها: وعندي جوابٌ ثالثٌ، وهو أنكِ قدِ استبطأتِ الإجابةَ، وأنتِ سدَدْتِ طُرُقَها بالمعاصي، فلو قد فتحتِ الطريقَ؛ أسْرَعَتْ. كأنكِ ما علمتِ أنَّ سببَ الراحةِ التقوى! أوَ ما سمعتِ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]؟ أوَ ما فهمتِ أنَّ العكسَ بالعكسِ؟ آهٍ من سُكْرِ غفلةٍ صار أقوى من كُلِّ سَكْرٍ في وجه مياهِ المُرادِ، يمنعُها من الوصولِ إلى زرع الأماني.

فَعَرَفَتِ النفسُ أنَّ هذا حقٌّ فاطْمأنَّتْ.

فقلتُ: وعندي جوابٌ رابعٌ، وهو أنَّكِ تطلبينَ ما لا تعلمينَ عاقبتَهُ، وربما كان فيه ضرَرُكِ. فَمَثَلُكِ كَمَثَلِ طفلٍ مريضٍ يطلبُ الحلْوى، والمُدبِّرُ لكِ أعلم بالمصالح، كيفَ وقد قالَ الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلمّا بانَ الصوابُ للنفسِ في هذه الإجابة؛ زادتْ طُمأنينتُها.

فقلتُ لها: وعندي جوابٌ خامسٌ، وهو أنَّ هذا المطلوبَ يَنْقُصُ من أجرِكِ، ويَحُطُّ من مرتبتِكِ، فَمَنْعُ الحقِّ لكِ ما هذا سبيلُه عطاءٌ منه لكِ، ولو أنكِ طلبتِ ما يُصْلِحُ آخرَتَكِ كان أوْلى لكِ. فأولى لكِ أن تفهمي ما قد شرحتُ.

فقالت: لقدْ سَرَحْتُ في رياضِ ما شَرَحْتَ؛ فَهِمْتُ[1] إذْ فَهِمْتُ.



[احذر موافقة الهوى وفعل المعاصي]

تأملتُ وقوعَ المعاصي من العصاةِ فوجدتُهم لا يقصدونَ العصيانَ، وإنما يقصِدونَ موافقةَ هواهم، فوقعَ العصيانُ تَبعاً.

---

(١) الهائم: المتحيِّر.

فنظرتُ في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوعِ المخالفةِ؛ فإذا به ملاحظتُهم لِكَرمِ الخالقِ وفضلِهِ الزاخرِ.

ولو أنَّهم تأمَّلوا عظمَتَهُ وهيْبَتَهُ؛ ما انبسطتْ كفٌّ بمخالفتِهِ؛ فإنَّه ينبغي ـ والله ـ أنْ يَحْذَرَ المُقْدِمُ على الذُّنوب على نفسِهِ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وملاحظةُ أسبابِ الخوفِ أدنى إلى الأمنِ مِنْ ملاحظةِ أسبابِ الرجاء؛ فالخائفُ آخذٌ بالحزْمِ، والراجي متعلِّقٌ بحبل طمعٍ، وقد يُخْلَفُ الظنِّ.

فصل

[العمل لا بد أن يكون على دليل]

مدارُ الأمرِ كلِّه على العقل؛ فإنه إذا تمَّ العقلُ؛ لم يعملْ صاحبُهُ إلّا على أقوى دليل.

وثمرةُ العقل: فهمُ الخطابِ، وتلمُّحُ المقصودِ من الأمرِ.

ومن فَهِمَ المقصودَ، وعَمِلَ على الدليل؛ كان كالباني على أساسٍ وثيقٍ.

وإني رأيت كثيراً من الناس لا يعملونَ على دليلٍ، بل كيفَ اتَّفَقَ، وربما كان دليلُهم العاداتِ، وهذا أقبحُ شيءٍ يكونُ.

ومنْ هذا القبيل في المعنى قومٌ يتعبدونَ ويتزهدونَ ويُنْصِبونَ أبدانَهم في العملِ بأحاديثَ باطلةٍ، ولا يسألونَ عنها من يعلمُ.

فأقول: كنْ مع العلماء، وانْظرْ إلى طريقِ الحسنِ وسفيانَ ومالِكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ والشافعيِّ، وهؤلاء أصولُ الإسلام، ولا تُقلدْ دينكَ من قلَّ عِلْمُه وإنْ قَويَ زُهْدُه.

فصل

[عاقبة الصبر ونهاية الهوى]

قرأتُ سورةَ يوسفَ ﷺ؛ فتعجبتُ من مدحهِ ﷺ على صبرِهِ، وشرح قصتِهِ للناسِ، ورفع قدْرِهِ بترْكِ ما ترَكَ.

فتأملتُ خبيئةَ الأمرِ؛ فإذا هي مخالفةُ الهوى المكروه.

فقلت: وا عجباً! لو وافقَ هواهُ؛ مَنْ كانَ يكونُ؟ ولمَّا خالفَهُ؛ لقد صار أمراً عظيماً تُضربُ الأمثالُ بعفّته وصبرِهِ.

فيا له عِزّاً وفخراً، أنْ تَمْلِكَ نفسَكَ عن المحبوبِ وهو قريبٌ.

فتلمّحوا ـ رحمَكُم الله ـ عاقبةَ الصبرِ، فإنَّ مَنْ عَدَلَ ميزانُه، ولم تَمِلْ به كِفَّةُ الهوى؛ رأى كلَّ الأرباح في الصبرِ، وكلَّ الخسرانِ في موافقةِ النفسِ. وكفى بهذا موعظةً في مخالفة الهوى لأهل النُّهى. والله الموفق.

فصل

[لا بد من قراءة كتب الرقائق لإصلاح القلوب]

رأيتُ الاشتغالَ بالفقهِ وسماعِ الحديثِ لا يكادُ يكفي في صلاح القلب، إلّا أنْ يُمْزَجَ بالرقائِقِ والنظرِ في سِيَرِ السلفِ الصالحينَ، فأما مجرّدُ العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترقُّ القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين؛ لأنّهم تناولوا مقصودَ النَّقل، وخرجوا عن صُورِ الأفعال المأمورِ بها إلى ذَوْقِ معانيها والمرادِ بها.

وما أخبرتُك بهذا إلا بعدَ معالجةٍ وذوْقٍ؛ لأني وجدتُ جمهور المحدثينَ وطلّابَ الحديثِ هِمَّةُ أحدِهِم في الحديثِ العالي وتكثيرِ الأجزاءِ... وجمهورَ الفقهاءِ في علوم الجَدَلِ وما يُغالَبُ به الخصمُ... وكيفَ يَرِقُّ القلبُ مع هذه الأشياء؟

وقد كان جماعةٌ من السلفِ يقصِدونَ العبدَ الصالح للنظرِ إلى سَمْتِهِ وهَدْيِهِ لا لاقتباسِ علمِهِ، وذلك أنَّ ثمرةَ علمِهِ هديُه وسمتُه.

فافهم هذا، وامزجْ طَلَبَ الفقهِ والحديثِ بمطالعةِ سِيَرِ السلف والزُّهادِ في الدنيا، ليكونَ سبباً لِرِقَّةِ قلبِك.

فصل

[السلامة في الورع]

ترخَّصْتُ في شيءٍ يجوزُ في بعض المذاهب، فوجدتُ في قلبي قسوةً عظيمةً، وتخايَلَ لي نوعُ طردٍ عن البابِ وبُعْدٌ وظلمةٌ تكاثفتْ.

فقالت نفسي: ما هذا؟ أليسَ ما خرجتَ عن إجماع الفقهاءِ؟

فقلت لها: يا نفسَ السَّوْء، جوابُك من وجهينِ:

أحدُهما: أنك تأوَّلْتِ ما لا تعتقدينَ، فلو استُفْتيتِ لم تُفْتِ بما فعلْتِ. قالتْ: لو لم أعتقدْ جوازَ ذلك ما فعلتُهُ. قلتُ: إلّا أنَّ اعتقادَكِ ما تَرْضَيْنَهُ لغيرِك في الفتوى.

والثاني: أنه ينبغي لكِ الفرحُ بما وَجَدْتِ من الظُّلْمةِ عقيبَ ذلك؛ لأنه لولا نورٌ في قلبِكِ ما أثَّر مِثْلُ هذا عندكِ.

قالت: فلقد استوحشتُ بهذه الظلمةِ المتجددةِ في القلب.

قلت: فاعزِمي على التَّرْكِ، وقدِّري ما تركتِ جائزاً بالإجماع، وعُدِّي هَجْرَهُ وَرَعاً، وقد سلمتِ.

فصل

[لا تظاهر بالعداوة أحداً، فكم من مُحتقر احتيج إليه]

مما أفادتْني تجاربُ الزمانِ أنه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يُظاهِرَ بالعداوةِ أحداً ما استطاعَ؛ فإنه ربما يحتاجُ إليه، مهما كانت منزلتُهُ.

وإنّ الإنسانَ ربَّما لا يظنُّ الحاجةَ إلى مثلِهِ يوماً ما؛ كما لا يحتاجُ إلى عُوَيْدٍ منبوذٍ لا يُلْتَفَتُ إليه. لكنْ كمْ من مُحْتَقَرٍ احتيجَ إليه! فإذا لم تقع الحاجةُ إلى ذلك الشخص في جَلْبِ نفع؛ وقعتِ الحاجةُ في دفْع ضُرٍّ.

ولقدِ احْتَجْتُ في عُمُري إلى ملاطفةِ أقوام ما خَطَرَ لي قطُّ وقوعُ الحاجةِ إلى التلطُّفِ بهم.

واعلمْ أنَّ المظاهرةَ بالعداوةِ قد تجلِبُ أذىً من حيثُ لا يعلمُ؛ لأنَّ المُظاهِرَ بالعداوة كشاهِرِ السيفِ ينتظرُ مَضْرِباً، وقد يلوحُ منه مَضْرِبٌ خَفِيٌّ، وإنِ اجتهدَ المتدرّعُ في سَتْرِ نفسِه، فيغتنمُهُ ذلك العدوُّ.

فينبغي لمن عاشَ في الدنيا أنْ يجتهدَ في أنْ لا يُظاهِرَ بالعداوةِ أحداً؛ لما بيَّنْتُ من وقوع احتياج الخلْقِ بعضِهم إلى بعض، وإقدارِ بعضِهم على ضررِ بعضٍ. وهذا فصلٌ مفيدٌ تَبينُ فائدتُه للإنسان مع تقلُّب الزمانِ.

فصل

[لذّات الدنيا مشوبة بالآفات والمنغّصات]

رأيتُ النفسَ تنظُرُ إلى لَذَّاتِ أربابِ الدنيا العاجلةِ، وتنسى كيفَ حُصِّلَتْ وما يتضمنُها من الآفاتِ.

وبيان هذا: أنَّك إن رأيتَ صاحبَ إمارةٍ وسلطنةٍ، فتأملتَ نعمتَه؛ وجدْتَها مشوبةً بالظلم، فإنْ لم يقصدْه هو؛ حَصَلَ من عُمَّالِهِ. ثم هو خائفٌ منزعجٌ في كلِّ أمورِهِ، حَذِرٌ من عَدُوٍّ أنْ يَسُمَّهُ، قَلِقٌ ممنْ هُو فوقَه أنْ يعزلَهُ، ومِنْ نظيرِهِ أن يكيدَهُ، ثم أكثرُ زمانِه يمضي في خدمةِ من يخافُه من السلاطينِ، وفي حسابِ أموالِهم، وتنفيذِ أوامرِهم التي لا تخلو مِنْ أشياءَ مُنْكَرَةٍ. وإنْ عُزِلَ؛ أرْبى ذلك على جميع ما نالَ من لَذَّةٍ. ثم تلكَ اللذةُ تكونُ مغمورةً بالحَذَرِ فيها ومنها وعليها.

وإن رأيتَ صاحبَ تجارةٍ؛ رأيتَهُ قدْ تقطَّعَ في البلادِ، فلم ينلْ ما نالَ إلّا بعد عُلُوِّ السِّنِّ، وذَهابِ زمانِ اللذةِ.

وهذه الحالةُ هي الغالبةُ؛ فإن الإنسانَ لا يكادُ يجتمعُ له كلُّ ما يُحِبُّهُ إلّا عند قُرْبِ رحيلِه.

ثم إنَّ صاحبَ المالِ خائفٌ على مالِهِ، مُحاسِبٌ لِمُعامليهِ، مذمومٌ إنْ أسرَفَ وإنْ قتَّرَ.

وَلدُهُ يرصُدُ موتَه، وجاريتُه قد لا ترضى بشخصهِ، وهو مشغولٌ بحفظِ حواشيهِ[1]؛ فقد مضى زمانُهُ في مِحَنٍ، واللّذاتُ فيها خِلَسٌ مُعتادةٌ لا لذَّةَ فيها.

ثم في القيامةِ يُحْشَرُ الأميرُ والتاجرُ خزايا إلّا من عصم اللهُ.

فإياك أن تنظرَ إلى صورةِ نعيمِهم؛ فإنك تستطيبهُ لبُعْدِهِ عنكَ، ولو قدْ بلغْتَهُ كَرِهْتَه، ثم في ضِمنِه من مِحَنِ الدنيا والآخرة ما لا يُوصَفُ. فعليك بالقناعةِ مهما أمكنَ؛ ففيها سلامةُ الدنيا والدينِ.

وقد قيل لبعضِ الزُّهاد وعندَه خبزٌ يابسٌ: كيف تشتهي هذا؟ فقال: أترُكُهُ حتى أشتهيه.

فصل

[السعيد من ذلّ لله وسأله العافية]

رُوِيَ عن أحد الصُّوفية أنه كان يقعُدُ في الشمس في الحَرِّ الشديدِ وعرقُهُ يسيل، فجازَ به بعضُ العقلاءِ فقال له: يا أحمقُ! هذا تقاوٍ على الله تعالى.

وما أحسنَ ما قالَ هذا، فإنه ما وَضَعَ التكليفَ إلّا على خلافِ الأغراضِ، وقد يُحْرَجُ صاحبُه إلى أنْ يَعْجِزَ عن الصبرِ.

فالجاهلُ الأحمقُ من تقاوَى، أوْ من يسألُ البلاءَ؛ كما قال أحدهم: فكيفما شئتَ فاخْتبرني.

---

(١) حاشية الرجل: أي أهله وخاصَّته.

والسعيدُ من ذلَّ للهِ وسألَ العافيةَ؛ فإنه لا يُوهبُ العافيةُ على الإطلاق؛ إذْ لا بُدَّ من بلاءٍ، ولا يزالُ العاقلُ يسألُ العافيةَ؛ لِتَغْلِبَ على جمهورِ أحوالِه، فَيَقْرُبَ الصبرُ على يسيرِ البلاء.

وفي الجملةِ؛ ينبغي للإنسان أن يعلمَ أنه لا سبيلَ إلى محبوباتِه خالصةً؛ ففي كلِّ جُرْعَةٍ غُصصٌ، وفي كلِّ لُقمةٍ شجاً[1]:

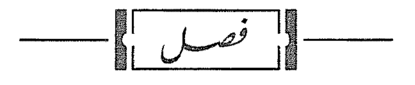
وكَمْ مَنْ يَعْشَقُ الدُّنيا قَدِيماً ... ولكِنْ لا سبيلَ إلى الْوِصالِ

وعلى الحقيقةِ ما الصبرُ إلَّا على الأقدارِ، وقلَّ أنْ تجريَ الأقدارُ إلَّا على خلاف مُرادِ النَّفْسِ.

فالعاقلُ منْ دارى نفسَه في الصبرِ بِوَعْدِ الأجْرِ وتسهيلِ الأمْرِ؛ ليذهبَ زمانُ البلاءِ سالماً مِنْ شَكْوى، ثم يستغيثُ بالله تعالى سائلاً العافيةَ.

فأمّا المُتَجَلِّدُ فما عَرَفَ سُنَنَ اللهِ.

نعوذ بالله من الجهل به، ونسأله عِرْفانَهُ؛ إنه كريمٌ مجيبٌ.



[بين العلم والعبادة]

الجادّةُ السليمةُ والطريقُ القويمةُ: الاقتداءُ بصاحبِ الشَّرْع، والبِدارُ إلى الاستنانِ به؛ فهو المعصومُ الذي لا نقصَ فيه.

فإنَّ خَلْقاً كثيراً انْحرفوا إلى جادةِ الزُّهدِ، وحمَّلوا أنفسَهم فوقَ الجُهْدِ، فأفاقوا في أواخرِ العُمُر، والبَدَنُ قد نُهِكَ، وفاتتْ أمورٌ مهمةٌ من العلم وغيره.

وإنَّ أقواماً انحرفوا إلى صورةِ العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر العمر؛ وقد فاتهُمُ العمل به.

---

(١) الشَّجَا: ما يَنْشَبُ في الحلق من عظْم وغيره.

فطريقُ المصطفى ﷺ العلمُ والعملُ والتلطفُ بالبدن؛ فهذه هي الطريق الوسطى.

فأما اليُبْسُ المجردُ فكم فوَّتَ من عِلْم لو حصل؛ نيل به أكثرُ مما نيلَ بالعمل.

وأعني بالعلم فهمَ أصول العلم، لا كثرةَ الروايةِ ومطالعةِ مسائلِ الخلافِ.

ومن تأمّل حالةَ الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً من الخَلْقِ، يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ: فتارة يمزحُ، ويداعبُ الأطفالَ، ويسمعُ الشِّعْرَ، ويُحسنُ معاشرةَ النساء، ويأكلُ ما أُتيحَ له وإنْ كان لذيذاً كالعسل، ويُسْتَعْذَبُ له الماءُ، ولمْ يُسْمَعْ عنه بمثل ما حدثَ بعدَه من المتصوفةِ وجُهال المتزهدينَ مِنْ مَنْعِ النفسِ شهواتِها على الإطلاق.

فقد كان يأكلُ البطيخَ بالرُّطَبِ، ويُقَبِّلُ، ويطلُبُ المستحسناتِ.

فأما تجفيفُ البدن، وهجرُ كلِّ مشتهى؛ فإنه تعذيبٌ للنفسِ، وهدمٌ للبدن، لا يقتضيه عقلٌ، ولا يمدحُهُ شرعٌ.

ثم كان النبيُّ ﷺ يُوفي العبادةَ حقها بقيام الليل والاجتهادِ في الذِّكْر.

فعليك بطريقته التي هي أكملُ الطُّرُقِ، وبِشِرْعَتِهِ التي لا شَوبَ فيها، ودعْ حديثَ فلانٍ وفلانٍ من الزهاد، فهم محجوجون بفعلِه ﷺ؛ إذْ هو قدوةُ الخلْقِ وسيدُ العقلاءِ؛ وهل فَسَدَ الناسُ إلا بالانحرافِ عن الشريعةِ؟

ولقد حدثتْ آفاتٌ من المتصوفةِ والمتزهدين خَرَقوا بها شبكةَ الشريعةِ وعَبَروا:

فمنهم من يدّعي المحبة والشوق؛ فتراه يصيحُ ويمزِّقُ ثيابه، ويخرُجُ عن حدِّ الشرع بدعواه ومضمونِها!

ومنهم مَنْ حَمَلَ على نفسه بالجوع والصوم الدائم.

وفيهم من خرج إلى السياحةِ؛ فأَفَاتَ نفسَهُ الجماعة.

وفيهم من دفنَ كُتُبَ العلم.

وإنما دخلَ إبليسُ على كلِّ قومٍ منهم من حيثُ قَدَرَ، وكان مقصودُهُ بدفنِ الكتُبِ إطفاءُ المصباح؛ ليسيرَ العابدُ في الظُّلْمَةِ.

أتَرَى كم بينَ العابدِ إذا نزلتْ به حادثةٌ وبين الفقيهِ؟

بالله؛ لو مالَ الخلقُ إلى التعبُّدِ؛ لضاعتِ الشريعةُ.

على أنه لو فَهِمَ معنى التعبُّدِ لم يقتصر به على الصلاة والصوم! فرُب ماشٍ في حاجةِ مسلمٍ فَضَلَ تعبُّدُه ذلك على صوم سنةٍ.

فإنْ قلتَ: كيف تذمُّ المعتزلينَ للشرِّ، وتنفي عنهم التعبُّدَ؟

قلت: ما أذمُّهم، بل حَدَثَتْ منهم حوادثُ اقتضاها الجهلُ من الدعاوَى والآفاتِ التي سببُها قلةُ العلم؛ حتى إنّ أحدَهم يرى أنَّ فعلَ ما يؤذي النفسَ فضيلةٌ!

ومن المتصوفةِ والزهادِ من قَنَعَ بصورةِ اللباس، ورَكِبَ من الجهل في الباطنِ ما لا يسعُهُ كتابٌ!

طهَّرَ اللهُ الأرضَ منهم، وأعانَ العلماءَ عليهم؛ فإنّ أكثرَ الحمقى معهُم، فلوْ أنكرَ عالمٌ على أحدِهِم؛ مال العوَامُّ على العالِمِ بقوةِ الجهل.

ولقد رأيتُ كثيراً من المتعبدينَ ـ وهو في مقام العجائز ـ يسبِّحُ تسبيحاتٍ لا يجوزُ النُّطْقُ بها، ويفعلُ في صلاته ما لم تردْ به السُّنَّةُ.

وكلُّ هذه الحوادثِ نشأتْ قليلاً قليلاً حتى تمكَّنَتْ، فأمّا الشَّرْبُ الأول؛ فلم يكنْ فيه من هذا شيءٌ، وما كانتِ الصحابةُ تفعلُ شيئاً من هذه الأشياء.

فمن أراد الاقتداءَ؛ فعليه برسولِ الله ﷺ وأصحابه؛ ففي ذلك الشفاءُ والمطلوبُ. واللهُ الموَفِّقُ.

فصل

[الفلسفة والرهبانية أصلا البدع التي ظهرت في الإسلام]

تأملتُ الدَّخَلَ الذي دَخَلَ في ديننا من ناحيتي العلم والعمل؛ فرأيتُه من طريقينِ قد تقدَّما هذا الدينَ، وأنِسَ الناسُ بِهما:

فأمّا أصلُ الدَّخَلِ في العلمِ والاعتقادِ؛ فَمِنَ الفلسفةِ: وهو أنَّ خلْقاً من العلماء لم يقنعوا بما قَنَعَ به رسولُ الله ﷺ مِنَ الانعكاف على الكتاب والسُّنَّةِ، فأوْغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفةِ، وخاضوا في الكلام الذي حمَلَهُم على مذاهِبَ رَدِيَّةٍ أفسدوا بها العقائدَ.

وأما أصلُ الدَّخَلِ في باب العَمَلِ؛ فمنَ الرهبانيَّة: فإنَّ خلقاً من المتزهدين أخذوا عن الرُّهبان طريقَ التقشُّفِ، ولم ينظروا في سيرةِ نبينا ﷺ وأصحابِه، وسمعوا ذَمَّ الدنيا وما فهموا المقصودَ، فاجتَمَعَ لهم الإعراضُ عن علم شَرْعِنا مع سوءِ الفهم للمقصودِ، فحدثتْ منهم بدعٌ قبيحةٌ.

فأولُ ما ابتدأَ به إبليسُ أنَّه أمرهم بالإعراض عن العِلْم، فدفنوا كتبَهم وغَسَلوها، وألزمَهُم زاويةَ التعبُّدِ فيما زَعَمَ، وأظهرَ لهم من الخُزَعْبلات ما أوجبَ إقبالَ العوامِّ عليهم، فَجَعَلَ إلٰهَهُم هواهُم، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كُتُبَهم وفارقوا العلمَ انطفأ مصباحُهم؛ ما فعلوا، لكنَّ إبليسَ كان دقيقَ المَكْرِ يومَ جعلَ عِلْمَهُمْ في دفينٍ تحت الأرضِ!

وبالعلم يُعْلَمُ فسادُ الطريقينِ ويُهْتدَى إلى الأصْوبِ.

نسأل الله ﷻ أنْ لا يحرمْنا إياهُ؛ فإنه النورُ في الظُّلَم، والأنيسُ في الوَحْدَةِ، والوزيرُ عند الحادثة.

فصل

[صحبة أهل الفراغ والغفلة بلاء]

أعوذُ بالله مِنْ صُحْبَةِ البطَّالينَ.

لقد رأيتُ خَلْقاً كثيراً يَجْرونَ معي فيما قَدِ اعتادَهُ الناسُ مِنْ كثرةِ الزيارةِ، ويسمُّونَ ذلك الترددَ خِدْمَةً، ويطلبون الجلوسَ، ويُجْرونَ فيه أحاديثَ الناسِ وما لا يَعْني وما يتخلَّلُه غيبةٌ!

وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس، وربَّما طَلَبَهُ المَزورُ وتشوَّقَ إليه، واسْتوحشَ من الوِحْدَةِ.

فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعضٍ، ولا يقتصرونَ على الهناءِ والسلام، بل يَمْزُجون ذلك بما ذكرتُهُ من تضييع الزمانِ.

فلما رأيتُ أنَّ الزمان أشرفُ شيءٍ، والواجبُ انتهابه بفعل الخيرِ؛ كرهتُ ذلك، وبقيتُ معهم بين أمرينِ: إنْ أنكرتُ عليهم؛ وَقَعَتْ وحشةٌ؛ لموضع قَطْع المألوف، وإن تقبلتُه منهم؛ ضاعَ الزمان.

فصرتُ أدافعُ اللقاءَ جَهْدي، فإذا غُلِبْتُ؛ قَصَرْتُ في الكلام لأتعجَّلَ الفراقَ.

ثم أعددتُ أعمالاً تمنعُ مِنَ المحادثةِ لأوقاتِ لقائِهم لئلَّا يمضيَ الزمانُ فارغاً، فجعلتُ من المُسْتَعَدِّ للقائهم: قطعَ الكاغد[1]، وبَرْيَ الأقلام، وحَزْمَ الدفاترِ، فإنّ هذه الأشياء لا بدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فِكْرٍ وحضورِ قلب، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتِهم لئلّا يضيعَ شيءٌ مِنْ وقتي.

نسألُ اللهَ ﷻ أنْ يُعَرِّفَنا شَرَفَ أوقاتِ العُمُر، وأنْ يوفقنا لاغتنامِهِ.

ولقد شاهدتُ خلقاً كثيراً لا يعرفونَ معنى الحياة: فمنهم مَنْ أغناهُ اللهُ

---

(١) الكاغد: القرطاس، معرّب.

عن التكسُّبِ بكثرةِ مالِهِ؛ فهو يقعدُ في السوق أكثرَ النهارِ ينظُرُ إلى الناس، وكَمْ تمرُّ به من آفةٍ ومُنْكرٍ! ومِنْهُم من يَخْلو بِلَعِبِ الشطرنجِ! ومنهم من يقطعُ الزمانَ بكثرةِ الحوادثِ من السلاطينِ والغلاءِ والرُّخْصِ... إلى غير ذلك.

فعلمتُ أنَّ اللهَ تعالى لم يُطْلِعْ على شَرَفِ العُمُرِ ومعرفةِ قَدْرِ أوقاتِ العافيةِ إلّا مَنْ وفَّقَهُ وألْهمهُ اغتنامَ ذلكَ. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

فصل

[من كمال لذة العالِم غناه عن الناس وقلّة مخالطتهم]

ما أعرفُ للعالِمِ قطُّ لَذَّةً ولا عِزّاً ولا شَرَفاً ولا راحةً ولا سلامةً أفضلَ من العُزلةِ، فإنه ينالُ بها سلامةَ بدنِهِ ودينِهِ وجاهِهِ عندَ الله ﷻ وعندَ الخَلْقِ؛ لأنّ الخَلْقَ يَهونُ عليهم مَنْ يُخالِطُهم، ولا يَعْظُمُ عندهم قَدْرُ المخالِطِ لهم، ولهذا عَظُمَ قَدْرُ الخلفاءِ لاحتجابِهِم.

وإذا رأى العوامُّ أحدَ العلماءِ مترخِّصاً في أمرٍ مباحٍ؛ هانَ عندَهم.

فالواجبُ عليه صيانةُ عِلْمِهِ وإقامةُ قَدْرِ العلم عندَهم.

فقدْ قال بعضُ السَّلَفِ: كُنَّا نَمْزَحُ ونضحكُ، فإذا صِرْنا يُقتدى بنا فما أراه يسعُنا ذلك.

وقال سفيانُ الثوريُّ: تعلَّموا هذا العلمَ، واكْظِموا عليه، ولا تخلِطوه بهزْلٍ فتمُجُّهُ القلوبُ.

فمراعاةُ الناس لا ينبغي أنْ تُنْكَرَ.

ولا تسمعْ من جاهلٍ يرى مثلَ هذه الأشياء رياءً، إنما هي صيانةٌ للعِلم.

وبيانُ هذا أنّه لو خرج العالِمُ إلى الناس مكشوفَ الرأسِ أو في يدِهِ

كِسْرَةٌ يأكُلُها؛ قلَّ عندَهم وإنْ كان مباحاً، فيصيرُ بمثابةِ تخليطِ الطبيبِ الآمِرِ بالحِميَةِ.

فلا ينبغي للعالِم أن ينبسطَ عند العوام؛ حِفْظاً لهم، ومتى أراد مُباحاً؛ فليستتِرْ به عنهم؛ فالصور تُلاحظ، فإنَّ الإنسانَ يخلو في بيته متبذِّلاً؛ فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين وعمامةً ورداءً.

ومثلُ هذا لا يكون تصنعاً، ولا ينسب إلى كبر.

ولا تلتفتْ إلى ما ترى مِنْ بَذْلِ العلماء على أبواب السلاطين، فإن العُزلَةَ أصونُ للعالِم والعلم، وما يخسرُهُ العلماءُ في ذلك أضعافُ ما يربحونَه.

فإنْ أردتَ اللذةَ والراحةَ؛ فعليكَ أيُّها العالم بقعر[1] بيتك، وكنْ معتزلاً عن أهلك، يَطِبْ لك عيشُك، واجْعل للقاءِ الأهل وقتاً، فإذا عرفوهُ؛ تصنَّعوا للقائك، فكانتِ المعاشرةُ بذلك أجودَ.

وليكن لك مكانٌ في بيتكَ تخلو فيه، وتحادثُ سطورَ كُتُبِكَ، وتجري في حلبات فكرِك.

واحترسْ من مخالطة الخلقِ وخصوصاً العوامَّ.

واجتهدْ في كسبٍ يُعِفُّكَ عن الطمع؛ فهذه نهايةُ لذة العالِم في الدنيا.

وقد قيلَ لابنِ المباركِ: ما لَك لا تجالسُنا؟ فقال: أنا أذهبُ فأجالسُ الصحابةَ والتابعينَ. وأشارَ بذلك إلى أنه ينظُرُ في كتبه.

ومتى رُزِقَ العالِمُ الغنى عن الناس والخلْوةَ؛ فإنْ كان له فهْمٌ يجلبُ التصانيفَ فقد تكاملتْ لذتهُ، وإنْ رُزقَ فَهْماً يرتقي إلى معاملةِ الحقِّ سبحانه ومناجاتِه؛ فقدْ تعجَّلَ دخولَ الجنةِ قبل المماتِ.

نسألُ اللهَ ﷻ هِمّةً عاليةً تسمو إلى الكمال، وتوفيقاً لصالح الأعمالِ؛ فالسالكونَ طريقَ الحقِّ أفرادٌ.

---

(١) قعر كل شيءٍ: أقصاه.

فصل

[حديث ابن الجوزي عن نفسه]

تأملتُ أحوالَ الناسِ في حالة عُلُوِّ شأنِهم؛ فرأيتُ أكثرَ الخلقِ تَبينُ خسارتُهم حينئذٍ.

فمنهُم من بالَغَ في المعاصي مِن الشبابِ، ومنهُم من فرَّطَ في اكتسابِ العلم، ومنهُم من أكثَرَ من الاستمتاع باللَّذاتِ... فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكِبَرِ حين فواتِ الاستدراكِ لذنوبٍ سَلَفَتْ، أوْ قُوىً ضَعُفَتْ، أو فضيلةٍ فاتتْ، فَيَمْضي زمانُ الكِبَرِ في حسراتٍ؛ فإنْ كانتْ للشيخ إفاقةٌ من ذُنوبٍ قَدْ سَلَفَتْ؛ قال: وا أسفاً على ما جنيتُ! وإنْ لمْ يكنْ له إفاقةٌ؛ صارَ مُتأسِّفاً على فواتِ ما كانَ يلتذُّ بهِ.

فأمّا من أنفقَ عصرَ الشبابِ في العلم؛ فإنه في زمنِ الشيخوخةِ يَحْمَدُ جَنْيَ ما غَرَسَ، ويلتذُّ بتصنيفِ ما جَمَعَ، ولا يرى ما يَفْقِدُ من لذّاتِ البدنِ شيئاً بالإضافةِ إلى ما ينالُهُ من لذاتِ العلم.

ولقد تأملتُ نفسي بالإضافةِ إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهُم في اكتسابِ الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبْوةِ والشبابِ في طلبِ العلم، فرأيتُني لم يَفُتْني مما نالوهُ إلّا ما لو حَصَلَ لي؛ ندمتُ عليه.

ثم تأملت حالي؛ فإذا عَيْشي في الدنيا أجودُ من عيشِهِم، وجاهي بينَ الناسِ أعلى من جاهِهِم، وما نلتُهُ من معرفةِ العلم لا يقاوَمُ.

فقال لي إبليسُ: ونسيتَ تعبكَ وسَهَرَكَ؟!

فقلتُ له: أيها الجاهلُ! تقطيعُ الأيدي لا وَقْعَ له عند رؤيةِ يوسُفَ، وما طالتْ طريقٌ أدَّتْ إلى صديقٍ.

ولقدْ كنتُ في حلاوةِ طلبي العلمَ ألْقَى من الشدائدِ ما هُو عندي أحلى من العسل لأجلِ ما أطلُبُ وأرجو.

كنتُ في زمانِ الصِّبا آخُذُ معي أرغفةً يابسةً، فأخرُجُ في طلب الحديث، وأقعدُ على نهر عيسى، فلا أقدِرُ على أكلِها إلّا عند الماءِ، فكلّما أكلتُ لُقمةً؛ شرِبْتُ عليها، وعينُ هِمَّتي لا ترى إلّا لَذَّةَ تحصيل العلم.

فأثْمَرَ ذلك عندي أني عُرِفْتُ بكثرةِ سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحوالِه وآدابِه وأحوالِ أصحابِه وتابعيهم.

وأثْمَرَ ذلك عندي من المعاملةِ ما لا يُدرك بالعلم؛ حتى إنني أذكُرُ في زمان الصَّبْوةِ ووقتِ الغُلْمَةِ والعُزْبَةِ قُدرتي على أشياء كانتِ النَّفْسُ تتوقُ إليها تَوَقانَ العطشانِ إلى الماء الزُّلال، ولم يَمْنَعْني عنها إلّا ما أثْمَرَ عندي العلمُ مِنْ خوفِ الله ﷻ، ولولا خَطايا لا يخلو منها البشرُ؛ لقدْ كنتُ أخافُ على نفسي من العُجْبِ.

غيرَ أنّه ﷻ صانني وعلّمَني وأطْلعَني من أسرارِ العلم على معرفَتِه وإيثارِ الخلْوةِ به، حتى إنه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبِشْرٌ؛ لرأيتُهما زَحْمَةً.

ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط؛ حتى رأيتُ أقلَّ الناس خيراً مِنِّي. وتارةً يوقِظُني لِقيام الليل ولَذَّةِ مناجاتِه، وتارةً يَحْرِمُني ذلك مع سلامةِ بَدَني.

ولولا بِشارةُ العلم بأنّ هذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ؛ لخرجتُ إمّا إلى العُجْبِ عند العمل، وإما إلى اليأسِ عند البطالةِ.

لكنَّ رجائي في فضلِهِ قد عادَلَ خوفي منه.

وقد يَغْلِبُ الرجاءُ بقوة أسبابِهِ؛ لأني رأيتُ أنه قد ربَّاني منذُ كنتُ طِفلاً؛ فإنَّ أبي مات وأنا لا أعقِلُ. فَرَكَزَ في طبعي حبَّ العلم، وما زالَ يوقِعُني على المهمِّ فالمهمِّ، ويَحْمِلُني إلى مَنْ يَحْمِلُني على الأصوب؛ حتّى قوَّمَ أمري.

وكمْ قد قصدني عدُوٌّ فصدَّهُ عنِّي. وإذ رأيتُهُ قد نَصَرني وبصَّرني ودافَعَ عنِّي ووهب لي؛ قَوِيَ رجائي في المستقبل بما قد رأيتُ في الماضي.

ولقدْ تاب على يدي في مجالسِ الذِّكْرِ أكثرُ من مائتي ألفٍ، وأسْلَمَ على

يدي أكثرُ من مائتي نفسٍ، وكمْ سالتْ عينُ مُتَجَبِّرٍ بوعْظي لم تكنْ تسيلُ... ويحقُّ لمنْ تلمَّحَ هذا الإنعامَ أنْ يرجوَ التمامَ.

وربما لاحتْ أسبابُ الخوفِ بنظري إلى تقصيري وزَلَلي.

ولقد جلستُ يوماً فرأيتُ حولي أكثرَ من عشرةَ آلافٍ، ما فيهم إلّا مَنْ قدْ رقَّ قلبُه، أو دَمَعَتْ عينُه، فقلتُ لنفسي: كيف بِكِ إنْ نَجَوْا وهلكْتِ؟ فصِحْتُ بلسانِ وَجْدي: إلهي حاشاكَ واللهِ يا ربِّ من تَكْديرِ الصَّافي: فـ: «حاشا لِباني الجُودِ أنْ يَنْقُضا».

فصل

[هِمّة خاسرة]

لقد رأيتُ أقواماً يصفونَ علوَّ هِمَمِهِم، فتأملتُها، فإذا بها في فنٍّ واحدٍ، ولا يبالونَ بالنقصِ فيما هو أهمُّ، قال الرَّضِيُّ:

وَلِكُلِّ جِسمٍ في النُّحولِ بليَّةٌ ... وبَلاءُ جسمي مِنْ تَفاوُتِ هِمَّتي

فنظرتُ؛ فإذا غايةُ أمَلِهِ الإمارة!

وكان أبو مسلم الخراسانيُّ في حال شبيبتِهِ لا يكادُ ينامُ، فقيلَ له في ذلك؟ فقال: ذِهْنٌ صافٍ، وهمٌّ بعيدٌ، ونفسٌ تتوقُ إلى معالي الأمور؛ مع عيشٍ كعيشِ الهَمَجِ الرِّعاع! قيل: فما الذي يُبْرِدُ غليلَكَ؟ قالَ: الظَّفَرُ بالمُلْكِ. قيل: فاطْلُبْهُ. قال: لا يُطْلَبُ إلّا بالأهوال. قيل: فارْكب الأهوالَ. قال: العقلُ مانعٌ. قيل: فما تصنعُ؟ قال: سأجعلُ من عقلي جَهْلاً، وأحاوِلُ به خَطَراً لا يُنالُ إلّا بالجهل، وأدبِّرُ بالعقلِ ما لا يُحفظُ إلا به؛ فإنَّ الخمولَ أخو العدم.

فنظرتُ إلى حال هذا المسكينِ؛ فإذا هو قد ضيَّعَ أهمَّ المُهمَّاتِ وهو جانبُ الآخرةِ، وانتصبَ في طلبِ الولاياتِ. فَكَمْ فَتَكَ وقَتَلَ حتّى نالَ بعضَ مُرادِهِ من لذَّات الدُّنيا! ثم لم يتنعَّمْ في ذلك غيرَ ثمانِ سنينَ، ثم اغْتيلَ، وَنَسِيَ تدبيرَ العقل، فقُتِلَ ومضى إلى الآخرة على أقبح حالٍ.

وكان المتنبِّي يقول:

وفي الناس مَنْ يَرْضى بميسورِ عَيْشِهِ ... ومركوبُهُ رِجْلاهُ والثوبُ جِلْدُهُ
ولكنَّ قلباً ـ بين جنبيَّ ـ ما لَهُ ... مَدىً ينتهي بي في مُرادٍ أحُدُّهُ
يرى جسمَهُ يُكْسَى شُفوفاً تَرُبُّهُ ... فيختارُ أنْ يُكْسَى دُروعاً تهدُّهُ

فتأملتُ هذا الآخِرِ؛ فإذا نَهْمَتُه فيما يتعلقُ بالدنيا فحسبُ. نسأل الله السلامة.

فصل

[أصول تعليم الصبيان]

ينبغي أن ينظرَ العاقلُ في تدبير الأولادِ؛ فيحفظُهُم مِن مخالطةٍ تُفْسِدُ. ومتى كان الصبيُّ ذا أَنَفَةٍ حَيِيّاً؛ رُجِيَ خيرُه.

وليُحْمَلْ على صحبةِ الأشرافِ والعلماءِ، ولْيُحَذَّرْ من مصاحَبَتِهِ الجُهَّالَ والسفهاءَ؛ فإنَّ الطبعَ لِصٌّ. وليُحذَّر الصبيَّ من الكذبِ غايةَ التحذيرِ، ومن المخالطةِ للصبيانِ، وليوصه بزيادةِ البرِّ للوالدين، ولْيُحْفَظْ من مخالطةِ النساءِ. فإذا بلغَ؛ فليُزَوَّجْ بصبيةٍ، فينتفعانِ.

فأمّا تدبيرُ العلم؛ فينبغي أن يُحملَ الصبيُّ من حين يبلغُ خمسَ سنينَ على التشاغُل بالقرآنِ والفقهِ وسماع الحديث، ولْيُحَصِّلْ له المحفوظاتِ أكثرَ من المسموعات؛ لأنَّ زمانَ الحِفْظِ إلى خمسَ عشرةَ سنةً؛ فإذا بَلَغَ تشتَّتْ هِمَّتُهُ، فلْيُضْرَبْ تارةً، ويُرْشَى أخرى؛ ليبلغَ وقدْ حصَّل محفوظاتٍ سَنِيَّةً.

وأولُ ما ينبغي أنْ يُكلَّفَ حفظُ القرآنِ مُتْقَناً؛ فإنه يَثْبُتُ ويختلِطُ باللحم والدم، ثم مقدمةٌ من النَّحْوِ يعرِف بها اللَّحنَ، ثم الفقهُ مذهباً وخلافاً، وما أمكنَ بعد هذا من العلومِ؛ فحِفظُهُ حسنٌ.

فالحفظُ في الصِّبا للمُهِمِّ مِنَ العلمِ أصلٌ عظيمٌ.

وقد رأينا كثيراً ممن تشاغَلَ بالمسموعاتِ وكتابةِ الأجزاء، ورأى الحفظَ

صعْباً، فمالَ إلى الأسهلِ؛ فمضى عُمُرُهُ في ذلك، فلما احتاجَ إلى نفسِهِ؛ قَعَدَ يتحفّظُ على كِبَرٍ، فلمْ يُحَصِّلْ مقصودَه.

فاليقظةَ لفهم ما ذكرتُ، وانظرْ في الإخلاص؛ فما ينفعُ شيء دونَه.



[الويل للمفرّط الذي لا ينظر في العواقب]

اشتدَّ الغلاءُ ببغدادَ في أول سنة خمس وسبعين، وكلّما جاءَ الشعيرُ؛ زادَ السِّعْرُ، فتدافعَ الناسُ على اشتراءِ الطعام.

فاغتبطَ من يستعدُّ كلَّ سنة بزرع ما يقوتُهُ، وفرحَ من بادر في أول النَّيْسانِ إلى اشتراءِ الطعام قبل أن يُضاعَفَ ثمنُه.

وأخرجَ الفقراءُ ما في بيوتِهِم فرمَوْه في سوقِ الهوانِ؛ وبانَ ذلُّ نفوسٍ كانتْ عزيزةً.

فقلتُ: يا نفسُ خُذي من هذه الحال إشارةً: لَيُغْبَطَنَّ مَنْ له عملٌ صالحٌ وقتَ الحاجةِ إليه، ولَيَفْرَحَنَّ من له جوابٌ عند إقبال المسألةِ، وكلُّ الويل على المفرِّط الذي لا ينظرُ في عاقبتِهِ! فتنبَّهي؛ فقد نَبَّهْتِ ناساً في الدّنيا على أمرِ الآخرةِ، وبادري موسمَ الزّرع ما دامتِ الرُّوحِ في البدنِ؛ فالزمانُ كلُّه تشرينُ، قبلَ أن يدخلَ نَيْسانُ الحصادِ وما لكِ زرعٌ، وحاجةُ المفتقِرين إلى أموالِهِم تمنعُهم من الإيثارِ.



[النظر والتأمل سبب الصلاح وتركه سبب الفساد]

تدبَّرتُ أحوالَ الأخيارِ والأشرارِ، فرأيتُ سبب صلاح الأخيارِ النَّظَرَ، وسببَ فسادِ الأشرارِ إهمالَ النَّظَرِ.

وذاك أن العاقلَ ينظُرُ؛ فيعلمُ أنَّه لا بدَّ من خالقٍ، وأن طاعتَه

لازمةٌ، ويتأملُ معجزاتِ رسول الله ﷺ، فيسلِّم قيادَهُ إلى الشرع.

ثم ينظُرُ فيما يُقَرِّبُه إليه ويُزْلِفُهُ لديه. فإذا شقَّ عليه إعادةُ العلم؛ تأمَّلَ ثمرتَهُ فَسَهُلَ ذلك، وإذا صَعُبَ عليه قيامُ الليل؛ فكذلك. وإذا رأى مشتهىً؛ تأمَّل عاقبتَهُ، فعلمَ أنَّ اللذةَ تفنى، والعارَ والإثمَ يبقيانِ؛ فيسْهُلُ التَّرْكُ. وإذا اشتهى الانتقامَ ممن يؤذيهِ؛ ذَكَرَ ثوابَ الصبرِ، ونَدَمَ الغضبانِ على أفعالِهِ في حال الغضب... ثم لا يزالُ يتأملُ سرعة ممرِّ العُمُرِ فيغتنمُهُ بتحصيل أفضل الفضائل؛ فينال مُناهُ.

وأما الغافلُ فإنه لا يرى إلا الشيءَ الحاضرَ:

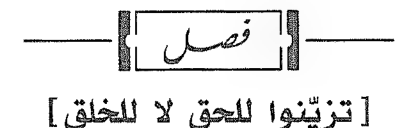
فمنهم من لم يتأمل في معنى المخلوق وإثبات الخالق؛ فجحدوا، وتركوا النظَرَ، وجحدوا الرسلَ وما جاءوا بهِ، ونظروا إلى العاجل، ولم يتفكروا في مبدئِهِ ومنتهاهُ، ولو تأملوا؛ لعرفوا حقائق الأمور.

وكذلك كلُّ شهوةٍ تَعْرِضُ لهم؛ لا ينظرون في عاقبتها، بلْ في عاجل لذّتِها. وكمْ قد جَنَتْ عليهم من وقوع حَدٍّ، وقطع يدٍ وفضيحةٍ.

فتعجيلُ اللذة يفوِّتُ الفضائل ويحصِّلُ الرذائلَ.

وسببُهُ، عدمُ النظرِ في العواقبِ، وهذا شُغْلُ العقْل، وذاك المذمومُ شُغْلُ الهوى.

نسألُ الله ﷻ يقظةً تُرينا العواقبَ، وتكشفُ لنا الفضائلَ والمعائبَ، إنه قادرٌ على ذلك.



[تزيّنوا للحق لا للخلق]

ما أقلَّ من يعملُ للهِ تعالى خالصاً؛ لأنّ أكثرَ الناسِ يُحبّونَ ظُهورَ عباداتِهِم، وسفيانُ الثوري كان يقول: لا أعتدُّ بما ظَهَرَ من عملي. وكانوا يسترونَ أنفُسَهم.

فاعلمْ أن ترْكَ النظر إلى الخلق، وإخلاص القصْدِ وسَتْرِ الحال، هو الذي رَفَعَ من رَفَعَ.

واليومَ صارتِ الرِّياساتُ منْ كلِّ جانبٍ، وما تتمكَّنُ الرياساتُ حتى تتمكنَ من القلب الغفلةُ ورؤيةُ الخلقِ ونسيانُ الحقِّ؛ فحينئذٍ تُطْلَبُ الرياسةُ على أهل الدّنيا.

ولقد رأيتُ من الناس عَجَباً، حتى من يَتَزَيَّى بالعلم: إنْ رآني أمشي وحدي؛ أنْكَرَ علَيَّ، وإنْ رآني أزور فقيراً؛ عَظَّمَ ذلك، وإن رآني أنبسط بتبسمٍ؛ نَقَصْتُ من عينِهِ.

فقلتُ: فوا عجباً، هذه كانت طريقُ الرسول ﷺ وأصحابه ﭫ، فصارتْ أحوالُ الخلْقِ نواميسَ لإقامةِ الجاهِ.

لا جَرَمَ ـ والله ـ سقطتُمْ من عينِ الحقِّ فأسْقَطَكُم من عين الخلقِ.

فالتفتوا ـ إخواني ـ إلى إصلاح النِّيَّاتِ وترْكِ التزيُّن للخلق. ولتكنْ عمدتُكُم الاستقامةَ مع الحقِّ؛ فبذلك صعِدَ السلفُ وسَعِدوا. وإياكم وما الناسُ عليه اليوم؛ فإنه بالإضافة إلى يَقَظَةِ السَّلَفِ، نومٌ.

فصل

[﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾]

مِنْ أكبرِ الدليل على وجودِ الخالقِ سبحانه هذه النفسُ الناطقةُ المُمَيِّزَةُ، المحركةُ للبدنِ على مُقْتَضَى إرادتِها، والتي دَبَّرتْ مصالحَها، وتَرَقَّتْ إلى معرفة الأفلاكِ، واكتسبتْ ما أمكنَ تحصيلُهُ من العلوم، وشاهدتِ الخالقَ في المخلوق؛ فلم يحجُبْها سِتْرٌ، وإنْ تكاثَفَ، ولا يُعْرَفُ مع هذا ماهيَّتُها، ولا كيفيَّتُها، ولا جوهرُها، ولا محلُّها، ولا يُفهمُ من أين جاءَت، ولا كيف تعلَّقتْ بهذا الجسدِ؟

وهذا كلُّه يوجبُ عليها أنَّ لها مُدَبِّراً وخالِقاً، وكفى بذلك دليلاً عليه، إذ

لو كانت وُجِدَتْ بها؛ لما خَفِيَتْ أحوالُها عليها. فسبحانه سبحانَه.

فصل

[من التمس رضا الله بسخط الناس؛ كفاه الله مؤنتهم]

العاقل من يحفظُ جانبَ اللهِ ﷻ؛ وإنْ غَضِبَ الخَلْقُ.

وكلُّ من يحفظُ جانبَ المخلوقين، ويضيِّعُ حقَّ الخالقِ؛ يُقَلِّبُ اللهُ قَلْبَ الذي قَصَدَ أنْ يُرْضِيَهُ، فيُسْخِطُهُ عليه.

قال المأمونُ لبعضِ أصحابِهِ: لا تعصِ اللهَ بطاعتي؛ فيسلِّطَني عليكَ.

وعلى ضدِّ هذا، كلُّ من يُراعي جانبَ الله؛ يَرْضَى عنه من سَخِطَ عليه.

فينبغي أن يُحْسِنَ القصدَ لطاعةِ الخالِق؛ وإنْ سَخِطَ المخلوقُ؛ فإنه يعودُ صاغراً، ولا يُسْخِطَ الخالقَ؛ فإنه يُسْخِطُ المخلوقَ؛ فيفوتُ الحظَّان جميعاً.

فصل

[ملاطفة الأعداء حتى التمكن منهم]

ينبغي أن يكونَ شُغْلَ العاقلِ النظرُ في العواقبِ والتحرُّزُ مما يُمكنُ أن يكونَ.

ومن الغلطِ النظرُ في الحالةِ الحاضرةِ الموافقةِ لمعاشهِ ولصحةِ بدنهِ، وربما لا يجري له مصحوبُه، فينبغي أن يعملَ على انقطاع ذلك[1]، فيكونَ مستعداً لتغيُّرِ الأحوال.

وكذلك النظرُ في لذةٍ تفنى وتبقى تَبِعَتُها وعارُها، وإيثارُ الكسل والدَّعَةِ؛ لما يجيءُ بعدهُما من بقاءِ الجهل.

---

(١) أي: ربما ينقطع عنه الخير الذي يصاحبه في الوقت الحاضر.

وكذلك تحصيلُ المرادات التي لا تُحَصَّلُ إلّا بالتلطُّفِ في الاحتيال، خصوصاً إذا أريدَ مِنْ ذَكِيٍّ؛ فإنه يَفْطَنُ بأقلِّ تلويح.

فمن أرادَ غَلَبَةَ الذكيِّ؛ دقق النظرَ، وتلطَّفَ في الاحتيالِ.

فمتى وقَعَ الإنسانُ مع ذكيٍّ؛ فينبغي أنْ يتحرَّزَ منه، وينظُرَ فيما يجوزُ وقوعُه؛ فلْيحترزْ منه كما ينظرُ صاحبُ الرُّقْعَةِ النَّقَلاتِ.

وكثيرٌ من الأذكياء لم يقدِروا على أغراضهم من ذكي، فأعْطَوْه، وبالغوا في إكرامِهِ ليَصيدوهُ، فإنْ كان قليلَ الفِطْنة؛ وَقَعَ في الشَّرَكِ، وإنْ كان أقوى منهم ذكاءً؛ عَلِمَ أن تحتَ هذه النيةِ خبيئاً؛ فزادهُ ذلك احترازاً.

وأقوى ما ينبغي أن يكونَ الاحترازُ من موتورٍ؛ فإنكَ إذا آذيتَ شخصاً؛ فقد غرستَ في قلبه عداوة؛ فلا تأمنْ تفريعَ تلك الشجرة، ولا تلتفتْ إلى ما يُظهِرُ من وُدٍّ، فإنْ قاربتَهُ فكنْ منه على حذرٍ.

ومن التغفُّل أنْ تعاقبَ شخصاً، أو تسيءَ إليه إساءةً عظيمةً، وتعلمَ أنَّ مِثلَ ذلك يجدّدُ الحقدَ، وتنسى ما فعلتَ، وتظنَّ أنه قد انمحى من قلبه ما أسلفتَ، فربما عَمِلَ لكَ المِحَنَ ونَصَبَ لك المكايِدَ كما جرى لقصيرٍ مع الزَّبَّاءِ، وأخبارُهُ معروفةٌ.

فإياك أن تساكِنَ من آذيتَهُ، بل إن كان ولا بدَّ؛ فمن خارج؛ فما تُؤْمَنُ الأحقادُ.

ومتى رأيتَ عدوَّك فيه غفلةٌ؛ لا يَثْنيهِ مثلُ هذا؛ فأحسنْ إليه فإنه ينسى عداوَتَكَ، ولا يظنُّ أنك قد أضمرتَ له جزاءً على قُبْح فعلِهِ، فحينئذٍ تقدِرُ على بُلوغ كلِّ غرضٍ منهُ.

ومن الخَوَرِ إظهارُ العداوةِ للعدوِّ.

ومن أحْسَنِ التدبيرِ التلطُّفُ بالأعداءِ إلى أن يُمْكِنُ كَسْرُ شوكتِهم، ولو لمْ يُمْكِنْ ذاك؛ كان اللُّطفُ سبباً في كفِّ أكُفِّهِم عن الأذى، وفيهم من يستحي لِحُسْنِ فعلِكَ فيتغيرُ قلبُه لك.

وقد كان جماعةٌ من السلف إذا بَلَغَهُم أن رجلاً قد شتمهم، أهدوْا إليه وأعطوْه، فهم بالعاجلِ يكفُّونَ شرَّهُ، ويحتالونَ في تقليبِ قلبِهِ.

وكفى بالذِّهنِ الناظرِ إلى العواقبِ والتأمُّل لكلِّ ممكنٍ مؤدِّباً.

فصل

[استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان]

رأيتُ أكثرَ الناسِ لا يتمالكونَ من إفشاءِ سِرِّهم؛ فإذا ظَهَرَ؛ عاتَبوا من أَخْبَروا به.

فوا عجباً! كيف ضاقوا بحبسِهِ ذرعاً، ثم لاموا من أفشاه!

وفي الحديث: «**اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ**»[١].

والنَّفسُ يصعُبُ عليها كتْمُ الشيْءِ، وترى بإفشائهِ راحةً، خصوصاً إذا كانَ مَرَضاً أو همّاً أو عشقاً، وهذه الأشياءُ في إفشائِها قريبة، إنما اللازمُ كِتمانُهُ احتيالُ المحتالِ فيما يريدُ أنْ يُحَصِّلَ بهِ غرَضاً، فإنَّ مِنْ سوءِ التدبيرِ إفشاءَ ذلك قبلَ تمامِهِ، فإنه إذا ظهَرَ؛ بَطَلَ ما يُرادُ أنْ يُفْعَلَ، ولا عُذرَ لمن أفشَى هذا النوع.

وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزوةً؛ وَرَّى بغيرِها.

فإن قال قائل: إنّما أُحَدِّثُ مَنْ أثِقُ به.

قيلَ له: وكلُّ حديثٍ جاوزَ الاثنينِ شائِعٌ، وربما لم يكتُمْ صديقُك، وإنّما الرجلُ الحازمُ الذي لا يتعدَّاهُ سِرُّهُ، ولا يُفْشيهِ إلى أحدٍ.

وسَتْرُ المصائبِ مِنْ جُملةِ كتمانِ السّرِّ؛ لأنّ إظهارَها يَسُرُّ الشامتَ، ويؤلِمُ المحبَّ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٨٧)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص١٨٢)، وقال الألباني: والحديث جيد بهذا الإسناد. انظر: «الصحيحة» (١٤٥٣)، وصححه في «صحيح الجامع» (٩٤٣).

ومما قدِ انهالَ فيه كثيرٌ من المُفرِّطينَ أنَّهم يَذْكرونَ بين أصدقائِهم أميراً أو سُلطاناً، فيقولونَ فيه، فيبلُغُ ذلك إليه، فيكونُ سببَ الهلاكِ.

وربما رأى الرجلُ مِنْ صديقِهِ إخلاصاً وافياً، فأشاعَ سرَّهُ وقد قيل:

احْـذَرْ عـدُوَّكَ مَـرَّةً   واحْـذَرْ صـديـقَـكَ ألْـفَ مـرَّة
فَـلَـرُبَّـمـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـ   ـقُ فـكـانَ أدْرَى بـالـمَـضَـرَّة

وربَّ مُفْشٍ سرَّه إلى زوجةٍ أو صديقٍ فيصيرُ بذلك رهيناً عندَه، ولا يتجاسَرُ أنْ يُطلِّقَ الزَّوجةَ، ولا أنْ يهجرَ الصديقَ؛ مخافةَ أن يَظْهَرَ سرُّه القبيحُ.

فالحازمُ من عاملَ الناسَ بالظاهِرِ، فلا يضيقُ صدرُهُ بسرِّه؛ فإنْ فارَقَتْهُ امرأةٌ أو صديقٌ أو خادمٌ؛ لم يَقْدِرْ أحدٌ منهم أن يقولَ فيه ما يكرهُ.

ومن خُلِقَ له عقلٌ ثاقبٌ؛ دلَّهُ على الصّواب قبلَ الوصايا.

فصل

[فيما يعين على الحفظ والاستذكار]

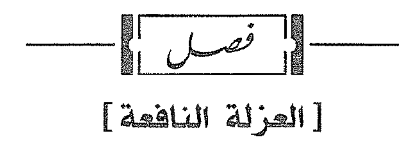
ما رأيتُ أصعبَ على النفس من الحفظِ للعلم والتَّكْرارِ له، خُصوصاً تَكْرارَ ما ليسَ لها في تَكْرارِهِ وحفظِهِ حظٌّ؛ مثلُ مسائل الفقه؛ بخلافِ الشِّعْرِ والسَّجْعِ؛ فإنَّ لها لَذَّةً في إعادتِهِ وإنْ كان يَصْعُبُ؛ لأنها تَلْتَذُّ به مَرّةً ومرتين؛ فإذا زادَ التَّكرارُ؛ صعُبَ عليها، ولكن دونَ صعوبةِ الفقهِ وغيرِهِ من المُستحسناتِ عند الطبع، فتراها تَخْلُدُ إلى الحديثِ والشِّعْرِ والتصانيفِ والنَّسْخِ؛ لأنه يمُرُّ بها كُلَّ لحظةٍ ما لم تَرَهُ، فهو في المعنى كالماءِ الجاري؛ لأنه جزءٌ بعد جزءٍ، وكذا من ينسخُ ما يُحِبُّ أنْ يَسْمَعَهُ أو يصنِّفُ؛ فإنه يلتذُّ بالجِدَّةِ ويستريحُ من تعبِ الإعادةِ.

إلّا أنه ينبغي للعاقل أن يكون جُلَّ زمانِهِ للإعادةِ، خصوصاً الصبيَّ والشابَّ؛ فإنَّه يَسْتَقِرُّ المحفوظَ عندَهما استقراراً لا يزولُ، ويجعلُ أوقاتَ

التعبِ من الإعادةِ للنسخِ، ويحذرُ من تفلُّتِها إلى النسخ عندَ الإعادةِ فيقهرُها؛ فإنه يَحْمَدُ ذلك حَمْدَ السُّرَى وقْتَ الصباح.

وسيندمُ من لم يحفظْ نَدَمَ الكُسعيِّ[1] وقتَ الحاجةِ.

وفي الحفظِ نُكتةٌ ينبغي أن تُلْحَظَ، وهو أنَّ الفقيهَ يحفظُ الدرسَ ويعيدُه، ثم يترُكُه فينساهُ، فيحتاجُ إلى زمانٍ آخرَ لِحفْظِهِ؛ فينبغي أن يُحْكِمَ الحفظَ ويُكْثِرَ التَّكْرارَ، ليثبِّتَ قاعدةَ الحفظِ.



[العزلة النافعة]

ما أعرفُ نفعاً كالعُزلةِ عن الخلقِ، خصوصاً للعالِم والزاهد؛ فإنك لا تكادُ ترى إلّا شامتاً بنكبة، أو حسوداً على نعمةٍ، أو منْ يأخذُ عليك غَلَطاتِك.

فيا لَلْعُزْلَةِ ما ألذَّها!

سَلِمَتْ من كَدَرِ غيبةٍ، وآفاتِ تصنُّع، وأحوال المداجاة[2]، وتضييع الوقتِ... ثمّ خَلا فيها القلبُ بالفِكْرِ؛ فدبَّرَ أمرَ دُنياه وآخرتِهِ. فمثَلُهُ كَمَثَل الحِمْيَةِ؛ يخلو فيها المَعْيُ بالأخلاطِ فيُذيبُها.

وما رأيت مثلَ ما يصنعُ المُخالطُ؛ لأنه يرى حالتَهُ الحاضرةَ من لقاءِ الناس وكلامِهم؛ فيشتغِلُ بها عما بين يديهِ. فَمَثَلُهُ كَمَثَل رجُلٍ يريدُ سَفَراً قدْ أَزِفَ، فجالَسَ أقواماً؛ فشغلوه بالحديث حتى ضَرَبَ البوقُ وما تزوَّدَ.

---

(١) الكُسَعِيُّ الذي يُضْرَبُ به المثلُ في النَّدامةِ، وهو رجل رامٍ رَمى بالليل عَيْراً فأصابَه وظن أَنَّه أَخْطَأَه فَكَسَرَ قَوْسَه، وقيل: وقطع إِصْبَعَه ثم نَدِمَ من الغَدِ حين نظر إلى العَيْرِ مَقتولاً وسَهْمُه فيه، فصار مثلاً لكل نادم على فِعْل يَفْعَلُه.

(٢) داجَى الرجلَ: ساتَرَه بالعَدَاوة وأَخْفاها عنه فكأَنه أَتاه في الظُّلمة، وداجاه أَيضاً: عاشَرَه وجامَله. والمُداجاةُ: المُداراةُ. وداجَيْتُه: أَي داريته، وكأَنك ساترته العَداوَةَ.

فلو لم يكن في العزلة إلا التفكيرُ في زادِ الرّحيل والسلامةُ من شَرِّ المخالطةِ؛ كفى.

ثم لا عزلَةَ على الحقيقةِ إلّا للعالِمِ والزاهِدِ، فإنهما يَعْلَمانِ مقصودَ العزلةِ وإنْ كانا لا في عُزْلَةٍ.

أما العالِمُ؛ فعِلْمُهُ مؤنسُهُ، وكتبهُ محدِّثُه، والنظرُ في سِيَرِ السلفِ مقومُهُ، والتفكُّر في حوادث الزمانِ السابِقِ فُرْجَتُهُ، فإن ترقَّى بعلمه إلى مقام المعرفةِ الكاملةِ للخالقِ سبحانَه، وتشبَّثَ بأذيال محبتِهِ؛ تضاعفتْ لَذَّاتُهُ، واشتغلَ بها عن الأكوانِ وما فيها، فَخَلا بحبيبه، وعَمِلَ معهُ بمقتضى عِلْمِهِ.

وكذلك الزاهدُ، تعبُّدُه أنيسُه، ومعبودُهُ جليسُهُ، فإنْ كُشِفَ لبصرِهِ عن المعمولِ معهُ؛ غابَ عن الخلْقِ، وغابوا عنه.

إنّما اعتزلا ما يُؤذي؛ فهما في الوَحْدَةِ بين جماعةٍ.

فهذانِ رجلانِ قد سَلِما من شرِّ الخلقِ، وسَلِمَ الخلقُ من شرورِهما، بل هما قُدْوةٌ للمتعبدينَ، وعَلَمٌ للسالكين، ينتفعُ بكلامِهِما السامعُ، وتُجْرِي موعظتُهما المدامعَ، وتنتشرُ هيبتُهُما في المجامع.

فمن أراد أن يتشبَّهَ بأحدِهِما؛ فلْيُصابِرِ الخلْوةَ وإنْ كرهَها؛ ليُثْمِرَ له الصبرُ العسلَ.

وأعوذ بالله من عالِم مُخالِطٍ للعالَم، خصوصاً لأربابِ المال والسلاطينِ، يَجْتَلِبُ ويُجْتَلَبُ، ويختلِبُ ويُختلَبُ[1]، فما يحصُلُ له شيء من الدنيا إلّا وقدْ ذهبَ مِنْ دِينِهِ أمثالُه.

ثم أين الأنَفَةُ من الذُّلِّ للفُسَّاقِ؟! فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوقُ طعمَ العلم، ولا يدري ما المرادُ به.

وكذلك المتزهدُ إذا خالطَ وخَلَّطَ؛ فإنّه يخرجُ إلى الرياءِ والتصنُّعِ والنفاقِ.

(١) خَالَبَه واخْتَلَبه: خادَعَه.

فنسألُ اللهَ ﷻ خَلْوَةً حُلْوَةً، وعُزْلَةً عن الشرِّ لذيذةً؛ يستصلحُنا فيها لمناجاتِهِ، ويُلْهِمُ كلّاً منّا طَلَبَ نجاتِهِ. إنه قريبٌ مجيبٌ.

فصل

[الاستعداد ليوم الرحيل]

ما أبْلَهَ مَنْ لا يعلمُ متى يأتيهِ الموتُ، وهو لا يستعِدُّ للقائه.

وأشدُّ الناس بَلَهاً وتغفيلاً من قدْ عبرَ الستينَ وقاربَ السبعينَ ـ فإنَّ ما بينهما هو مُعْتَرَكُ المنايا، ومنْ نازَلَ المُعْتركَ استعدَّ ـ وهو مع ذلك غافلٌ عن الاستعدادِ.

قالَ الشبابُ لَعَلَّنا في شَيْبِنا ... نَدَعُ الذنوبَ فما يقولُ الأشْيَبُ

واللهِ إنّ تَعَرّضَ الشيخِ الكبيرِ بالدّنيا ـ وقد دَفَعَتْهُ عنها ـ يُضْعِفُ القُوَى ويُضعِفُ الرأيَ.

وهلْ بقيَ لابن ستينَ منزلٌ؟

فإنْ طمِعَ في السبعينَ؛ فإنما يرتقي إليها بعناءٍ شديدٍ: إنْ قامَ؛ دَفَعَ الأرضَ، وإنْ مشى؛ لَهَثَ، وإنْ قَعَدَ؛ تنفَّسَ... ويرى شهواتِ الدنيا ولا يقدرُ على تناولِها، فهو يعيشُ عَيْشَ الأسيرِ.

فإنْ طَمِعَ في الثمانين؛ فهو يزحَفُ إليها زَحْفَ الصَّغيرِ.

وَعَشْرُ الثمانينَ مَنْ خاضَها ... فإنَّ المُلِمَّاتِ فيها فُنونُ

فالعاقلُ منْ فَهِمَ مقاديرَ الزّمان.

فإنّه فيما قبلَ البلوغ صبيٌّ ليس على عُمُره عيارٌ؛ إلّا أنْ يُرزَقَ فِطنةً، ففي بعضِ الصبيانِ فطنةٌ تحثُّهم من الصِّغرِ على اكتساب المكارم والعُلوم.

فإذا بَلَغَ؛ فليعلمْ أنّه زمانُ المجاهدةِ للهوى وتعلُّم العلم.

فإذا رُزِقَ الأولادَ فهو زمانُ الكسْبِ للمعاملةِ.

فإذا بلغَ الأربعينَ؛ انتهى تمامُهُ، وقضى مناسِكَ الأجلِ، ولم يبقَ إلّا الانحدارُ إلى الوطنِ.

كأنَّ الفتى يَرْقى مِنَ العُمْرِ سُلّماً إلى أنْ يَجوزَ الأربعينَ وَيَنْحَطُّ

فينبغي له عند تمام الأربعينَ أنْ يجعلَ جُلَّ هِمَّتِهِ التزودَ للآخرة، ويكونَ كلُّ تلمُّحِهِ لما بين يديه، ويأخذَ في الاستعدادِ للرحيل... وإنْ كانَ الخطابُ بهذا لابنِ عشرينَ؛ إلّا أنَّ رجاءَ التدارُكِ في حقِّ الصغيرِ لا في حقِّ الكبيرِ.

فإذا بلغ الستينَ؛ فقد أعْذَرَ اللهُ إليه في الأجل، وجازَ من الزَّمَنِ، فلْيُقْبِلْ بكُلِّيَّتِه على جمْع زادِهِ وتهيئةِ آلاتِ السَّفَر، ولْيعتقدْ أنّ كلَّ يوم يحيا فيه غنيمةٌ ما هي في الحسابِ؛ خصوصاً إذا قَوِيَ عليه الضَّعْفُ وزادَ، وكلَّما عَلَتْ سِنُّه؛ فينبغي أن يزيدَ اجتهادُهُ.

فإذا دَخَلَ في عَشْرِ الثمانينَ فليس إلَّا الوداعُ، وما بَقِيَ من العُمر إلَّا أسفٌ على تفريطٍ، أو تعبُّدٌ على ضَعْفٍ.

نسأل اللهَ ﷻ يقظَةً تامّةً تَصْرِفُ عنّا رُقادَ الغَفلاتِ، وعملاً صالحاً نأمَنُ معهُ مِنَ الندم يوم الانتقالِ. واللهُ الموفقُ.

فصل

[لذة شرف العلم والعمل به]

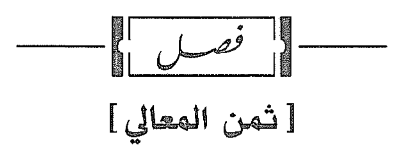
لقد غفَلَ طُلابُ الدنيا عن اللّذةِ فيها، وما اللّذةُ فيها إلّا شرفُ العلم، وزهرةُ العفةِ، وأنفةُ الحميةِ، وعزُّ القناعةِ، وحلاوةُ الإفضال على الخلقِ.

فأما الالتذاذُ بالمطعم والمنكح؛ فشغلُ جاهل باللذةِ.

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «بُنيتِ الفتنةُ على ثلاثٍ: النساءُ وهنّ فخُّ إبليسَ المنصوبُ، والشرابُ وهو سيفُهُ المُرهفُ، والدينارُ والدرهمُ وهما سهماهُ المسمومانِ».

فمنْ مال إلى النساء لم يَصْفُ له عيشٌ، ومن أحبَّ الشرابَ لَمْ يُمتَّعْ

بعقلِهِ، ومن أحب الدينارَ والدرهمَ كان عبداً لهما ما عاشَ.



[ثمن المعالي]

تأمّلتُ عَجَباً، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطولُ طريقُهُ ويكثُرُ التعبُ في تحصيلِهِ.

فإنّ العلمَ لما كان أشرفَ الأشياءِ؛ لمْ يحصُلْ إلّا بالتعبِ والسهرِ والتَّكرارِ وهجرِ اللذاتِ والراحةِ، حتى قال بعضُ الفقهاءِ: بقيتُ سنينَ أشتهي الهريسةَ لا أقدرُ؛ لأنّ وقتَ بيعِها وقتُ سماع الدرسِ.

ونحوُ هذا تحصيلُ المالِ؛ فإنه يحتاج إلى المخاطراتِ والأسفارِ والتعبِ الكثيرِ.

وكذلك نيلُ الشّرفِ بالكرم والجودِ؛ فإنه يفتقرُ إلى جهادِ النفسِ في بذلِ المحبوبِ، وربما آلَ إلى الفقرِ.

وكذلك الشجاعةُ؛ فإنها لا تحصُلُ إلّا بالمخاطرةِ بالنفسِ.

قال الشاعر:

لَوْلا المشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ ... الجُودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتَّالُ

ومن هذا الفنِّ تحصيلُ الثوابِ في الآخرة؛ فإنّه يزيدُ على قدْر قوةِ الاجتهادِ والتعبُّدِ، أو على قَدْرِ وقْع المبذولِ من المالِ في النفسِ، أو على قَدْرِ الصبرِ على فَقْدِ المحبوب ومنع النفسِ من الجزع.

وكذلك الزُّهدُ يحتاجُ إلى صبرٍ عنِ الهوى.

والعفافُ لا يكونُ إلا بكفِّ كفِّ الشَّرَهِ.

ولولا ما عانى يوسفُ عليه السلام ما قيلَ له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

وللهِ أقوامٌ ما رَضُوا من الفضائل إلّا بتحصيل جميعِها؛ فهم يُبالغونَ في

كل عِلْم، ويجتهدونَ في كلِّ عمل، ويُثابرونَ على كلِّ فضيلةٍ، فإذا ضعُفتْ أبدانُهُم عن بعض ذلك؛ قامتِ النِّيَّاتُ نائبةً، وهم لها سابقونَ.

وأكملُ أحوالِهِم إعراضُهُم عن أعمالِهِم، فهم يحتقرونها مع التّمام، ويعتذرونَ من التقصيرِ. ومنهم من يزيدُ على هذا، فيتشاغلُ بالشُّكرِ على التوفيقِ لذلك. ومنهم من لا يرى ما عَمِلَ أصْلاً؛ لأنه يرى نفسَه وعَمَلَه لِسيِّدِه.

وبالعكسِ من المذكورِ من أرباب الاجتهادِ حالُ أهلِ الكسل والشَّرَهِ والشّهواتِ؛ فلئِنِ التذُّوا بعاجِل الراحةِ؛ لقدْ أوجبتْ ما يزيدُ على كلِّ تعبٍ من الأسفِ والحسرةِ.

ومن تَلَمَّحَ صَبرَ يوسفَ عليه السلام وعَجَلَةَ ماعِزَ؛ بانَ له الفرقُ.

ولقدْ تأملتُ نيلَ الدُّرِّ من البحر، فرأيتُهُ بعدَ معاناةِ الشدائِدِ.

فالموفّقُ من تلمّحَ قِصَرَ الموسمِ المعمولِ فيه، وامتدادَ زمانِ الجزاءِ الذي لا آخرَ له، فانتهبَ حتى اللّحْظَةَ، وزاحَمَ كلَّ فضيلةٍ، فإنّها إذا فاتتْ؛ فلا وجه لاستدراكِها.

أوَليسَ في الحديث: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اقْرَأْ وارْقَ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا**»[1].

فلو أنّ الفِكْرَ عَمِلَ في هذا حقَّ العملِ؛ حَفِظَ القرآن عاجِلاً.

---

(١) (حسن) أخرجه الترمذي (٢٩١٤)، وابن حبان (٧٤٣)، والنسائي في «الْكُبْرَى» (٧٩٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٩٩) عن ابن عمر. ورواه أحمد (٢/ ٤٧١)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٩٥) عن أبي هريرة، وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٦٤٧): ورجاله رجال الصحيح. ورواه البيهقي في «الشعب» (٢١٩٥)، والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» عن فَضَالةَ بنِ عُبيدٍ، وتميمِ الدَّاريِّ، ولفظه: «**اقْرَأْ وَارْقَ بِكُلِّ آية دَرَجَةً، حتَّى يَنْتَهِي إِلى آخِرِ آية مَعَهُ**». قال الهيثمي في «المجمع» (٣٦١١): وفيه: إسماعيل بن عياش ولكنه من روايته عن الشاميين وهي مقبولة.

فصل

[حقيقة الإيمان في التسليم والرضا]

ليس المؤمنُ بالذي يؤدِّي فرائضَ العبادات صورةً ويتجنبُ المحظوراتِ فحسبُ، إنما المؤمن هو الكاملُ الإيمان، لا يختلجُ في قلبه اعتراضٌ، ولا يساكنُ نفسَه فيما يجري وسوسةٌ، وكلما اشتدَّ البلاءُ عليه؛ زادَ إيمانُهُ وقَوِيَ تسليمُهُ، وقدْ يدعو؛ فلا يرى للإجابةِ أثراً؛ وسرُّه لا يتغيَّرُ؛ لأنه يعلمُ أنه مملوكٌ، وله مالكٌ يتصرفُ بمقتضى إرادتِهِ. فإنِ اختلجَ في قلبه اعتراضٌ؛ خرج من مقام العبوديَّةِ إلى مقام المناظرةِ؛ كما جرى لإبليسَ.

والإيمانُ القويُّ يَبينُ أثرُهُ عند قوةِ البلاءِ.

فأما إذا رأينا مثلَ يحيى بن زكريا؛ تسلط عليه فاجرٌ، فيأمُرُ بذبحِهِ، فيُذبحُ، وربما اختلجَ في الطبع أنْ يقولَ: فهلّا ردَّ عنه من جَعَلَهُ نبيّاً؟.

وكذلك كلُّ تسلُّطٍ من الكفار على الأنبياءِ والمؤمنينَ؛ وما وقع رَدٌّ عنهم.

فإنْ هجَسَ بالفِكْرِ أن القدرةَ تَعْجِزُ عن الرَّدِّ عنهم؛ كان ذلك كفراً.

وإنْ علم أن القدرة متمكنةٌ من الردِّ وما رَدَّت، ويُجوِّعُ المؤمنينَ ويُشْبِعُ الكفار؛ لم يبقَ إلّا التسليمُ للمالكِ، وإنْ أمَضَّ وأرْمَضَ.

وقد ذهبَ يوسفُ بنُ يعقوبَ عليهما السلام، فبكى يعقوبُ ثمانينَ سنةً[1]، ثم لم ييأسْ، فلما ذهبَ ابنُهُ الآخرُ؛ قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وقد دعا موسى عليه السلام على فرعونَ، فأُجيبَ بعد أربعينَ سنةً.

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٠٧) عن الحسن، وهو مستبعد جداً، وظاهر سياق القصة القرآنية يشير إلى غير هذا.

وكانَ يذبحُ المؤمنينَ، ولا تردُّهُ القدرةُ القديمةُ العظيمةُ، وصَلَبَ السَّحَرَةَ، وقَطَعَ أيديَهم.

وكم من بليةٍ نزلتْ بمعَظَّمِ القَدْرِ؛ فما زادهُ ذلك إلّا تسليماً ورضاً.

فهنالك يبينُ معنى قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨]، وهاهنا يظهرُ قدرُ قوةِ الإيمانِ لا في رَكَعَاتٍ.

قال الحسنُ البصريُّ: استوى الناس في العافيةِ؛ فإذا نزل البلاءُ؛ تبايَنوا.

فصل

[وجوب التسليم لحكمة الخالق سبحانه]

رأيت كثيراً من المغفَّلين يَظْهرُ عليهم السخطُ بالأقدار، وفيهم من قلَّ إيمانُه فأخَذَ يعترِضُ، وفيهم من خرج إلى الكفر، ورأى أنَّ ما يجري كالعبَثِ، وقال: ما فائدةُ الابتلاء ممن هو غنيٌّ عن ذلك؟

فقلتُ لبعض من كان يَرْمُزُ إلى هذا: إنْ حَضَرَ عقلُك وقلبُك حدَّثْتُك، وإنْ كنتَ تتكلَّمُ بمجردِ واقعِك من غيرِ نَظَرٍ وإنصافٍ؛ فالحديث معك ضائع. ويحكَ، أَحْضِرْ عقلكَ، واسْمع ما أقولُ:

أليس قد ثبتَ أن الحقَّ سبحانه مالِكٌ، وللمالِكِ أنْ يتصرَّفَ كيفَ يشاء؟

أليس قد ثبت أنه حكيمٌ، والحكيم لا يعبثُ؟

وأنا أعلمُ أن في نفسك من هذه الكلمة شيئاً، فإنه قد سمعنا عن جالينوس أنه قال: ما أدري أحكيمٌ هو أمْ لا؟ فقاس الحال على أحوال الخلق.

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال: بماذا بان لك أنه ليس بحكيم؟

أليس بعقلك الذي وهبه الخالق لك؟

وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوتُهُ هو الكمال؟!

وهذه هي المحنةُ التي جرتْ لإبليسَ؛ فإنه أخذ يعيبُ الحكمةَ بعقله، فلو تفكَّر؛ علمَ أن واهبَ العقل أعلى من العقل، وأن حكمته أوفى من كل حكيم؛ لأنه بحكمته التامةِ أنشأ العقولَ.

فهذا إذا تأمله المنصفُ؛ زال عنه الشكُّ.

فلم يبقَ إلا أنْ نُضيفَ العجزَ عن فهم ما يجري إلى نَفْسِنا، ونقول: هذا فعلُ عالم حكيم، ولكن ما يبينُ لنا معناهُ.

وليس هذا بِعَجَبٍ؛ فإن موسى عليه السلام خَفِيَ عليه وجه الحكمة في خرقِ السفينةِ الصحيحةِ، وقتلِ الغلام، فلما بيّن له الخضرُ وجه الحكمة؛ أذْعَنَ.

ومِنْ أجْهل الجهال العبدُ المملوكُ إذا طَلَبَ أن يَطَّلَعَ على سِرِّ مولاه، فإنّ فرْضَهُ التسليمُ لا الاعتراضُ.

ولو لم يكن في الابتلاءِ بما تُنْكِرُهُ الطباع إلا أن يُقْصَدَ إذعانُ العقل وتسليمُهُ؛ لكفى.

فنسأل الله عز وجل عقلاً مسلِماً يَقِفُ على حَدِّه، ولا يعترضُ على خالِقِهِ وموجِدِه.

ثم الويلُ للمعترضِ! أيردُّ اعتراضُهُ الأقدارَ؟ فما يستفيدُ إلَّا الخِزْيَ. نعوذُ بالله مِمَّنْ خُذِلَ.

فصل

[أجر الآخرة عزاء لكل بلاء]

لا ينبغي للمؤمن أن ينزعجَ من مرضٍ أو نُزولِ موتٍ، وإنْ كان الطبعُ لا يُمْلَكُ؛ إلّا أنه ينبغي له التصبُّرُ مهما أمكنَ: إمّا لطلب الأجر بما يُعاني، أو لبيانِ أثرِ الرّضا بالقضاءِ، وما هي إلّا لحظاتٌ ثم تنقضي.

ولْيتفكرِ المُعافى من المرض في الساعات التي كان يقلقُ فيها: أين هي

في زمان العافية؟ ذهبَ البلاءُ وحصل الثوابُ كما تذهبُ حلاوةُ اللّذاتِ المحرّمةِ ويبقى الوِزْرُ، ويمضي زمانُ التسخُّط بالأقدارِ، ويبقى العتابُ.

وهل الموتُ إلّا آلامٌ تزيدُ؛ فتعجِزُ النفسُ عن حَمْلِها؛ فتذهبُ.

فليتصورِ المريضُ وجودَ الراحةِ بعدَ رحيلِ النفسِ وقد هان ما يَلْقَى؛ كما يتصورُ العافيةَ بعد شُرْبِ الشَّربة المُرَّةِ.

ولا ينبغي أن يقعَ جزعٌ بِذِكْرِ البِلى؛ فإن ذلك شأنُ المَركبِ، أمّا الراكبُ ففي الجنةِ أو في النار.

وإنما ينبغي أن يقعَ الاهتمامُ الكُليُّ بما يزيدُ في درجات الفضائل قبل نزولِ المعوِّقِ عنها.

فالسعيد من وُفِّقَ لاغتنام العافيةِ. ثم يختارُ تحصيلَ الأفضلِ فالأفضلِ في زمن الاغتنام.

ولْيعلمْ أن زيادة المنازل في الجنة على قَدْرِ التزيُّدِ من الفضائل هاهنا، والعمر قصيرٌ، والفضائل كثيرةٌ؛ فلْيُبالغْ في البِدار.

فيا طول راحةِ التَّعِبِ، ويا فرحةَ المغمومِ، ويا سرورَ المحزون.

ومتى تخايلَ دوامَ اللَّذةِ في الجنةِ من غير مُنغِّصٍ ولا قاطع؛ هان عليه كلُّ بلاءٍ وشِدّةٍ.



[المعاصي قبيحة وبعضها أقبح من بعض]

كلُّ المعاصي قبيحةٌ، وبعضُها أقبح من بعضٍ.

فإن الزِّنا من أقبحِ الذنوبِ، فإنه يُفسدُ الفَرْشَ، ويُغَيِّرُ الأنسابَ.

وهو بالجارةِ أقبحُ فقد رُوي في الصحيحين من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ**

خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[١].

وقد روى البخاري في «تاريخه» من حديث الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، ولأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ**»[٢]. وإنما كان هذا؛ لأنه يَضُمُّ إلى معصيةِ الله ﷻ انتهاكَ حقِّ الجار.

ومن أقبحِ الذنوبِ أنْ يزنيَ الشيخُ، ففي الحديث: «**إنّ اللهَ يُبْغِضُ الشيخَ الزَّاني**»[٣]؛ لأنّ شهوةَ الطبع قد ماتتْ، وليس فيها قوة تَغْلِبُ؛ فهو يحركها ويُبالغُ، فكانت معصيتُه عناداً.

ومن المعاصي التي تُشْبِهُ المعاندةَ لبس الرجل الحريرَ والذهبَ، خصوصاً خاتمَ الذهبِ الذي يتحلّى به الشيخُ، وإنه من أبْردِ الأفعالِ وأقبح الخطايا.

ومن هذا الفنِّ الرياءُ، والتخاشُعُ، وإظهارُ التزهُّدِ للخلق؛ فإنه كالعبادة لهم؛ مع إهمالِ جانبِ الحقِّ ﷻ.

وكذلك المعاملةُ بالربا الصريح، خصوصاً مِنَ الغَنيِّ الكثيرِ المال.

ومن أقبح الأشياءِ أنْ يَطُولَ المرضُ بالشيخ الكبير ولا يتوبَ مِنْ ذنبٍ، ولا يعتذِرَ من زلّةٍ، ولا يَقْضي دَيْناً، ولا يُوصي بإخراج حقٍّ عليه.

ومن قبائح الذنوبِ أن يتوبَ السارقُ أو الظالمُ ولا يردُّ المظالمَ. والمفرِّطُ في الزكاة أو في الصلاة ولا يقضي.

ومن أقبحِها أن يَحْنَثَ في يمين طلاقِهِ، ثم يُقيمَ مع المرأةِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧ و٤٧٦١ و٦٠٠١) وغيرها، ومسلم في الإيمان: باب (٣٧) رقم (١٤١/٨٦).

(٢) (**صحيح**) رواه أحمد (٦/٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، والطبراني في «الكَبِير» (٦٠٥)، والبزار (٢١١٥)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٣) (**ضعيف**) رواه الترمذي (٢٥٦٨)، والنسائي (٢٥٧٠)، وأحمد (٥/١٥٣)، وابن حبان، وغيرهم.

وقِسْ على ما ذكرتُه؛ فالمعاصي كثيرةٌ، وأقبحُها لا يَخْفَى.

وهذه المُستقبحاتُ ـ فضلاً عنِ القبائح ـ تُشبِهُ العنادَ للآمِرِ، فيستحقُّ صاحِبُها اللعنَ ودوامَ العقوبةِ.

وإني لأرى شُربَ الخمرِ من ذلك الجنس؛ لأنها ليست مُشتهاةٌ لذاتِها ولا لريحِها ولا لطعمِها ـ فيما يُذْكَرُ ـ إنما لذَّتُها ـ فيما يقال ـ بعدَ تجرُّعِ مرارتِها؛ فالإقدامُ على ما لا يدعو إليه الطبعُ ـ إلى أن يصلَ التناوُلُ إلى اللّذةِ ـ معاندةٌ.

نسألُ اللهَ ﷻ إيماناً يحجُزُ بيننا وبين مخالفتِهِ، وتوفيقاً لما يُرضيه؛ فإنما نحن بِهِ ولهُ.

فصل

[العجب والكبر وخطره على العلماء]

انتقدتُ على أكثرِ العلماءِ والزّهادِ أنهم يُبطنون الكِبْرَ. وهذه خَلَّةٌ مُهلكةٌ ولا يعلمون!

وقلَّ مَنْ رأيتُ إلّا وهو يرى نفسَهُ!

والعجبُ كلُّ العجبِ مِمَّنْ يَرى نفسه! أتُراهُ بماذا رآها؟ إنْ كان بالعلمِ، فقدْ سبقه العلماءُ. وإنْ كان بالتعبُّدِ، فقدْ سبقه العُبَّاُد. أو بالمال؛ فإنّ المالَ لا يوجبُ بنفسِهِ فضيلةً دينيةً.

فإنْ قال: قد عرفتُ ما لم يعرفْ غيري من العلم في زمني؛ فما عليَّ ممن تقدَّمَ؟

قيل له: ما نأمُرُكَ يا حافظَ القرآن أن ترى نفسَك في الحفظ كمن يحفظ النصفَ، ولا يا فقيهُ أن ترى نفسَك في العلم كالعاميِّ، إنما نَحْذَرُ عليكَ أن ترى نفسَك خيراً من ذلك الشخصِ المؤمنِ وإنْ قلَّ علمُهُ، فإنّ الخيريَّةَ بالمعاني لا بصورةِ العلم والعبادةِ.

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبَها؛ علم أنه على يقينٍ من الذنوبِ والتقصير، وهو مِنْ حالِ غيره على شكٍّ.

فالذي يُحْذَرُ منه الإعجابُ بالنفسِ، ورؤيةُ التقدُّم في أحوال الآخرة. والمؤمنُ لا يزالُ يحتقرُ نفسَه.

وقد قيل لعمرَ بن عبدِ العزيز رضي الله عنه: إنْ مُتَّ ندفنُكَ في حُجرةِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال: لأنْ ألقى اللهَ بكلِّ ذنبٍ غيرَ الشرك أحبُّ إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك.

وقد رُوِّينا: أنّ رجلاً من الرُّهبان رأى في المنام قائلاً يقول له: فلانٌ الإسكافيُّ خيرٌ منك. فنزل من صومعته، فجاءَ إليه، فسأله عن عمله، فلم يذكرْ كبيرَ عملٍ، إلّا أنه قال: ما رأيتُ مسلماً إلّا وظننتُه خيراً مني. فقيلَ له: فبذاكَ ارتفعَ.

فصل

[استعمال الحكمة في مواجهة الغاضب]

متى رأيتَ صاحبَكَ قد غضبَ وأخَذَ يتكلمُ بما لا يصلُحُ، فلا ينبغي أن تعقِدَ على ما يقولُهُ خِنْصِراً، ولا أن تؤاخِذَه به، فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكرانِ لا يدري ما يجري. بلِ اصْبِرْ لِفَوْرَتِهِ، ولا تُعوِّلْ عليها؛ فإنّ الشيطانَ قد غَلَبَهُ، والطبعَ قد هاجَ، والعقلَ قد اسْتَتَرَ.

ومتى أخذتَ في نفسِك عليه، أو أجبته بمقتضى فعلِهِ، كنتَ كعاقلٍ واجهَ مجنوناً، أو كمُفيقٍ عاتب مُغمىً عليه. فالذَّنْبُ لكَ.

بل انظرْ بعين الرحمةِ، وتلمَّحْ تصريفَ القَدَرِ له، وتفرَّجْ في لَعِبِ الطبع به. واعلمْ أنه إذا انتبهَ؛ نَدِمَ على ما جَرى، وعرَفَ لك فَضْلَ الصبرِ.

وأقلُّ الأقسام أنْ تُسْلِمَهُ فيما يفعلُ في غضبهِ إلى ما يستريحُ بهِ.

وهذه الحالةُ ينبغي أنْ يتلمَّحَها الولدُ عند غضبِ الوالدِ والزوجةُ عند غضبِ

الزوج؛ فتركَهُ يشتفي بما يقولُ، ولا تُعوِّلَ على ذلك، فسيعودُ نادماً معتذِراً.

ومتى قُوبِلَ على حالتِهِ ومقالتِهِ؛ صارتِ العداوةُ متمكنةً، وجازى في الإفاقةِ على ما فُعِلَ في حقِّه وقتَ السُّكْرِ.

وأكثرُ الناس على غيرِ هذه الطريق: متى رأوا غضبانَ؛ قابلوهُ بما يقولُ ويعملُ، وهذا على غيرِ مُقتضى الحكمةِ، بل الحكمةُ ما ذكرتُهُ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فصل

[من تجارب الحياة مع الناس]

ليس في الدّنيا أبلهُ ممن يُسيء إلى شخصٍ، ويعلمُ أنه قد بَلَغَ إلى قلبه بالأذى، ثم يصطلحانِ في الظاهرِ، فيعلمُ أن ذلك الأثرَ مُحِيَ بالصُّلح.

وخصوصاً مع الملوك. فإن لذَّتهُمُ الكبرى أن لا يرتفع عليهم أحدٌ ولا ينكسِرَ لهم غَرَضٌ. فإذا جرى شيء منْ ذلك؛ لمْ ينجبرْ.

واعتبرْ هذا بأبي مسلم الخراسانيِّ، فإنه غضَّ من قدْرِ المنصورِ قبل ولايتِهِ، فحَمَلَ ذلك في نفسِهِ، فقتلَهُ.

ومن نظرَ في التواريخ؛ رأى جماعةً قد جرى لهم مثلُ هذا.

ولا ينبغي لمن أساءَ إلى ذي سلطانٍ أنْ يَقَعَ في يدِهِ، فإنه إذا رامَ التخلُّصَ؛ لمْ يقدرْ، فيبقى ندمُهُ على تركِ احترازِهِ وحسرتُهُ على مساكنةِ الضمانِ للسلامةِ أشدَّ عليه من كلِّ ما يُلقى به من الهوانِ والأذى.

ومن هذا الجنسِ الأصدقاءُ المتماثلونَ. فإنك متى آذيتَ شخصاً، وبلغَ إلى قلبه أذاكَ، فلا تثقْ بمودتِهِ، فإنَّ أذاك نُصْبَ عينِهِ، فإنْ لمْ يحتلْ عليكَ؛ لمْ يَصْفُ لك.

ولا تخالط إلّا من أنعمتَ عليه فحسبُ؛ فهو لم يَرَ منك إلّا خيراً، فيكونُ في نفسِهِ، وكذلك الولدُ والزوجةُ والمُعامَلُونَ.

ويَلحقُ بهذا أنْ أقولَ: لا ينبغي أنْ تُعاديَ أحداً ولا تتكلمَ في حقِّهِ؛ فربما صارتْ له دولةٌ فاشْتَفى، وربما احتيجَ إليه فلمْ يُقْدَرْ عليه.

فالعاقلُ يصورُ في نفسِهِ كلَّ ممكنٍ، ويستُرُ ما في قلبِهِ من البُغضِ والوُدِّ، ويداري مع الغيظِ والحقدِ.

هذه مشاورةُ العقلِ إنْ قُبلتْ.

فصل

[العاقل مَنْ أبعد النظر وقدّر العواقب]

كلُّ من لا يتلمَّحُ العواقبَ ولا يستعدُّ لما يجوزُ وقوعُهُ؛ فليسَ بكاملِ العقل.

واعتبرْ هذا في جميع الأحوال. مثلُ أن يغترَّ بشبابِهِ، ويدومَ على المعاصي، ويُسوِّفَ بالتوبةِ؛ فربما أُخِذَ بغتةً ولم يبلُغْ بعضَ ما أمَّلَ.

وكذلك إذا سوَّف بالعملِ أوْ بحفْظِ العلم؛ فإنَّ الزمانَ ينقضي بالتسويف، ويفوتُ المقصودُ. وربما عزمَ على فِعل خيرٍ أو وقْفِ شيءٍ من مالِهِ، فسوَّفَ، فَبُغِتَ.

فالعاقلُ من أخذَ بالحزم في تصوير ما يجوزُ وقوعُهُ، وعَمِل بمقتضى ذلك، فإنِ امتدَّ الأجلُ لم يضُرَّه، وإنْ وقعَ المَخوفُ كان مُحْترِزاً.

ومما يتعلقُ بالدنيا: أن يميلَ مع السلطانِ، ويسيءَ إلى بعضِ حواشيهِ ثقةً بقربِهِ منهُ، فربما تغيَّرَ ذلك السلطانُ، فارتفعَ عدوُّهُ، فانتقم منهُ.

وقدْ يُعادي بعضَ الأصدقاءِ ولا يُبالي به لأنّه دونَه في الحالةِ الحاضرةِ.

فربما صَعِدَتْ مرتبةُ ذلك، فاستوفى ما أسْلَفَهُ إليه مِن القبيح وزادَ.

فالعاقلُ مَنْ نظر فيما يجوزُ وقوعُه، ولم يعادِ أحداً: فإنْ كان بينهما ما يوجبُ المعاداةَ؛ كَتَمَ ذلك. فإنْ صحَّ له أنْ يَثِبَ على عدوِّه فينتقمَ منه انتقاماً يُبيحُهُ الشرعُ؛ جازَ، عَلَى أنّ العفوَ أصْلَحُ.

ولهذا ينبغي أن يُخْدَمَ البطَّال، فإنه ربما عَمِلَ؛ فَعَرَفَ ذلك لمن خَدَمَ.

وقِسْ على أنموذج ما ذكرتُهُ من جميع الأحوالِ.

فصل

[عزّة وشرف العلم والعبادة ألذّ من المُلْك]

بِقَدْرِ صُعودِ الإنسانِ في أُمُورِ الدنيا تنزلُ مرتبتُهُ في الآخرةِ.

وقدْ صرَّحَ بهذا ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، فقال: والله، لا ينالُ أحدٌ من الدنيا شيئاً، إلّا نَقَصَ من درجاته عند اللهِ؛ وإنْ كان عندَه كريماً.

فالسعيدُ من اقتنعَ بالبُلْغَةِ؛ فإن الزمانَ أشرفُ من أن يضيعَ في طلب الدنيا... اللّهمَّ إلّا أن يكونَ متورِّعاً في كسبِهِ، مُعيناً لنفسِهِ عن الطمع، قاصداً إعانةَ أهل الخير والصَّدَقَةَ على المحتاجينَ؛ فكَسْبُ هذا أصلحُ من بطالتِهِ.

فأما الصعودُ الذي سببُهُ مخالطةُ السلاطينِ؛ فبعيدٌ أنْ يَسْلَمَ معه الدينُ، فإنْ وقعتْ سلامتُهُ ظاهراً؛ فالعاقبةُ خطرةٌ.

قال أبو محمد التميميُّ: ما غبطتُ أحداً إلّا الشريفَ أبا جعفرٍ يومَ ماتَ القائمُ بأمرِ اللهِ؛ فإنه غَسَّلَهُ، وخَرَجَ يَنْفُضُ أكمامَه، فقعدَ في مسجدِهِ لا يبالي بأحدٍ، ونحنُ مُنزعجونَ لا ندري ما يجري علينا.

وذاك أنَّ التميميَّ كانَ متعلِّقاً على السلطان، يَمْضي له في الرسائل، فخافَ مَغَبَّةَ القُرْبِ.

وقد رأينا جماعةً من العلماء خالطوا السلطانَ فكانتْ مَغَبَّتُهم سيئةً.

ولَعَمْري إنهم طلبوا الرّاحةَ فأخطأوا طريقَها؛ لأن غُمومَ القلبِ لا توازيها لَذَّةُ مالٍ ولا لَذَّةُ مَطْعمٍ، هذا في الدنيا قبلَ الآخرةِ.

وليسَ أشرفَ وأطيبَ عيْشاً من مُنفردٍ في زاويةٍ؛ لا يخالِطُ السّلاطينَ، ولا يبالي أطابَ مطعمُهُ أم لم يَطِبْ؛ فإنَّه لا يخلو من كِسْرَةٍ وقَعْبِ ماءٍ، ثم هو سليمٌ من أن تُقالَ لهُ كلمةٌ تؤذيهِ، أو يعيبه الشرعُ حينَ دخولِهِ عليهم أو الخَلْقُ.

وما أحسنَ ما قالَ ابنُ أدْهَم: لو علِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه من لذيذِ العيشِ؛ لَجالَدونا عليه بالسيوفِ.

ولقد صَدَقَ ابنُ أدهمَ؛ فإنَّ السلطانَ إنْ أكَلَ شيئاً؛ خافَ أنْ يكونَ قد طُرِحَ له فيه سُمٌّ، وإنْ نامَ؛ خافَ أنْ يُغْتالَ، وهو وراءَ المغاليقِ، لا يمكِنُه أنْ يخرجَ لِفُرْجَةٍ؛ فإنْ خرجَ؛ كانَ مُنزعجاً من أقربِ الخلْقِ إليه، واللّذةُ التي ينالُها تبردُ عندَه، ولا تبقى له لَذَّةُ مَطْعم ولا مَنْكَح، وكلما استظرفَ المطاعمَ؛ أكْثَرَ منها ففسدتْ معدَتُه، وكلما استجدَّ الجواريَ؛ أكْثَرَ منهنَّ فذهبتْ قُوَّتُهُ، ولا يكادُ يُبْعِدُ ما بينَ الوطْءِ والوطْءِ؛ فلا يجدُ في الوطْءِ كبيرَ لَذَّةٍ؛ لأنّ لذَّةَ الوطءِ بِقَدْرِ بُعْدِ ما بين الزمانينِ، وكذلك لَذَّةُ الأكلِ؛ فإنَّ من أكلَ عَلَى شِبَعٍ، ووَطِئَ من غير صِدْقِ شهوةٍ وقلقٍ؛ لم يجد اللذةَ التامةَ التي يجدُها الفقيرُ إذا جاعَ والعَزَبُ إذا وَجَدَ امرأةً.

ثمّ إنّ الفقيرَ يرمي نفسَه على الطريقِ في الليل فينامُ، ولَذَّةُ الأمْنِ قد حُرِمَها الأمراءُ، فلذّتُهم ناقصةٌ، وحسابُهم زائدٌ.

والله ما أعرفُ مَنْ عاشَ رفيعَ القدْرِ بالغاً من اللذاتِ ما لم يبلُغْ غيرُه إلَا العلماءَ المخلصينَ؛ كالحسنِ وسفيانَ وأحمدَ، والعُبَّادَ المُحققينَ؛ كمعروفٍ.

فإنَّ لذةَ العلم تزيدُ على كلِّ لذةٍ، وأمّا ضُرُّهم إذا جاعوا أوِ ابْتُلوا بأذًى، فإنَّ ذلك يزيدُ في رِفعتهم.

وكذلك لذةُ الخَلْوَةِ والتعبُّدِ، فهذا معروفٌ، كانَ مُنفرداً بِربِّهِ، طيِّبَ العيشِ معهُ، لذيذَ الخلوةِ به.

ويومَ الحشرِ تُنْشرُ الكراماتُ التي لا توصَف.

ولمّا بُلِيَتْ أقوامٌ بمخالطةِ الأمراءِ؛ أثَّر ذلك التكديرَ في أحوالِهم كلِّها.

فقال أحدُهم: منذُ أخذتُ من مال فلانٍ الأميرِ؛ مُنِعْتُ ما كان وُهِبَ لي من فَهْم القرآنِ.

فالصبرُ عن مخالطةِ الأمراءِ ـ وإنْ أوجَبَ ضيقَ العيشِ من وجهٍ ـ يُحَصِّلُ طيبَ العيشِ من جهاتٍ، ومع التخليطِ لا يحصُلُ مقصودٌ؛ فمن عَزَمَ جَزَمَ.

كان أبو الحسن القزوينيُّ لا يخرُجُ من بيتِهِ إلَا وقتَ الصلاةِ؛ فربما جاء السلطانُ، فيقعُدُ لانتظارِهِ لِيُسَلِّمَ عليه.

ومَدُّ النَّفَسِ في هذا ربّما أضْجَرَ السامعَ، ومن ذاقَ عَرَفَ.

فصل

[أكثر الناس يمشون مع العادة لا مع الشرع]

من عَرَفَ الشرع كما ينبغي، وعَلِمَ حالة الرسول ﷺ وأحوالَ الصحابةِ وأكابرِ العلماءِ؛ علمَ أن أكثرَ الناس على غير الجادَّةِ، وإنما يمشون مع العادة.

يتزاورونَ فيغتابَ بعضُهم بعضاً، ويطلُبُ كلُّ واحدٍ منهم عورةَ أخيه، ويحسُدُه إنْ كانتْ نعمةٌ، ويَشْمَتُ به إنْ كانتْ مصيبةٌ، ويتكبرُ عليه إنْ نصحَ له، ويُخادِعُه لتحصيل شيءٍ من الدنيا، ويأخذُ عليه العثراتِ إنْ أمكنَ... هذا كلُّه يجري بين المنتمينَ إلى الزُّهدِ لا الرِّعاع.

فالأولى بمن عَرَفَ اللهَ سبحانه وعَرَفَ الشرع وسِيَرَ السلفِ الصالحينَ الانقطاعُ عن الكُلِّ.

فإنِ اضطر إلى لقاء منتسبٍ إلى العلم والخير؛ تلقاه وقد لبس درع الحذر، ولم يطل معه الكلام، ثم عَجَّل الهربَ منه إلى مخالطة الكتب التي تحوي تفسيراً لنطاقِ الكمال.



[كمال القلب والقالب]

الكمالُ عزيزٌ. والكامل قليلُ الوجودِ.

فأولُ أسبابِ الكمال: تناسُبُ أعضاءِ البدنِ، وحسنُ صورةِ الباطنِ؛ فصورةُ البدنِ تسمّى خَلْقاً، وصورةُ الباطنِ تسمى: خُلُقاً.

ودليلُ كمال صورةِ البدن: حسنُ السَّمْتِ، واستعمالُ الأدبِ.

ودليلُ صورةِ الباطنِ: حسنُ الطبائع والأخلاقِ. فالطبائعُ: العِفّةُ، والنزاهةُ، والأنفةُ من الجهل، ومباعدةُ الشَّرَهِ. والأخلاقُ: الكرمُ، والإيثارُ، وسَتْرُ العيوبِ، وابتداءُ المعروفِ، والحِلْمُ عن الجاهل.

فمن رُزقَ هذه الأشياءُ؛ رقَّتْهُ إلى الكمالِ، وظَهَرَ عنه أشرفُ الخِلال. وإنْ نقصتْ خَلَّةٌ؛ أوجبتِ النقصَ.

فصل

[لزوم التسليم لقضاء الله والرضا بقدره]

ليس في الدنيا أبلهُ ممن يريدُ معاملةَ الحقِّ سبحانه على بلوغ الأغراضِ! فأين تكونُ البَلْوى إذن؟

لا والله. لا بدَّ من انعكاسِ المراداتِ، ومِنْ توقُّفِ أجوبةِ السُّؤالات، ومن تَشَفِّي الأعداءِ في أوقاتٍ.

فأما من يريدُ أن تدومَ له السلامةُ، والنصرُ على من يُعاديهِ، والعافيةُ من غيرِ بلاءٍ؛ فما عَرَفَ التكليفَ، ولا فَهِمَ التسليمَ.

أليسَ الرسولُ ﷺ يُنصرُ يومَ بدرٍ ثم يجري عليه ما جرى يومَ أُحُدٍ؟

أليسَ يُصَدُّ عن البيت ثمّ قَهَرَ بعدَ ذلك؟!

فلا بدَّ من جَيِّدٍ ورديءٍ، والجيِّدُ يوجبُ الشُّكرَ، والرديءُ يحرِّكُ إلى السؤال والدعاءِ، فإنِ امتنعَ الجوابُ؛ أُريدَ نفوذُ البلاءِ، والتسليمُ للقضاء.

وهاهنا يَبينُ الإيمانُ ويَظْهَرُ في التسليمِ جواهِرُ الرجال.

فإنْ تحقَّقَ التسليمُ باطناً وظاهراً؛ فذلك شأنُ الكامل.

وإنْ وُجِدَ في الباطنِ انعصارٌ من القضاءِ لا مِنَ المَقْضِيِّ ـ فإنَّ الطبعَ لا بدَّ أنْ يَنْفِرُ من المؤذي ـ دلَّ عَلَى ضَعْفِ المعرفةِ.

فإنْ خَرَجَ الأمرُ إلى الاعتراضِ باللسانِ فتلك حالُ الجُهَّال، نعوذُ بالله منها.

فصل

[لا بد من الصبر على القضاء وتلمح الأجر]

من الابتلاءِ العظيم إقامةُ الرَّجُل في غيرِ مقامِهِ.

مثلُ أنْ يُحْوَجَ الرجلُ الصالح إلى مداراةِ الظالم والتردُّدِ إليهِ، وإلى مخالطةِ من لا يَصْلُحُ، وإلى أعمالٍ لا تليقُ به، أو إلى أمورٍ تقطعُ عليه مرادَه الذي يُؤْثِرُهُ... مثلُ أن يُقالَ للعالِم: تردَّدْ إلى الأميرِ؛ وإلَّا خِفْنا عليكَ سطوتَه، فيتردَّدُ، فيرى ما لا يصلُحُ له، ولا يمكِنُه أنْ يُنْكِرَ... أو يحتاجَ إلى شيءٍ من الدنيا ـ وقد مُنِعَ حَقَّه ـ، فيحتاجَ أن يُعرِّضَ بِذِكْرِ ذلك، أو يُصَرِّحَ لينالَ بعضَ حقِّه، ويحتاجَ إلى مداراةِ من تصعُبُ مداراتُه، بل يتشتَّتُ هَمُّهُ لتلك الضرورات... وكذلك يفتقرُ إلى الدُّخول في أمورٍ لا تليقُ به. مثلُ أن يحتاجَ إلى الكَسْبِ، فيتردَّدَ إلى السوقِ، أو يخدمَ من يُعطيهِ أُجْرَتَهُ. وهذا لا يحتمِلُهُ قلبُ المراقبِ للهِ سبحانه؛ لأجل ما يخالِطُه من الأكدار... أو يكونَ له عائلةٌ وهو فقيرٌ، فيتفكرَ في إغنائِهِم، فيدخلَ في مداخلَ كلُّها عنده عظيمٌ... وقد يُبتلى بفقْدِ من يُحبُّ، أو ببلاءٍ في بدنِهِ، أو بِعَكْسِ أغراضِهِ وتسليطِ معاديهِ عليه، فيرى الفاسقَ يقهرُهُ والظالمَ يُذِلُّهُ.

وكلُّ هذه الأشياءِ تُكدِّرُ عليه العيشَ، وتكادُ تزلزلُ القلبَ.

وليسَ في الابتلاء إلّا التسليمُ واللّجأُ إلى المُقدِّرِ في الفرج؛ فيُرى الرجلُ المؤمنُ الحازمُ يثبُتُ لهذه العظائمِ، ولا يتغيرُ قلبُه، ولا ينطِقُ بالشكوى لسانُه.

ومما يُهوِّنُ هذه الأشياءَ عِلْمُ العبدِ بالأجرِ وأنَّ ذلك مرادُ الحقِّ، وأن الدنيا دارَ ابتلاءٍ لينظُرَ اللهُ فيها كيفَ تعملونَ.

فما لِجُرْحٍ إذا أرضاكُمُ أَلَمُ.

فصل

[أنفس الأشياء معرفة الله ﷻ]

ينبغي لمن عَرَفَ شرفَ الوجودِ أن يُحَصِّلَ أفضلَ الموجودِ.

هذا العُمرُ موسمٌ، والتجاراتُ تختلفُ، والعامَّةُ تقول: عليكم بما خَفَّ حَمْلُهُ وكَثُرَ ثمنُهُ، فينبغي للمستيقظِ أنْ لا يطلبَ إلى الأنفَسَ.

وأنفَسُ الأشياءِ في الدنيا معرفةُ الحقِّ ﷻ.

فمِنَ العارفينَ السالكينَ من وافَى في طريقه بُغيتَه في السفرِ.

ومنهم من هِمَّتُهُ متعلِّقَةٌ بطلبِ ربحِهِ.

ومنهُم من ينظُرُ إلى ما يُرضي الحبيب، فيجلبُهُ إلى بلد المُعاملةِ، ويَرْضَى بالقَبُولِ ثمناً، ويرى أنَّ كلَّ البضائع لا تَفي بحقِّه.

ومنهم مَنْ يرى لزومَ الشُّكْرِ في اختيارِه هذا السلوكَ دونَ غيرِهِ، فيُقرُّ بالعجزِ.

وقدِ ارتفعَ قومٌ عن الأحوالِ، فرأوْا مجردَ التوفيقِ يَشْغَلُهُم عن النظر إلى العمل. أولئكَ الأقلُّون عدداً. وإنَّ الأعظمينَ قدْراً أقلُّ نَسْلاً من عنقاءِ مَغْرِبَ(١).

فصل

[أيها الشيخ استعد للرحيل]

من عَلِمَ قُرْبَ الرحيل عن مكةَ؛ استكثرَ من الطوافِ، خصوصاً إنْ كان لا يُؤمِّلُ العَوْدَ؛ لِكِبَرِ سنِّه، وضَعْفِ قوَّتِه.

فكذلك ينبغي لمن قاربَهُ ساحلُ الأجلِ بعلوِّ سِنِّه أنْ يبادرَ اللحظاتِ

---

(١) يقال: إنها طائر عظيم لا ترى إلا في الدهور.

وينتظِرَ الهاجِمَ[(١)] بما يصلُحُ له؛ فقد ضعفت القوى، وما بقي إلّا الاستسلامُ لمحارب التَّلفِ.

فالبدارَ البدارَ إلى التنظيف؛ ليكونَ القدومُ على طهارةٍ.

وأيُّ عيشٍ في الدنيا يَطيبُ لمن أيامُهُ السليمةُ تُقَرِّبُهُ إلى الهلاكِ، وصُعودُ عُمرهِ نزولٌ عن الحياةِ، وطولُ بقائِهِ نَقْصُ مدى المُدةِ.

فليتفكرْ فيما بين يديهِ، وهو أهمُّ مما ذكرناه.

أليس في الصحيح: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)].

فوا أسفاً لمهدَّدٍ لم يحسن التأهّب، ويا طيبَ عيشٍ لموعودٍ بأزيدِ المُنى.



[تذكر أحوال الرسول ﷺ]

منْ أراد أن يعلمَ حقيقة الرِّضا عن الله ﷻ في أفعاله، وأن يدريَ مِنْ أين ينشأ الرِّضا؛ فليتفكرْ في أحوال رسول الله ﷺ.

فإنّه لما تكاملتْ معرفتُه بالخالق سبحانَه؛ رأى أنّ الخالقَ مالِكٌ، وللمالِكِ التصرُّفُ في مملوكِهِ، ورآهُ حكيماً لا يصنعُ شيئاً عَبَثاً، فسلَّمَ تسليمَ مملوكٍ لحكيمٍ، فكانتِ العجائبُ تجري عليه، ولا يوجدُ منه تَغيُّرٌ، ولا من الطبع تأفُّفٌ، ولا يقولُ بلسان الحال: لو كان كذا، بل يثبُتُ للأقدارِ ثبوتَ الجبل لعواصِفِ الرِّياح.

---

(١) الهاجم: الموت.

(٢) رواه البخاري (١٣٧٩ و٣٢٤٠)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب (١٧)، رقم (٢٨٦٦/ ٦٥).

هذا سيِّدُ الرسل ﷺ بُعِثَ إلى الخلقِ وحدَه، والكُفْرُ قد ملأ الآفاقَ، فجعلَ يذهبَ لتبليغ الدعوة من مكانٍ إلى مكانٍ، وهم يُدْمونَ عَقِبَهُ، وأُلْقيَ السَّلَى على ظهره، وهو ساكتٌ ساكنٌ.

ويخرجُ كلَّ موسم فيقولُ: «**مَنْ يُؤويني، مَنْ ينصُرُني؟**»[١]... ثم خرجَ من مكةَ، فلم يقدِرْ على العَوْدِ إلّا في جوارِ كافرٍ.

ولم يوجدْ من الطبع تأفُّفٌ، ولا من الباطنِ اعتراضٌ؛ إذْ لو كان غيرُهُ؛ لقالَ: يا ربِّ أنت مالكُ الخلقِ، وقادر على النّصرِ؛ فلمَ أُذَلُّ؟ كما قال عمرُ رضي الله عنه يوم صلحُ الحديبية: ألسنا على الحقِّ؟ فلمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في ديننا؟ ولمَّا قال هذا، قال له الرسول ﷺ: «**إني رسول الله، ولنْ يُضَيِّعَني**»[٢].

ثم يُبتلى بالجوع فيشُدُّ الحَجَرَ... ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧].

وتُقْتَلُ أصحابُه، ويُشَجُّ وجهُهُ، وتُكسَرُ رَباعيتُهُ، ويُمَثَّلُ بِعَمِّهِ... وهو ساكتٌ.

ثَمَّ يُرزقُ ابناً، ويُسلبُ منهُ، فيتعلَّلُ بالحسنِ والحسينِ، فَيُخْبَرُ بما سيجري عليهما.

ويسكُنُ بالطبع إلى عائشةَ رضي الله عنها، فيُنَغَّص عيشُه بقذفِها.

ويُقيمُ ناموسَ الأمانةِ والصِّدقِ، فيقالُ: كذّابٌ! ساحرٌ!

ثم يَعْلَقُهُ المرضُ كما يوعكُ رَجُلانِ وهو ساكنٌ ساكتٌ. فإنْ أَخْبَرَ بِحالِهِ؛ فَلِيُعَلِّمَ الصبرِ.

ثم يُشَدَّدُ عليه الموتُ، فيُسلبُ روحَهُ الشريفةَ، وهو مضطجعٌ في كساءٍ مُلَبَّدٍ وإزارٍ غليظٍ، وليس عندهم زيتٌ يوقَدُ به المصباحُ ليلتَئِذٍ.

---

(١) (صحيح) رواه أحمد (٣/ ٣٢٢ و٣٣٩) والحاكم (٤٢٥١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٨٩١)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٦٣).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢ و٣١٨٢)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير: باب (٣٤) رقم (١٧٨٥/ ٩٥).

هذا والله فعلُ رجل عَرَفَ الوجودَ والمُوجِدَ، فماتتْ أغراضُهُ، وسكنتْ اعتراضاتُهُ، فصار هواه فيما يجري.

فصل

[ضرورة معرفة الحديث الصحيح من الضعيف]

علمُ الحديث هو الشريعةُ؛ لأنّه مُبيِّنٌ للقرآنِ، وموضحٌ للحلال والحرام، وكاشفٌ عن سيرة رسول الله ﷺ وسِيَرِ أصحابه.

فإذا وُفِّقَ الزّاهدُ والواعظُ؛ لم يَذْكُرا إلّا ما شَهدا بصحَّتِه. وإنْ حُرِما التوفيقَ؛ عمِل الزاهد بكلِّ حديث يسمعُهُ؛ لحُسنِ ظنِّه بالرُّواة، وقال الواعظُ كلَّ شيءٍ يراهُ؛ لجهله بالتصحيح، ففسدتْ أحوالُ الزاهدِ، وانحرفَ عن جادّةِ الهُدى وهو لا يعلمُ، وفسدتْ أحوالُ الواعظِ والموعوظِ؛ لأنه يبني كلامَه على أشياءَ فاسدةٍ ومُحالاتٍ.

ولقد كان جماعةٌ من المتزهدينَ يعملونَ على أحاديثَ ومنقولاتٍ لا تَصِحُّ، فيضيعُ زمانُهم في غيرِ المشروع.

وكذلك الوعَّاظُ يُحدثونَ الناسَ بما لا يَصِحُّ عن الرسول ﷺ ولا أصحابِهِ، فقد صار المُحالُ عندهم شريعةً.

فسبحانَ من حفظ هذه الشريعةَ بأخبارِ أخيارٍ يَنْفونَ عنها تحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ.

فصل

[الداعين إلى اتباع الشهوات أحطّ من الأنعام]

بَلَغَني عن بعض فُساق القُدماء أنه كان يقولُ: ما أرى العيشَ غيرَ أن تُتْبَعَ النفسَ هواها، فمخطِئاً أو مُصيباً.

فتدبرتُ حالَ هذا، وإذا به ميِّتُ النفسِ، ليس له أَنَفَةٌ على عِرْضِهِ، ولا خوفُ عارٍ.

ومثلُ هذا ليس في مِسْلاخِ الآدميينَ، فإنَّ الإنسانَ قد يُقْدِمُ على القتل لئلّا يُقالَ: جبانٌ. ويَحملُ الأثقالَ ليُقالَ: ما قَصَّرَ. ويخافُ العارَ، فيصبرُ على كلِّ آفةٍ مِنَ الفقر، وهو يستُرُ ذلك حتى لا يُرى بعينٍ ناقصةٍ. حتى إنّ الجاهلَ إذا قيل لهُ: يا جاهلُ! غَضِبَ. واللصوصُ المتهيئونَ للحرام إذا قال أحدُهُم للآخرِ: لا تتكلمْ، فإنّ أختَكَ تفعلُ وتصنعُ؛ أخذتْهُ الحَمِيَّةُ؛ فَقَتَلَ الأختَ. ومن له نفسٌ؛ لا يقفُ في مقام تُهْمةٍ، لئلَّا يُظَنَّ به.

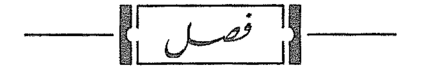
فأما منْ لا يُبالي أن يُرى سكرانَ، ولا يُهِمُّهُ إنْ شُهِرَ بين الناسِ، ولا يؤلِمُهُ ذِكْرُ الناسِ له بالسوءِ؛ فذاك في عِداد البهائم.

وهذا الذي يريدُ أنْ يُتْبِعَ النفسَ هواها؛ لا يلتذُّ؛ إلّا أنْ لا يخافَ عَنَتاً ولا لوماً، ولا يكونُ له عِرْضٌ يَحْذَرُ عليه، فهو بهيمةٌ في مِسْلاخ إنسانٍ.

وإلّا فأيُّ عيشٍ لمن شرب الخمرَ، وأُخِذَ عَقيبَ ذلك، وضُرِبَ، وشاع في الناس ما قد فُعلَ به؟! أما يَفي ذلك باللّذةِ؟، لا، بل يربو عليها أضعافاً. وأيُّ عيشٍ لمن ساكَنَ الكسلَ: إذا رأى أقرانَه قد برَّزوا في العلم وهو جاهلٌ. أوِ استغنوا بالتجارةِ وهو فقيرٌ؟ فهل يبقى للالتذاذِ بالكسل والراحة معنى؟ ولو تفكَّرَ الزاني في الأُحدوثَةِ عنه، أو تصوّر أخْذَ الحَدِّ منه؛ لكَفَّ الكَفَّ؛ غيرَ أنه يرى لَذَّةً حاضرةً كأنها لمْعُ برقٍ، ويا شُؤْمَ ما أعقبتْ مِنْ طولِ الأسى!

هذا كلُّه في العاجل، فأما الآجلُ؛ فَمَنْغَصَةُ العذابِ دائمةٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

نسأل اللهَ أنَفَةً من الرذائل، وهمةً في طلبِ الفضائل، إنه قريبٌ مجيبٌ.



[عاقبة التجرؤ على الله]

قد تَبْغَتُ العقوباتُ، وقد يُؤَخِّرُها الحِلْمُ.

والعاقلُ من إذا فَعَلَ خطيئةً؛ بادرها بالتوبة.

فكم مغرورٍ بإمهالِ العُصاة لم يُمهلْ.

وأسرعُ المعاصي عقوبةً ما خَلا عن لَذَّةٍ تُنْسي النَّهْي، فتكونُ تلكَ الخطيئةُ كالمعاندةِ والمبارزةِ، فإن كانت توجبُ اعتراضاً على الخالقِ أو منازعةً له في عظمتِهِ؛ فتلكَ التي لا تُتَلافى، خصوصاً إنْ وقعتْ من عارفٍ باللهِ، فإنه يَنْدُرُ إهمالُهُ.

قال عبدُ المجيدِ بنُ عبد العزيزِ: كان عندنا بخُراسانَ رجلٌ كَتَبَ مُصْحَفاً في ثلاثةِ أيام، فلقيهُ رجلٌ، فقال: في كَمْ كتبتَ هذا؟ فأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام، وقال: في ثلاثٍ، وما مسَّنا مِنْ لُغوبٍ، فجفَّتْ أصابعُهُ الثلاثُ، فلم ينتفعْ بها فيما بعدُ.

وخَطَرَ لبعضِ الفُصَحاءِ أنه يَقْدِرُ أنْ يقولَ مثلَ القرآن! فَصَعِدَ إلى غرفةٍ، فانفردَ فيها، وقال: أمْهلوني ثلاثاً! فصَعِدوا إليه بعد الثلاثِ، ويدُهُ قد يَبِسَتْ على القلم، وهو ميِّتٌ.

ويَلْحَقُ هذا أن يُعَيِّرَ الإنسانُ شخصاً بِفعل، وأعظمُهُ أن يُعيِّرَهُ بما ليس إليه، فيقولَ: يا أعمى أو يا قبيحَ الخِلْقَةِ! وقال أحدهم: عَيَّرْتُ رجلاً بالفقرِ، فَحُبِسْتُ عَلَى دَيْنٍ.

وقد تتأخرُ العقوبةُ وتأتي في آخرِ العُمُرِ، فيا طولَ التَّعثيرِ مع كِبَرِ السِّنِّ لذُنوبٍ كانت في الشبابِ.

فالحذرَ الحذرَ من عواقب الخطايا، والبدارَ البدارَ إلى محوِها بالإنابةِ؛ فلها تأثيراتٌ قبيحةٌ، إنْ أسرعت، وإلّا اجْتَمَعَتْ وجاءتْ.



[مراتب الناس في الدنيا والآخرة]

إنما خُلِقنا لِنَحْيا مع الخالقِ في معرفتِهِ ومحادثتِهِ ورؤيتِهِ في البقاءِ الدائم.

وإنما ابْتُدِئَ كونُنا في الدنيا؛ لأنّها في مثال مَكْتَبٍ؛ نتعلمُ فيه الخَطَّ والأدبَ؛ لِيَصْلُحَ الصبيُّ عند بلوغِهِ للرُّتَبِ.

فمِن الصِّبيانِ بعيدُ الذِّهْنِ، يطولُ مُكْثُه في المكتبِ، ويخرُجُ وما فَهِمَ شيئاً. وهذا مثالُ مَنْ لا يعلمُ وجودَه، ولا نالَ المرادَ من كونِهِ.

ومن الصبيانِ مَنْ يجمعُ مع بُعْدِ ذهنِهِ، وقلَّةِ فهمِهِ وعدم تعلُّمِه أذى الصبيان، فهوَ يُؤذيهِم، ويَسرِقُ مطاعمَهم، ويستغيثونَ مِنْ يَدِهِ، فلا هو صَلَحَ ولا فهِمَ، ولا كفَّ عن الشَّرِّ. وهذا مَثَلُ أهل الشَّرِّ والمؤذينَ.

ومن الصِّبيانِ من عَلِقَ بشيءٍ من الخَطِّ، لكنه ضعيفُ الاستخراج، رديءُ الكتابة، فخرجَ ولم يَعْلَقْ إلّا بِقَدَرِ ما يَعْلَقُ به حسابُ معاملتِهِ. وهذا مثلُ من فهمَ بعضَ الشيءِ وفاتتْهُ الفضائلُ التَّامَّةُ.

ومنهم من جَوَّدَ الخطَّ ولم يتعلَّم الحسابَ، وأتقنَ الآداب حِفْظاً غيرَ أنَّه قاصرٌ في أدبِ النفسِ. فهذا يصلُحُ أن يكونَ كاتباً للسلطانِ على مخاطرةٍ؛ لِسوءِ ما في باطنِهِ من الشَّرَهِ وقلةِ التأدُّبِ.

ومنهم من سَمَتْ هِمَّتُه إلى المعالي الكاملةِ، فهوَ مُقَدَّمُ الصبيانِ في المكتبِ، ونائبٌ عن معلِّمِهم، ثم يرتفعُ عنهم بِعِزَّةِ نفسِهِ وأدبِ باطنِهِ وكمالِ صناعةِ الآدابِ الظاهرةِ. ولا يزالُ حاثٌّ مِنْ باطنِهِ يَحُثُّهُ على تعجيل التعلُّم وتحصيل كلِّ فضيلةٍ، لعلمِهِ أنّ المكتبَ لا يُرادُ لنفسه، بل لأخذِ الأدبِ منه والرحلةِ إلى حالةِ الرُّجوليَّةِ والتصرُّفِ؛ فهو يبادر الزمانَ في نيل كلِّ فضيلةٍ. فهذا مَثَلُ المؤمنِ الكاملِ؛ يَسْبِقُ الأقرانَ يوم التّجاري، ويَعْرِضُ لَوْحَ عملِهِ جَيِّدَ الخطِّ، فيقولُ بلسانِ حالِهِ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وكذلك الدنيا وأهلُها: مِنَ الناس هالكٌ بعيدٌ عن الحقِّ، وهم الكفار.

ومنهُم خاطئٌ مع قليلٍ من الإيمانِ، فهو مُعَاقَبٌ، والمصيرُ إلى خيرٍ. ومنهم سليمٌ، لكنَّه قاصرٌ.

ومنهم تامٌّ، لكنه بالإضافةِ إلى من دونَه، وهو ناقصٌ بالإضافة إلى من فوقَه.

فالبدارَ البدارَ يا أربابَ الفُهوم، فإن الدنيا مَعْبَرٌ إلى دارِ إقامةٍ، وسفرٌ إلى

المستقرِّ والقربِ من السلطانِ ومجاورتِهِ، فتهيئوا للمجالسةِ، واستعدوا للمخاطبةِ، وبالِغوا في استعمال الأدب؛ لِتَصْلُحوا للقربِ من الحضرةِ، ولا يَشْغَلَكُمْ عن تضميرِ الخيل تكاسُلٌ، ولِيَحْمِلْكُمْ على الجِدِّ في ذلك تذكُّرُكم يومَ السباق؛ فإنّ قربَ المؤمنينَ من الخالقِ على قَدْرِ حَذَرِهِم في الدنيا، ومنازِلُهُم على قَدْرِهِم. فما منزلُ النَّفَّاطِ[١] كمنزلِ الحاجبِ، ولا منزلُ الحاجبِ كمكانِ الوزيرِ.

«جنتانِ من ذهبٍ آنِيَتُهُما وما فيهما، وجنتان من فِضّةٍ آنِيَتُهُما وما فيهما»، والفِردوسُ الأعلى لآخرينَ، والذين في أرضِ الجنة ينظرونَ أهلَ الدرجاتِ كما يروْنَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ.

فليتذكَّر الساعي حلاوةَ التسليم إلى الأمين، وليتذكَّرْ في لَذاذةِ المدح يومَ السِّباقِ، وليحذرِ المسابقُ من تقصيرٍ لا يمكنُ استدراكُهُ، ولْيَخَفْ من عيبٍ يبقى قُبْحُ ذِكْرِهِ... هؤلاءِ الجهنّمِيّونَ عتقاءُ الرحمٰن، أزرى بهمُ اتباعُ الهوى، ثم لَحِقَتْهمُ العافيةُ، فَنَجَوْا بعد لأيٍ[٢]... فليتَّعِظْ وليصبرْ عن المُشْتَهى؛ فالأيامُ قلائلُ... يدخُلُ فقراءُ المؤمنينَ قبل أغنيائهم إلى الجنة بخمسِ مائةِ عام[٣].

فالجِدَّ الجِدَّ، بأقدام المُبادرةِ، فقد لاحَ العَلَمُ، إما بالعِلْم الدَّالِّ على الطريقِ، وإما بالشيبِ الذي هو عَلَمُ الرحيلِ.

وبعد هذا؛ فالمُرادُ مُوفّقٌ، والمطلوبُ معانٌ. وإذا أرادكَ لأمرٍ هيّأكَ له.

---

(١) النفط: دهن. والنَّفَّاط: الذي يتولى أمر النفط، والنَّفَّاطة: الموضع الذي يستخرج منه النفط. النَّفَّاطات: ضرب من السُّرُج يُسْتَصْبح بها، والنفَّاطاتُ أدواتٌ تُعمل من النُّحاس يرمى فيها بالنفْط والنار. «لسان العرب».

(٢) أي: بعد مشقة وجهْد وإبْطاء؛ واللأْيُ: اللُّبْثُ، والإبْطاء، والاحْتِباس.

(٣) (حسن صحيح) رواه الترمذي (٢٣٥٣ و٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وابن حبان (٦٥٤)، وأحمد (٢/٤٥١ و٥١٣ و٥١٩).

فصل

[ينبغي لطالب العلم أن يأخذ من كل علم طرفاً]

قد ثبتَ بالدليل شَرَفُ العلم وفضلُه، إلّا أنَّ طلابُ العلم افْترقوا، فكُلٌّ تدعوهُ نفسُه إلى شيءٍ:

فمنهم من أذهبَ عُمُرَهُ في القراءاتِ، وذاك تفريطٌ في العُمُرِ؛ لأنه إنما ينبغي أن يَعتمدَ على المشهورِ منها لا عَلَى الشاذِّ. وما أقبحَ القارئَ يُسْأَلُ عن مسألةٍ في الفقهِ وهو لا يدري! وليسَ ما شَغَلَهُ عن ذلك إلا كثرةُ الطّرقِ في رواياتِ القراءاتِ!

ومنهم من يتشاغَلُ بالنّحْوِ وعِلَلِهِ فحسبُ.

ومنهم من يتشاغلُ باللغةِ فحسبُ.

ومنهم من يكتُبُ الحديثَ، ويُكْثِرُ، ولا ينظرُ في فهم ما كتبَ.

وإنما ينبغي للعاقل أنْ يأخذَ من كلِّ علم طَرَفاً، ثم يهتمَّ بالفقهِ، ثم ينظُرَ في مقصودِ العلوم، وهو المعاملةُ للهِ سبحانَه والمعرفةُ بهِ والحبُّ له.

وينبغي لطالب العلم أن يُصَحِّحَ قصدَه، إذْ فقدانُ الإخلاص يمنعُ قبولَ الأعمالِ.

ولْيجتهدْ في مجالسةِ العلماءِ، والنظرِ في الأقوالِ المختلفةِ، وتحصيلِ الكُتُبِ، فلا يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

ولْيجعلْ هِمَّتَهُ للحفظِ، ولا ينظرْ ولا يكتبْ إلّا وقتَ التعبِ من الحفظِ.

ولْيحذرْ صحبةَ السُّلطانِ. ولْينظُرْ في منهاج الرسول ﷺ والصحابةِ والتابعينَ. ولْيَجْتَهِدْ في رياضةِ نفسِه والعملِ بعلمِهِ.

ومن تولّاهُ الحقُّ سبحانه؛ وَفَّقَهُ.

فصل

[عناد الكافرين]

طالَ تعجُّبي من أقوامٍ لهم أَنَفَةٌ، وعندَهم كِبْرٌ زائدٌ في الحدِّ.

خصوصاً العربَ الذين مِنْ كلمةٍ ينفِرونَ ويحاربونَ ويرضَوْنَ بالقتْل!

ومع هذه الأَنَفَةِ؛ يذِلُّونَ لمن هم خير منه، هذا يعبد حجراً، وهذا يعبد خشبةً، وقد كان قومٌ يعبدونَ الخيلَ والبقرَ!

وإن هؤلاءِ لأخسُّ من إبليسَ، فإنّ إبليس أنِفَ ـ لادِّعائِه الكمالَ ـ أنْ يسجدَ لناقصٍ، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

فالعجبُ مِنْ ذلِّ هؤلاءِ المفتخرينَ المتعاظِمينَ المتكبِّرينَ لحجرٍ أو خشبةٍ!

غيرَ أنَّ هوى القوم في متابعةِ الأسلافِ واستحلاءِ ما اخترعوهُ بآرائِهم غطّى على العقولِ فلمْ تتأمَّلْ حقائقَ الأمورِ.

ثم غطّى الحسدُ على أقوامٍ فتركوا الحقَّ وقد عَرَفوهُ.

فأميةُ بنُ أبي الصلتِ يُقِرُّ برسول الله ﷺ ويقصِدُهُ ليؤمنَ به، ثم يعودُ فيقولُ: لا أؤمنُ برسول ليسَ من ثقيفٍ.

وأبو جهلٍ يقولُ: واللهِ ما كَذَبَ محمدٌ قطُّ، ولكنْ إذا كانتِ السِّدانَةُ والحجابةُ في بني هاشم ثمَّ النبوَّةُ؛ فما بَقِيَ لنا؟!

وأبو طالبٍ يرى المعجزاتِ، ويقول: إني لأعلمُ أنَّكَ على الحقِّ، ولولا أنْ تُعَيِّرَني نساءُ قريشٍ؛ لأَقْرَرْتُ بها عَيْنَكَ.

فنعوذُ بالله من ظُلمةِ حَسَدٍ وغِيابةِ كِبْرٍ، وحماقةِ هوىً يُغطِّي على نورِ العقلِ، ونسألُهُ إلهامَ الرُّشْدِ والعملَ بمقتضى الحقِّ.

فصل

[لا تجعل في قلبك اعتراض]

قد سمعنا بجماعةٍ من الصالحينَ قد قيَّدَهُمُ الخوفُ، ونَكَسَ رؤوسَهم الحَذَرُ، ولمْ يَرَوْا ألسنتهم أهلاً للانبساطِ، فغايةُ آمالِهمُ العفوُ؛ فإنِ انبسطَ أحدُهم بسؤالٍ، فلم يَرَ الإجابةَ؛ عادَ على نفسهِ بالتوبيخ، فقال: مثلُكَ لا يُجابُ، وهم بالمنع راضونَ. وربَّما قالَ: لعلَّ المصلحةَ في منعي.

وهؤلاءِ الرجالُ حقّاً.

والأبلهُ الذي يرى له من الحقِّ أنْ يُجابَ، فإنْ لمْ يُجَبْ؛ تذمَّرَ في باطنِهِ، كأنَّه يطلُبُ أُجْرَةَ عملِهِ، وكأنّه قد نَفَعَ الخالقَ بعبادتِهِ!

وإنما العبدُ حقّاً من يرضى ما يفعلُهُ الخالقُ، فإنْ سَأَلَ فأُجيبَ؛ رأى ذلكَ فضلاً، وإنْ مُنِعَ؛ رأى تَصَرُّفَ مالكٍ في مملوك، فلم يَجُلْ في قلبِهِ اعتراضٌ بحالٍ.

فصل

[العلم النافع]

رأيتُ جماعةً من العلماءِ يتفسحونَ ويظُنُّونَ أنَّ العلمَ يدفعُ عنهم! وما يدرونَ أنَّ العلمَ خَصْمُهم! وأنّه يُغفرُ للجاهلِ سبعونَ ذَنْباً قبلَ أنْ يُغْفَرَ للعالم ذنبٌ، وذاكَ لأنَّ الجاهلَ لم يتعرَّضْ بالحقِّ والعالمَ لم يتأدبْ معه.

ورأيتُ بعضَ القوم يقولُ: أنا قد ألقيتُ مِنْجَلي بين الحصَّادينَ ونِمْتُ! ثم كان يتفسّحُ في أشياءَ لا تجوزُ.

فتفكّرتُ؛ فإذا العلمُ ـ الذي هو معرفةُ الحقائقِ، والنظرُ في سِيَرِ القدماءِ، والتأدُّبُ بآدابِ القوم، ومعرفةُ الحقِّ وما يجبُ له ـ ليسَ عندَ القوم، وإنما عندَهم صُوَرُ ألفاظٍ يعرفون بها ما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ، وليس ذلك العلمَ النافعَ،

إنما العلمُ فَهْمُ الأصولِ، ومعرفةُ المعبودِ وعَظَمَتِهِ وما يستحقُّه، والنظرُ في سِيَرِ الرسول ﷺ وصحابتِهِ، والتأدُّبُ بآدابِهِم، وفهمُ ما نُقِلَ عنهم، هو العلمُ النافعُ الذي يَدَعُ أعظمَ العلماءِ أحقرَ عندَ نفسِهِ من أجهل الجُهَّال.

ورأيتُ بعضَ من تعبَّدَ مدةً ثم فَتَرَ، فبلغني أنه قال: قد عَبَدْتُهُ عبادةً ما عَبَدَهُ بها أحدٌ! والآنَ قد ضَعُفْتُ.

فقلتُ: ما أخوفَني أنْ تكونَ كلمتُهُ هذه سبباً لردِّ الكلِّ. لأنّه قد رأى أنه عَمِلَ مع الحقِّ شيئاً، وإنما وقف يسألُ النجاةَ بطَلَبِ الدرجاتِ؛ ففي حقِّ نفسِهِ فَعَلَ، وما مَثَلُهُ إلّا كَمَثَل من وقفَ يُكْدِي[1]؛ فما ينبغي أنْ يَمُنَّ على المُعْطي.

وإنما سببُ هذا الانبساطِ الجهلُ بالحقائقِ.

وأينَ هو من كبارِ علماءِ المعاملةِ، الذين كان فيهم مثلُ صِلَة بن أشيمَ، وهو يقولُ إذا انقضى الليلُ عندَ صلاتِهِ: يا ربِّ أجِرْني من النار، أوَمِثْلي يَسْأَلُ الجنَّةَ؟! وأبلغُ من ذا قولُ عمرَ: وَدِدْتُ أنْ أنْجُوَ كَفافاً لا لي ولا عَلَيَّ. وقولُ سفيانَ عند موتِهِ لحمادِ بن سلمةَ: أترجو لمثلي أنْ يَنْجُوَ من النارِ.

فأنا أحمدُ الله ﷻ إذْ تخلصتُ من جهلِ المُتَسَمِّينَ بالعلم مِنْ هؤلاء الذين ذممتُهُم، وبالزهدِ من هؤلاء الذين عِبْتُهم؛ فإنّي قد اطَّلعتُ مِنْ عَظَمَةِ الخالقِ وسِيَرِ المحققينَ على ما يُخْرِسُ لسانَ الانبساطِ، ويمحو النظرَ إلى كلِّ فعلٍ.

وكيفَ أنظُرُ إلى فعلي المستحسنِ؛ وهو الذي وَهَبَهُ لي وأطلعني على ما خَفِيَ عن غيري؟! فهل حَصَلَ ذلك بي أو بلُطْفِهِ؟ وكيفَ أشكُرُ توفيقيَ الشُّكْرَ!

ثم أيُّ عالم إذا سَبَرَ أمورَ العلماءِ من القدماءِ لا يحتقرُ نفسَه؟! هذا في صورةِ العلم، فَدَعْ معناهُ.

وأيُّ عابدٍ يسمعُ بالعُبَّادِ، ولا يجري في صورةِ التعبُّدِ؟ فدعِ المعنى.

---

(١) أَكْدَى: أي أَلَحَّ في المسألة.

نسألُ اللهَ ﷻ معرفةً تُعَرِّفُنا أقدارَنا حتى لا يَبْقى للعُجْبِ بِمُحْتَقَر ما عندَنا أثرٌ في قلوبِنا. ونرغبُ إليه في معرفةٍ لعظمتِهِ تُخْرِسُ الألسنَ أنْ تَنْطِقَ بالإدلال، ونرجو من فضلِهِ توفيقاً نلاحظُ به آفاتِ الأعمالِ التي بها نَزْهو حتى تُثْمِرَ الملاحظةُ لعيوبها الخَجَلَ من وجودِها، إنه قريبٌ مجيبٌ.

فصل

[المؤمن الراضي من أطيب الناس عيشاً]

سببُ تنغيصِ العيشِ فواتُ الحظوظِ العاجلةِ.

وليسَ في الدنيا طِيبُ عيشٍ على الدّوام إلّا للعارفِ الذي شَغَلَهُ رضا حبيبِهِ والتزودُ للرحيل إليهِ، فإنّه إن وَجَدَ راحةً في الدنيا؛ استعانَ بها عَلَى طلب الآخرةِ، وإن وَجَدَ شِدَّةً؛ اغتنمَ الصبرَ عليها لِثوابِ الآخرةِ، فهو راضٍ بكلِّ ما يجري عليه، يرى ذلك من قضاءِ الخالقِ، ويعلمُ أنّه مرادُهُ؛ كما قال قائلُهم:

إنْ كـانَ رِضـاكُـمْ فـي سَـهَـري ... فـسـلامُ اللهِ عـلـى وَسَـنـي

فأمّا مَنْ طَلَبَ حَظَّهُ، فإنَّه يقلقُ لِفَوْتِ مُرادِهِ، ويتنغّصُ لبعدِ ما يشتهي، فلوِ افتقرَ؛ تَغَيَّرَ قلبُه، ولو ذَلَّ؛ تَغَيَّرَ، وهذا لأنّه قائمٌ مع غرضِهِ وهواهُ.

وما أحسنَ قولَ الحُصْرِيِّ: إيشٍ عَلَيَّ مني، وإيشٍ لي فِيَّ؟

وهذا كلامُ عارفٍ؛ لأنّه إنْ كان ينظرْ إلى حقيقةِ المُلْكِيَّة؛ فعبدٌ يتصرفُ فيه مولاهُ؛ فاعتراضُهُ لا وَجْهَ له. وإنْ نظرَ أنَّ النفسَ كالمُلْكِ لهُ، فقد خرجتْ عن يَدِهِ من يوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

والله، لو قالَ المالكُ سبحانه: إنّما خلقتُكم لِيُسْتَدَلَّ على وجودي، ثم أنا أُفْنيكُم، ولا إعادةَ. لكانَ يجبُ على النفوسِ العارفةِ به أنْ تقولَ: سَمْعاً لما قُلْتَ وطاعةً، وأيُّ شيءٍ لَنا فينا حتَّى نتكلَّمَ؟ فكيفَ وقدْ وَعَدَ بالأجرِ الجزيل، والخلودِ في النعيم الذي لا يَنْفَدُ!

لكنَّ طريقَ الوصول تحتاجُ إلى صبرٍ على المشقَّةِ، وما يبقى لِتَعَبِ رَمْلِ زَرُود[١] أثرٌ إذا لاحَ الحَرَمُ.

فالصبرَ الصبرَ يا أقدامَ المبتدئينَ! لاحَ المنزِلُ. والسرورَ السرورَ يا متوسطينَ! ضُرِبَتِ الخِيَمُ. والفرحَ الكاملَ يا عارفينَ! قد تُلقِّيتُم بالبشائِرِ...

زالتْ واللهِ أثقالُ المعاملاتِ عنكُم، فكانتْ معرفتُكُم بالمبتلي حلاوةً أعْقَبَتْ شُرْبَةَ المجاهدةِ، فلم يَبْقَ في الفم للمُرِّ أثرٌ... تَخايلوا قُرْبَ المناجاةِ، ولَذَّةَ الحضورِ، ودوار كؤوسِ الرِّضا عنكُم؛ فقد أخذتْ شمسُ الدنيا في الأفول:

ما بَيْننا إلّا تَصَرُّ ـمُ هذه السَّبْعِ البَوَاقي
حَتَّى يَطولَ حَديثُنا بصُنوفِ ما كُنَّا نُلاقي

فصل

[الدنيا ليست دار نعيم]

تفكّرتُ في قول شيبانَ الراعي لسفيانَ: يا سفيانُ عُدَّ منعَ اللهِ إياكَ عطاءً منه لكَ، فإنّه لم يمنعْكَ بُخلاً، إنما منعكَ لُطْفاً. فرأيتُه كلامَ من قد عَرَفَ الحقائقَ.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللّهمَّ اجْعلْ رِزْقَ آلِ محمدٍ قوتاً**»[٢].

ومتى كَثُرَ؛ تَشتَّتَ الهمُّ.

فالعاقلُ مَنْ عَلِمَ أنَّ الدنيا لمْ تُخْلَقْ للتَّنعيم؛ فَقَنِعَ بدفع الوقتِ على كلِّ حال.

(١) رمال بطريق الحاج من الكوفة.
(٢) رواه مسلم في الزكاة: باب (٤٣) رقم (١٠٥٥/١٢٦)، وفي الزهد: باب (١) رقم (١٠٥٥/١٨)، والترمذي (٢٣٦١)، وابن ماجه (٤١٣٩)، وأحمد (٢/ ٤٤٦ و٤٨١).

فصل

[اعمل واجتهد وإياك أن تتعلل بأمر لا حجة لك فيه]

رأيتُ جماعةً من الخَلْقِ يتعللونَ بالأقدارِ، فيقولُ قائِلهم: إنْ وُفِّقْتُ؛ فعلتُ!

وهذا تَعلُّلٌ باردٌ، ودفعٌ للأمرِ بالرَّاحِ، وهو يُشيرُ إلى رَدِّ أقوال الأنبياءِ والشرائع جميعِها؛ فإنه لو قالَ كافرٌ للرسولِ: إنْ وَفَّقَني؛ أسلمتُ! لمْ يُجِبْهُ إلّا بضربِ العُنُقِ.

وهذا من جنس قولِ الخَوَارج لعليٍّ رضي الله عنه: ندعوكَ إلى كتابِ اللهِ. فقالَ: كلمةُ حقٍّ أُريدَ بِها باطلٌ. وكذلك قولُ الممتنعينَ عن الصَّدَقَةِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

ولَعَمري إن التوفيقَ أصلُ الفعل، ولكنَّ التوفيقَ أمرٌ خفيٌّ، والخطابُ بالفعل أمرٌ جليٌّ، فلا ينبغي أن يُتَشاغَلَ عنِ الجليِّ بِذِكْرِ الخفيِّ.

ومما يقطعُ هذا الاحتجاجَ أنْ يُقال لهذا القائل: إنَّ اللهَ سبحانه لم يُكَلِّفْكَ شيئاً إلّا وعندَكَ أدواتُ ذلك الفعل، ولكَ قدرةٌ عليه.

فإنْ كانت القدرةُ عليه معدومةً، والأدواتُ غيرَ مُحصَّلةٍ؛ فلا أمرَ ولا تَكْليفَ. وإنْ كُنْتَ تسعى بتلك الأدواتِ في تحصيلِ غَرَضِكَ وهواكَ؛ فاسْعَ بها في إقامةِ مفروضِكَ!

مثالُ ذلك: أنّكَ تسافرُ في طلب الرِّبْح، وتُسْأَلُ الحَجَّ فلا تَفْعَلُ! ويَثْقُلُ عليكَ الانتباهُ بالليل؛ فلو أردتَ الخروجَ إلى العيدِ؛ انتبهتَ سَحَراً! وتقفُ في بعض أغراضِك مع صديقٍ تحادثُهُ ساعاتٍ، فإذا وقفتَ في الصلاة؛ استعجلتَ وثَقُلَ عليكَ!

فإيّاك إيّاك أن تتعلّقَ بأمرٍ لا حُجَّةَ لكَ فيه. ثمَّ مِنْ نصيبكَ يَنْقُصُ، ومِنْ حَظِّكَ يَضيعُ، فإنّما تُحَرَّكُ لكَ، وإنّما تُحَرَّضُ لنفعِكَ، فبادِرْ؛ فإنكَ مُبادَرٌ بك.

ومما يزيلُ كَسَلَكَ ـ إنْ تأمَّلْتَهُ ـ أنْ تتخايَلَ ثوابَ المجتهدينَ وقد فاتَكَ، ويكفي ذلكَ في توبيخ المقصِّرِ إنْ كانتْ له نفسٌ، فأمّا الميِّتُ الهِمَّةِ؛ فـ «ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ».

كيفَ بكَ إذا قمتَ من قبركَ؛ وقد قُرِّبَتْ نجائِبُ النجاةِ لأقوامٍ وتَعَثَّرْتَ، وأسْرَعَتْ أقدامُ الصالحينَ على الصراط وتَخَبَّطْتَ؟!

هيهات! ذَهَبَتْ حلاوةُ البَطالةِ، وبقيتْ مرارةُ الأسفِ!

وما قَدْرُ البقاءِ في الدنيا بالإضافةِ إلى دوام الآخرةِ؟!

ثم ما قَدْرُ عُمُرِكَ في الدنيا ونِصْفُهُ نومٌ، وباقيه غفلةٌ؟!

فيا خاطباً حورَ الجنةِ وهو لا يملكُ فلْساً مِنْ عزيمةٍ! افتحْ عينَ الفِكرِ في ضوْءِ العِبَرِ لعلّك تُبْصِرُ مواقعَ خطابِكَ، فإنْ رأيتَ تثْبيطاً من الباطِنِ؛ فاستغثْ بعونِ اللُّطْفِ، وتنبَّه في الأسحارِ؛ لعلَّك تتلمَّحُ رَكْبَ الأرباحِ، وتعلَّقْ على قطارِ المستغفرينَ ولو خُطُواتٍ، وانْزِلْ في رِباع المجتهدينَ ولو منزلاً؛ أيَّ منزِلٍ!

فصل

[الإعراض عن نصوص الشرع أصل البدع والضلالات]

نظرتُ في قول أبي الدرداء رضي الله عنه: «ما أعرِفُ شيئاً مما كُنّا عليه اليومَ إلّا القِبلَةَ».

فقلتُ: وا عجباً، كيف لو رآنا اليومَ؛ وما معنا من الشريعة إلّا الرَّسْمُ؟!

والشريعةُ هي الطريقُ. وإنّما تُعرَفُ شريعةُ رسولِ اللهِ ﷺ إمّا بأفعالِهِ أو أقوالِهِ.

وسببُ الانحرافِ عن طريقه ﷺ: إمّا الجهلُ بها؛ فيجري الإنسانُ مع الطبعِ والعاداتِ، وربما اتّخَذَ ما يضادُّ الشريعةَ طريقاً، وقد كانتِ الصحابةُ شَاهَدَتْهُ وسمعتْ منه، فقلَّ أنْ ينحرِفَ أحدٌ منهم عن جادَّتِهِ. إلَّا أنّ أبا

الدرداءِ ﷺ رأى بعضَ الانحرافِ لميلِ الطِّباع؛ فضجَّ، فإنّه قد يعرفُ الإنسانُ الصوابَ؛ غيرَ أنَّ طبعَه يميلُ عنهُ.

وما زالتِ الأحاديثُ المنقولةُ عن الرسولِ ﷺ وأصحابهِ ﷺ يَقِلُّ النّظَرُ فيها إلى أنْ أُعرِضَ عنها بالكُلِّيَّةِ في زمانِنا هذا، وجُهِلَتْ إلّا النّادرَ، واتُّخِذَتْ طرائقُ تُضادُّ الشريعةَ، وصارتْ عاداتٍ، وكانتْ أسهلَ عندَ الخلْقِ من اتِّباع الشريعةِ.

وإذا كانَ عامّةُ منْ يُنسبُ إلى العلم قد أعرَضَ عن علوم الشريعةِ، فكيفَ العوامُّ؟!

ولما أعرضَ كثيرٌ من العلماءِ عن المنقولاتِ؛ ابتدعوا في الأصول والفُروع.

فالأصوليُّونَ تشاغَلوا بالكلام وأخذوهُ من الفلاسفةِ وعلماءِ المَنْطِقِ!

ودخلتْ أيدي الفروعيِّينَ في ذلك، فتشاغلوا بالجَدَلِ، وتَركوا الحديثَ الذي يدورُ عليه الحُكْمُ.

ثم رأى القُصَّاصُ أنَّ النَّفاقَ بالنِّفاقِ، فأقبلَ قومٌ منهم على التلبيسِ بالزُّهْدِ، ومقصودُهُم الدنيا، ورأى جمهورُهُم أنّ القلوبَ تميلُ إلى الأغاني، فأحضروا المطربينَ من القُرَّاءِ، وأنشدوا أشعارَ الغَزَل، وتركوا الاشتغالَ بالحديثِ، ولم يلتفتوا إلى نَهْيِ العوامِّ عن الرِّبا والزِّنى وأمرِهِم بأداءِ الواجباتِ! وصارَ متكلِّمُهُم يقطعُ المجلسَ بِذِكْرِ ليلى والمجنونِ وأبي يزيدَ والحلّاج، والهَذَيانِ الذي لا محصولَ له!

وانفردَ أقوامٌ بالتزهُّدِ والانقطاع، فامتنعوا عن عيادةِ المرضى، والمشي بينَ الناس، وأظهروا التّخاشُعَ، ووضعوا كُتُباً للرِّياضات والتقلُّل من الطعام، وصارتِ الشريعةُ عندهُم كلامَ المتصوِّفةِ!

ومعلومٌ أنّ مَنْ سَبَرَ الشريعةَ؛ لم يَرَ فيها من ذاك شيئاً.

وأمّا الأمراءُ فَجَرَوا مع العادات، وسَمَّوْا ما يفعلونَهُ من القتلِ والقَطْعِ سياساتٍ لم يَعْملوا فيها بمقتضى الشريعةِ! وتَبعَ الأخيرُ في ذلك المتقدِّمُ.

فأينَ الشريعةُ المحمديةُ؟

ومن أين تُعْرَفُ مع الإعراضِ عن المنقولاتِ؟!

نسألُ اللهَ ﷻ التوفيقَ للقيام بالشريعةِ، والإعانَةَ على ردِّ البدع؛ إنه قادرٌ.

فصل

[شهوات النفس لا تنتهي]

كنتُ أسمع عليَّ بنَ الحسينِ الواعظَ يقولُ على المنبرِ: واللهِ لقدْ بكيتُ البارحةَ من يَدِ نفسي.

فبقيتُ أنا أتفكرُ وأقولُ: أيّ شيءٍ قدْ فَعَلَتْ نفسُ هذا حتى يبكي؟ هذا رجلٌ متنعِّمٌ، لهُ الجواري التركيَّاتُ، وقد بَلَغَني أنه تزوجَ في السِّرِّ بجُمْلَةٍ من النساءِ، ولا يَطْعَمُ إلّا الغايةَ من الدجاج والحلوى، ولهُ الدّخْلُ الكثيرُ، والمالُ الوافرُ، والجاهُ العريضُ، والأفضالُ على النّاس، وقدْ حَصَّلَ طَرَفاً من العلم، واستعبدَ كثيراً من العلماءِ بمعروفِهِ، وراحتُهُ دائمةُ النَّدى. فما الذي يُبْكيهِ؟!

فتفكَّرْتُ، فعلمتُ أنّ النفسَ لا تقفُ عندَ حَدٍّ، بل ترومُ من اللَّذاتِ ما لا مُنتهى له، وكُلّما حَصَلَ لها غَرَضٌ؛ بَرَدَ عندَها وطلبتْ سِواه، فيفنى العُمُرُ، ويَضْعُفُ البدنُ، ويقعُ النَّقْصُ، ويَرِقُّ الجاهُ، ولا يَحْصُلُ المرادُ.

وليس في الدنيا أبلهُ ممن يطلُبُ النهايةَ في لَذَّات الدنيا، وليس في الدنيا عَلَى الحقيقةِ لَذَّةٌ، إنما هي راحةٌ منْ مُؤلم.

فالسعيدُ من إذا حصلتْ لهُ امرأةٌ، فمالَ إليها ومالتْ إليه، وعَلِمَ سِتْرها ودينَها، أنْ يَعْقِدَ الخِنْصَرَ على صُحبتها.

وأكثرُ أسبابِ دوام محبَّتِها أنْ لا يُطْلِقَ بَصَرَهُ؛ فمتى أطلقَ بصره أطْمَعَ نفسَه في غيرِها؛ فإنّ الطّمَعَ في الجديد يُنغِّصُ الخُلُقَ، ويَنْقُصُ المخالطةَ، فتميلُ النفسُ إلى المُشاهَدِ الغريبِ، وليسَ لهذا آخِرٌ، ويتكدرُ العيشُ مع الحاضرِ القريبِ؛ كما قال الشاعر:

والمَرْءُ ما دَامَ ذا عَيْنٍ يُقَلِّبُها ... في أعْيُنِ الغِيدِ موقوفٌ عَلَى الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ ما ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَباً بِسُرورٍ عادَ بالضَّرَرِ

فالغضُّ عنِ المُشْتَهياتِ يُطَيِّبُ العيشَ مع المُعاشَرِ.

ومن لم يقبلْ هذا النُّصْحَ؛ تعثَّرَ في طُرُقِ الهوى، وهلَكَ على البارِدِ، وربما سعى لنفسه في العارِ الحاضرِ.

وقبيحٌ بمن عَبَرَ الستينَ أن يتعرضَ بكثرةِ النساءِ، فإن اتّفقَ مع صاحبةِ دينٍ قبلَ ذلك، وليرعَ لها معاشَرَتَها، وليتمِّمْ نَقْصَهُ عندها؛ تارةً بالإنفاقِ، وتارةً بِحُسْنِ الخُلُقِ.

فإن قَدَرَ أنْ يَشْغَلَها بِحَمْلٍ أو ولدٍ عرْقَلَها به، فاسْتَبْقى قُوَّتَه في مدةِ اشتغالِها بذلك.

ومجموعُ ما قدْ بَسَطْتُهُ: حفظ البصرِ عن الإطلاقِ، ويأسُ النفسِ عن التحصيلِ قُنوعاً بالحاصل، خصوصاً مَنْ قدْ عَلَتْ سِنُّهُ.

نسألُ اللهَ ﷻ توفيقاً من فضلِهِ، وعملاً بِمُقتضى العقل والشَّرع؛ إنه قريبٌ مجيبٌ.

فصل

[الاغترار بالسلامة وطول الأمل]

أعجبُ الأشياءِ اغترارُ الإنسانِ بالسّلامةِ وتأميلُهُ الإصلاحَ فيما بعدُ!

وليس لهذا الأملِ مُنتهىً ولا للاغترارِ حدٌّ؛ فكُلَّما أصبحَ وأمسى معافىً؛ زادَ الاغترارُ وطالَ الأملُ.

وأيُّ موعظةٍ أبلغُ من أنْ ترى ديارَ الأقرانِ وأحوالَ الإخوانِ وقبورَ المحبوبين، فتعلمَ أنّكَ بعدَ أيام مثلَهم، ثم لا يَقَعَ انتباهٌ حتَّى يَنْتَبِهَ الغيْرُ بِكَ؟! وهذا واللهِ شأنُ الحمقى! حاشا مَنْ لهُ عقلٌ أنْ يسلُكَ هذا المَسْلَكَ.

بلى واللهِ، إنّ العاقلَ لَيبادِرُ السلامةَ، فيدَّخِرُ من زَمَنِها للزَّمَنِ، ويتزوَّدُ

عندَ القدرةِ على الزّادِ لوقتِ العُسْرَةِ، خُصوصاً لمن قد عَلِمَ أنّ مراتبَ الآخرةِ إنّما تَعْلو بمقدارِ علوِّ العمل لها، وأن التَّدارُكَ بعدَ الفَوْتِ لا يمكنُ.

وقدِّرْ أنّ العاصيَ عُفِيَ عنه، أَيَنالُ مراتبَ العُمَّالِ؟!

ومَنْ أجالَ على خاطرِهِ ذِكْرَ الجنَّةِ التي لا موتَ فيها ولا مرضَ ولا غَمَّ، بلْ لَذَّاتُها متَّصلةٌ من غيرِ انقطاعٍ، وزيادَتُها على قَدْرِ زيادةِ الجِدِّ هاهنا؛ انْتَهَبَ هذا الزمانَ، فلم يَنَمْ إلَّا ضرورةً، ولم يغفلْ عن عمارةِ لحظةٍ.

ومن رأى أنَّ ذنباً قد مضتْ لَذَّتُهُ وبقيت آفاتُهُ دائمةً، كفاه ذلك زاجراً عن مثلِهِ، خُصوصاً الذنوب التي تَتَّصِلُ آثارُها، مثلَ أنْ يزنيَ بذاتِ زوجٍ، فَتَحْمِلَ منه، فَتُلْحِقَ بالزوجِ، فَيُمْنَعَ الميراثَ أهلُه، ويأخُذَهُ من ليسَ مِن أهلِهِ، وتتغيَّرَ الأنسابُ والفُرُشُ، ويَتَّصِلَ ذلك أبداً، وكلُّه شُؤْمُ لحظةٍ.

فنسألُ اللهَ ﷻ توفيقاً يُلْهِمُ الرّشادَ، ويمنعُ الفسادَ، إنّه قريبٌ مجيبٌ.

فصل

[أفعال الله سبحانه لا تقاس بأفعال خلقه]

اعلم أنّ ذاتَ الله سبحانه لا تُشبهُ الذواتِ، وصفاتِهِ ليستْ كالصفاتِ، وأفعالَهُ لا تُقاسُ بأفعالِ الخلْقِ ولا تُعَلَّل، فإنّا لا نَصِلُ إلى معرفةِ حِكمَتِهِ.

والذي يُوجِبُ علينا التّسليمَ أنَّ حِكمتَهُ فوقَ العقلِ، فهي تَقْضي على العقولِ والعقولُ لا تقْضي عليها.

ومَنْ قاسَ فِعْلَهُ على أفعالِنا؛ غَلِطَ[1].

وإنما هَلَكَتِ المعتزلةُ من هذا الفَنِّ.

(١) ولا يقصد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن أفعاله سبحانه لا تعلل إطلاقاً وأن حكمته لا تدركها العقول أبداً، بل يريد أن ذلك في الأشياء التي تحار فيها العقول، فلا دواء عندئذ إلّا التسليم بعد الإيمان بأصل الحكمة. انظر: «المطبوع» هامش صفحة (٥٣٦).

فإن العقلَ قدْ قَطَعَ بالدّليل الجليِّ أنّه حكيمٌ وأنّه مالكٌ، والحكيمُ لا يفعلُ شيئاً إلّا لِحِكمَةٍ؛ غيرَ أنَّ تلكَ الحكمةَ لا يبلُغُها العقلُ.

ألا ترى أنّ الخَضِرَ خَرَقَ سفينةً وقَتَلَ شخصاً، فأنْكَرَ عليه موسى عليه السلام بِحُكْم العِلم، ولم يَطَّلِعْ على حِكْمَةِ فِعلِه، فلما أظْهَرَ له الحكمةَ؛ أذْعَنَ؟

وللهِ المثلُ الأعلى.

فإيّاك أنْ تَقيسَ شيئاً مِنْ أفعالِهِ على أفعالِ الخَلْق، أو شيئاً مِنْ صفاتِهِ، أو ذاتَهُ تبارك وتعالى. فإنَّك إنْ حفظت هذا سلمتَ من التشبيهِ، ونجوتَ منَ الاعتراض الذي أخرجَ قوماً إلى الكفرِ حتّى طَعَنوا في الحكمةِ.

وأوَّلُ القوم إبليسُ؛ فإنّه رأى تقديمَ الطينِ على النارِ ليسَ بِحكمةٍ، فنسيَ أنه إنما عَلِمَ ذلك ـ بزعمِهِ ـ بالفهم الذي وُهِبَ له، والعقل الذي مُنِحَهُ، فنسي أنّ الواهبَ أعلمُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فقلتُ: العجبُ من الذي يَدَّعي وجود العقلَ ولا عَقْلَ عندَه!

فصل

[ضرورة الرضا والتسليم بتدبير الله]

ينبغي للمؤمنِ باللهِ سبحانه أنْ لا يعترضَ على الله سبحانَه في شيءٍ؛ لا في باطنِهِ، ولا في ظاهِرِهِ، ولا يطلبَ تعليلاتِ أفعالِهِ كلِّها؛ فإن المُتكلِّمينَ أعرضوا عن السُّنَنِ، وتكلَّموا بآرائِهم؛ فما صَفَى لهم شِرْبٌ، بدليل اختلافِهم. وكذلك إضمارُ القِياسِ؛ فإنّهم لمّا أعْمَلوهُ؛ جاءتْ أحاديثُ تُعَكِّرُ عليهم.

والصّوابُ التعليلُ لما يُمْكِنُ، والتسليمُ لما يَخْفَى.

وكذلك سؤالُ الحقِّ سبحانَه؛ فإذا دعاهُ المؤمنُ، ولمْ يَرَ إجابةً؛ سلَّمَ، وفوَّضَ، وتأوَّلَ للمنع، فيقول: ربّما يكونُ المنعُ أصلحُ، وربّما يكونُ لأجلِ ذُنوبي، وربما يكونُ التأخيرُ أوْلَى، وربما لم يكنْ هذا مصلحةً...

وإذا لَمْ يَجِدْ تأويلاً؛ لَمْ يَخْتَلِجْ في باطنِهِ نوعُ اعتراضٍ، بل يَرى أنّه قد تعبَّدَ بالدعاءِ، فإنْ أنْعَمَ عليه؛ فبِفَضْل، وإنْ لم يُجِبْ؛ فمالِكٌ يفعلُ ما يشاءُ.

على أنّ أكْثَرَ السؤالِ إنّما يقعُ في طلبِ أغراضِ الدّنيا.

فَلْيَكُنْ هَمُّ العاقلِ في إقامةِ حقِّ الحقِّ، والرِّضا بتدبيرِهِ، فمتى أقْبَلْتَ عليه؛ أقْبَلَ على إصلاح شأنِكَ. وإذا عرفْتَ أنّه كريمٌ؛ فَلُذْ بِهِ، ومتى أقْبَلْتَ على طاعاتِهِ؛ فمُحالٌ أنْ يُجَوِّدَ صانعٌ ويَنْصَحَ في العمل، ثمَّ لا يُعْطى الأُجْرَةَ.

فصل

[درجات الجنة إنما تكون على قدر الاجتهاد هاهنا]

واللهِ إني لأتخايَلُ دخولَ الجنةِ، ودوامَ الإقامةِ فيها من غيرِ مَرَضٍ، ولا آفةٍ تطرأ، بلْ صِحَّةٌ دائمةٌ، وأغراضٌ متّصلةٌ، لا يَعْتَوِرُها مُنَغِّصٌ، في نعيم متجدِّدٍ في كلِّ لحظةٍ، إلى زيادةٍ لا تتناهى... فأطيشُ، ويكادُ الطبعُ يضيقُ عن تخيُّلِ ذلك، لولا أنَّ الشرعَ قد ضَمِنَهُ.

ومعلومٌ أنّ تلكَ المنازلَ إنّما تكونُ على قَدْرِ الاجتهاد هاهنا.

فوا عجباً من مُضَيِّعٍ لحظةٍ فيها! فتسبيحةٌ تغرسُ له في الجنةِ نخلةً أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها.

فيا أيّها الخائفُ من فَوْتِ ذلك، شَجِّعْ قَلْبَكَ بالرَّجاءِ.

ويا أيّها المنزعجُ لذِكْرِ الموتِ، تلمَّحْ ما بعدَ مرارةِ الشَّرْبَةِ من العافيةِ، فإنّه مِن ساعةِ خُروجِ الرُّوح، لا بلْ قبلَ خُروجِها تنكشِفُ المنازلُ لأصحابها، فيَهونُ سَيْرُ المجذوبِ للذَّةِ المنتقَلِ إليه... ثم الأرواحُ في جَوْفِ طيرٍ تَعْلُقُ في أشجارِ الجنَّة.

فكلُّ الآفاتِ والمخافاتِ في نهارِ الأجل، وقد اصفرَّتْ شَمْسُ العُمُرِ؛ فالبدارَ البدارَ قبلَ الغُروبِ.

ولا مُعينَ يرافِقُ على تلكَ الطَّريقِ إلّا الفِكْرُ إذا جَلَسَ مع العقل فتذاكرا

العواقبَ، فإذا فرغَ ذلك المجلسُ؛ فالنّظَرُ في سِيَرِ المُجِدِّينَ؛ فإنّه يعودُ مُسْتَجْلِباً للفِكْر منها شتى الفضائل، والتوفيقُ مِنْ وراءِ ذلك، ومتى أرادكَ لشيءٍ؛ هيَّأكَ له.

فأمّا مخالطةُ الذينَ ليس عندَهم خَبَرٌ إلّا مِن العاجلةِ فهو مِن أكبرِ أسبابِ مَرَضِ الفَهْم وعِلَل العَقْل، والعُزْلَةُ عن الشرِّ حِمْيَةٌ، والحِمْيَةُ سببُ العافيةِ.

فصل

[الإعراض عن الله ﷻ سبب الهموم والغموم]

رأيتُ سببَ الهُموم والغُموم: الإعراضَ عن اللهِ ﷻ، والإقبالَ على الدّنيا. وكُلَّما فاتَ منها شيءٌ؛ وَقَعَ الغمُّ لِفَوَاتِهِ.

فأمّا مَن رُزِقَ معرفةَ اللهِ تعالى؛ استراحَ؛ لأنّه يستغني بالرِّضا بالقضاءِ، فمهما قُدِّرَ له رَضِيَ، وإنْ دَعا فلم يَرَ أثَرَ الإجابةِ؛ لَمْ يختلِجْ في قلبِهِ اعتراضٌ؛ لأنّه مملوكٌ مُدَبَّرٌ، فتكونُ هِمَّتُهُ في عبادةِ الخالقِ.

ومَنْ هذه صفتُهُ لا يؤثِرُ جَمْعَ مال، ولا مخالطةَ الخَلْقِ، ولا الالتذاذَ بالشَّهَواتِ؛ لأنّه إمّا أنْ يكونَ مُقَصِّراً في المعرفةِ، فهو مقبِلٌ على التعبُّدِ المحضِ، يزهَدُ في الفاني لينالَ الباقي. وإمّا أنْ يكونَ له ذوقٌ في المعرفة، فإنّه مشغولٌ عنِ الكلِّ بصاحبِ الكلِّ، فتراهُ متأدِّباً في الخَلْوَةِ به، مستأنِساً بمناجاتِهِ، مُستوحِشاً مِن مخالطةِ خَلْقِهِ، راضياً بما يُقدِّرُ له... فعيشُهُ معه كعيشِ محبٍّ قَدْ خلا بحبيبِهِ، لا يريدُ سواهُ، ولا يهتمُّ بغيرِهِ.

فأمّا مَن لم يُرزقْ هذه الأشياءَ فإنّه لا يزالُ في تنغيصٍ، متكدِّرَ العيشِ؛ لأنَّ الذي يطلُبُهُ من الدّنيا لا يقدِرُ عليه، فيبقى أبداً في الحَسَراتِ، مع ما يفوتُهُ مِن الآخرةِ بسوءِ المعاملةِ.

نسألُ اللهَ ﷻ أنْ يَسْتَصْلِحَنا له، فإنه لا حولَ ولا قوةَ إلّا بهِ.

فصل

[العاقل من قدّر عواقب الأمور واحتاط لها]

أبلهُ الناس مَن عَمِل على الحال الحاضرةِ، ولم يتصوَّرْ تَغَيُّرَها ولا وقوعَ ما يجوزُ وقوعُهُ.

مثالُهُ: أنْ يَغْتَرَّ بدولةٍ، فيعملَ بمقتضى مُلْكِهِ؛ فإذا تغيَّرَتْ هَلَكَ.

وربّما عادى خَلْقاً؛ اغتراراً بأنه مُتسلِّطٌ أو أنّه صاحبُ سلطانٍ؛ فإذا تغيَّرَتْ حالُه؛ أكَلَ كَفَّهُ نَدَماً عند فوات التَّدارُكِ.

وكذلكَ مَن لهُ مالٌ يبذِّرُهُ؛ سكوناً إلى وجود المال، وينسى حالَه عندَ العدم! ومن يتناولُ الشّهَواتِ ويُكثِرُ من المآكل والمشاربِ والنِّكاح؛ ثقةً بعافيتِهِ، وينسى ما يَعْقُبُ ذلك من الأمراضِ والآفاتِ.

فالعاقلُ لا يدخُلُ في شيءٍ حتى يُهَيِّئَ الخروجَ منه؛ فإن الأشياءَ لا تثبُتُ، والتغيُّرَ مقرونٌ بكلِّ حالٍ.

وكذلك يعطي مالَهُ ولدَهُ ثم يبقى كَلّاً عليه، فيتمنَّى الولدُ هلاكَه، وربّما علَّ[1] بِهِ في النَّفَقَةِ.

وكذلكَ قد يثقُ بالصديقِ، فَيَبُثُّ أسرارَه إليه، فربما أظهرَ ذلك، فكان منها ما يوجبُ هلاكَه.

وكذلكَ يغترُّ الإنسانُ بالسّلامةِ، وينسى طُروقَ الموتِ، فيأتيهِ بَغْتَةً، فَيَبْهَتُهُ، وقدْ فاتَ الاستدراكُ، ولم يَبْقَ إلّا الندمُ.

فالعاقلُ من كانتْ عينُهُ مراقبةً للعواقبِ، مُحترزةً مما يجوزُ وقوعُه، عاملةً بالاحتياطِ في كلِّ حال، حافظةً للمال والسِّرِّ، متأهِّبةً للرحيل، متهيِّئةً للنقلةِ... هذه صفةُ أهل الحَزْم.

---

(١) علّ به في النفقة: أي قتر عليه، وأعطاه شيئاً بسيطاً منها يتعلل به عن الكل.

فصل

[التسليم واليقين سفينة النجاة]

من أعجبِ الأمورِ طَلَبُ الاطِّلاع على تحقيقِ العِرْفانِ لذاتِ اللهِ ﷻ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وهيهاتَ، ليس إلّا المعرفةُ بالجُملةِ.

ولقد أوغلَ المتكلمونَ، فما وَقَعوا بشيءٍ، فرجَعَ عقلاؤُهُم إلى التسليم.

وكذلك أصحابُ الرأي، مالوا إلى القياس؛ فإذا أشياءُ كثيرةٌ بعكسِ مرادِهِم، فلم يجدوا ملجأً إلّا التسليمَ، فسمَّوا ما خالَفَهُمْ: استحساناً.

فالفقيهُ من علَّلَ بما يمكنُ، فإذا عَجَزَ؛ استطرحَ للتسليم.

هذا شأنُ العبيدِ. فأمّا من يقولُ: لِمَ فَعَلَ كَذا؟ وما معنى كَذا؟ فإنّه يطلُبُ الاطلاعَ على سِرِّ الملِكِ، وما يجدُ إلى ذلك سبيلاً لوجهين:

أحدُهُما: أنّ الله تعالى سَتَرَ كثيراً من حِكَمِهِ عن الخَلْقِ.

والثاني: أنّه ليس في قُوى البشرِ إدراكُ حِكَم الله تعالى كلِّها.

فلا يبقى مع المعترضِ سوى الاعتراضِ المُخرج إلى الكفر.

فصل

[أثر المخالطة على العالِم]

مَن رَزَقَهُ اللهُ تعالى العلمَ والنَّظَرَ في سِيَر السَّلفِ؛ رأى أنَّ هذا العالَمَ ظُلْمَةٌ، وجمهورَهم على غيرِ الجادَّةِ، والمخالطةَ لهم تضرُّ ولا تنفعُ.

فالعجبُ لِمَنْ يترخّصُ في المخالطةِ، وهو يعلمُ أنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ يَسْرِقُ من المخالِطِ.

وإنّما ينبغي أن تَقَعَ المخالطةُ للأرفع والأعلى في العلم والعمل؛ ليُستفادَ منهُ، فأمّا مخالطةُ الدُّونِ فإنّها تؤذي؛ إلّا أن يكونَ عامِّيّاً يَقْبَلُ مِنْ مُعَلِّمِهِ، فينبغي أنْ يُخالَطَ بالاحتراز.

وفي هذا الزمانِ إنْ وقعتِ المخالطةُ للعوامِّ؛ عكَّرَتِ الفؤادَ، فهم ظُلْمَةٌ مستحكِمةٌ، فإذا ابتُلِيَ العالِمُ بمخالطتِهِم؛ فليشمِّرْ ثيابَ الحذرِ، ولتكنْ مجالستُهُ إيَّاهُم للتّذْكِرَةِ والتأديبِ فحسبُ.

وإن وقعتِ المخالطةُ للأمراءِ؛ فذاك تعرُّضٌ لفسادِ الدينِ؛ لأنه إن تَوَلَّى لهم ولايةً دنيويةً؛ فالظلمُ من ضروراتها لغلبةِ العادةِ عليهم والإعراضِ عن الشَّرْع. وإنْ كانتْ ولايةً دينيةً، كالقضاءِ؛ فإنهم يأمرونَه بأشياءَ لا يكادُ يمكِنُهُ المراجعةُ فيها، ولو راجَعَ لَمْ يَقْبَلوا، وأكثرُ القوم يخافُ على منصبِهِ، فيفعلُ ما أُمِرَ بِهِ وإنْ لم يَجُزْ.

وربما رأيتُ في هذا الزمانِ أقواماً يبذُلونَ المالَ ليكونوا قضاةً أو شُهوداً، ومقصودُهُم الرِّفْعَةُ.

ثم أكثرُ الشُّهودِ يشهدُ على مَن لا يعرِفُه، ويقول: إنّه معروفٌ! ويدري أنه كذابٌ! وإنما عَرَّفَ لأجل حَبَّةٍ يُعْطاها.

وكم قد وقعتْ شهادةٌ على غيرِ المشهودِ عليه.

وإن وقعتِ المخالطةُ للمتزهِّدين؛ فأكثرُهُم على غيرِ الجادَّةِ، وعلى خلافِ العلم، قد جعلوا لأنفُسِهِم نواميسَ، فلا يتنَسّمونَ، ولا يخرجون إلى سوقٍ، ويُظهرونَ التخشُّعَ الزائدَ، وكله نفاق.

وبَنَتِ الصوفيةُ أربطةً، فهي خوارجُ على المساجدِ، وهي دكاكينُ كريهةٌ يقعدُ فيها الكُسالى عن الكَسْبِ مع القُدْرَةِ عليه، ويتعرّضونَ بالقعودِ للصدقاتِ ولأحوالِ الظّلَمةِ، وقدْ أراحوا أنفسَهم من إعادةِ العلم، وأكثرُهُم لا يصلِّي نافلةً ولا يقومُ الليلَ، بل همُّهُم المأكولُ والمشروبُ والرقصُ.

وقدِ اتَّخذوا سُنناً تخالف الشريعةَ، فهم يلبسونَ المرقَّعَ لا من فقرٍ، وهذا قبيحٌ؛ لأنّه ليس عندهم من أماراتِ الزُّهْدِ سوى الملبسِ الدُّون، فثيابُهُم تصيحُ: نحنُ زُهَّادٌ، وباقي أفعالِهِم المستورةِ تفضَحُهم إذا اطُّلِعَ عليها.

فالمطبخ دائرٌ، والحلوى كثيرةٌ، والدَّعةُ، والكِبْرُ حاصلٌ بذلك الزِّيِّ.

وقد قال النبي ﷺ لمالكِ بنِ نضلة وقد رآه أشعث الهيئة: «**أَمَا لَكَ مَالٌ؟**». قَالَ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ آتَانِي اللهُ ﷻ. قَالَ: «**فَإِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى عَلَيْهِ**»(١).

ومِن أخلاقِهِم تنفيرُ الناسِ عن العلم، ويزعمون أنْ لا حاجةَ إلى الوسائِط، وإنما هو قلبٌ وربٌّ!

ولهم مِن الأقوال والأفعال المنكراتِ ما قد ذكرتُه في «تلبيس إبليس».

آهٍ لو كان الزمان عُمَرُ؛ لاحتاجَ كلَّ يوم إلى مائةِ دِرَّةٍ(٢)، لا؛ بل كان يَستعملُ السيفَ في هؤلاء الخوارج.

وهُم داخلَ البلدِ لا قدرةَ للعلماءِ عليهِم، إذْ قولُهُم فيهم لا يُقْبَلُ.

فمن رَزَقَهُ الله سبحانه النَّظَرَ في سِيَرِ السلفِ، ووفَّقَه للاقتداءِ بِهِم، آثَرَ أنْ يعتزِلَ عن أكثرِ الخَلْقِ، ولا يخالِطَهُم، فإنه مَن خالط أوذيَ، ومنْ دارى لم يسلمْ من المداهنةِ. فالنُّصْحُ اليومَ مردودٌ.

فصل

[لا تبادر الأعداء والحسّاد بالمخاصمة]

مِن البَلَهِ أنْ تبادِرَ عدوّاً أو حسوداً بالمخاصمة.

وإنما ينبغي إن عرفتَ حالَه أن تُظْهِرَ له ما يوجبُ السلامةَ بينكما. إنِ اعتذرَ قَبِلْتَ، وإن أخَذَ في الخُصومةِ صفحتَ، وأريتهُ أنَّ الأمرَ قريبٌ، ثم تُبطِنُ الحذرَ منهُ، فلا تثقُ به في حالٍ، وتتجافاهُ باطناً، مع إظهارِ المخالطةِ في الظاهرِ.

فإذا أردتَ أنْ تُؤذِيَهُ، فأولُ ما تؤذيهِ به إصلاحُك لنفسك، واجتهادُك في علاج ما يرفعك.

---

(١) (صحيح) رواه أبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦)، وأحمد (٣/ ٤٧٣ و٤٧٤)، والنسائي (٥٢٢٣ و٥٢٢٤).

(٢) الدِّرَّة، بالكسر: التي يُضرب بها، وفي التهذيب: الدِّرَّة دِرَّةُ السلطان التي يضرب بها.

ومن أعظم العقوبة له العفوُ عنهُ للهِ.

وإنْ بالغَ في السَّبِّ فبالغْ في الصَّفْحِ؛ تُنِبْ عنكَ العوامَّ في شَتْمِهِ، ويحمدُكَ العلماءُ على حِلمكَ.

وما تؤذيهِ به من ذلك أضعافٌ وخيرٌ ممَّا تؤذيه به مِن كلمةٍ إذا قلتَها له سمعتَ أضعافَها.

ثم بالخُصومة تُعْلِمُهُ أنَّك عدوَّه؛ فيأخذُ الحذرَ، ويبسُطُ اللسانَ، وبالصفح يجهلُ ما في باطنِكَ، فيمكِنُكَ حينئذٍ أنْ تشتفيَ منه. أمّا أنْ تلقاهُ بما يؤذي دينَك، فيكون هو الذي قد اشتفى منك.

وما ظَفِرَ قطُّ من ظَفِرَ به الإثمُ، بل الصفحُ الجميلُ.

وإنما يقعُ هذا ممن يرى أنّ تسليطَه عليه: إمّا عقوبةٌ لِذَنْبٍ، أو لرفعِ درجةٍ، أو للابتلاءِ، فهُو لا يرى الخصمَ، وإنما يرى القُدرةَ.

فصل

[لا تملّ من الدعاء فإن له أثراً]

إذا وَقَعْتَ في محنةٍ يصعُبُ الخلاصُ منها؛ فليسَ لك إلّا الدعاءُ واللَّجأُ إلى اللهِ بعدَ أنْ تُقَدِّمَ التوبةَ من الذنوبِ؛ فإنَّ الزّلَلَ يوجِبُ العقوبةَ، فإذا زالَ الزّلَلُ بالتوبةِ من الذنوبِ؛ ارتفعَ السببُ.

فإذا تُبْتَ وَدَعَوْتَ ولم تَرَ للإجابةِ أثراً؛ فتفقّدْ أمرَكَ، فربّما كانتِ التوبةُ ما صَحَّتْ، فصحِّحْها، ثم ادعُ، ولا تَمَلَّ من الدّعاءِ؛ فربّما كانتِ المصلحةُ في تأخيرِ الإجابةِ، وربّما لم تكنِ المصلحةُ في الإجابةِ، فأنتَ تُثابُ وتُجابُ إلى منافِعِكَ، ومِن منافِعِكَ أنْ لا تُعْطى ما طَلَبْتَ، بل تُعَوَّضَ غَيْرَهُ.

فإذا جاء إبليسُ، فقال: كم تدعوهُ ولا ترى إجابةً؟ فقلْ: أنا أتعبَّدُ بالدعاءِ، وأنا موقنٌ أنّ الجوابَ حاصِلٌ؛ غيرَ أنّه ربّما كان تأخيرُهُ لبعضِ المصالح عليَّ مناسِبٌ، ولو لم يحصُلُ؛ حَصَلَ التعبُّدُ والذّلُّ.

فإيّاك أنْ تسألَ شيئاً إلّا وتقرِنه بسؤالِ الخِيَرَةِ؛ فَرُبَّ مطلوبٍ من الدنيا كان حصولُه سبباً للهلاكِ.

وإذا كنتَ قد أُمرتَ بالمشاورةِ في أمورِ الدنيا لجليسِكَ لِيُبَيِّنَ لك في بعض الآراءِ ما يُعْجِزُ رأيَكَ وترى أنَّ ما وَقَعَ لك لا يَصْلُحُ؛ فكيفَ لا تسألُ الخيرَ ربَّكَ وهو أعلمُ بالمصالح؟! والاستخارة من حُسْنِ المشاورةِ.

فصل

[أقسام الناس بين العلم والجهل]

نظرتُ إلى الناسِ فرأيتُهم ينقسمونَ بين عالم وجاهل:

فأمّا الجهّالُ فانقسموا:

فمنهم سلطانٌ قد رُبِّيَ في الجهل ولُبْسِ الحريرِ وشُرْبِ الخُمور وظُلْم الناسِ، وله عُمَّالٌ على مثل حالِهِ، فهؤلاءِ بمعزِل عن الخيرِ بالجملةِ.

ومنهم تُجَّارٌ؛ هِمَّتُهُمُ الاكتسابُ وجمعُ الأموال، وأكثرُهُم لا يؤدّي الزكاة، ولا يتحاشى من الرِّبا؛ فهؤلاءِ في صُوَرِ الناسِ.

ومنهم أربابُ معاشٍ؛ يطفِّفونَ المكيالَ، ويُخْسِرونَ الميزانَ، ويَبخسونَ الناسَ، ويتعاملونَ بالرِّبا، وهم في الأسواق طولَ النهارِ، لا هِمَّةَ لهم إلّا ما هم فيه، فإذا جاءَ الليلُ؛ وَقَعوا نياماً كالسُّكارى، فَهِمَّةُ أحدِهِم ما يأكلُ ويلتذُّ به، وليس عندهم من الصلاةِ خَبَرٌ، فإنْ صلَّى أحدُهُم؛ نَقَرَها أو جَمَعَ بينَهما؛ فهؤلاءِ في عدادِ البهائم.

ومنهم من يطلُبُ اللَّذاتِ ولا يساعدُهُ المعاشُ، فيخرُجُ إلى قَطْع الطريقِ! وهؤلاء أحمقُ الجماعةِ؛ إذْ لا عَيْشَ لهم؛ فإنِ الْتَذُّوا لحظةً بأكلٍ أو شُرْبٍ، فحرّكتِ الريحُ قَصَبَةً؛ هَرَبوا خوفاً من السلطانِ، وما أقلَّ بقاءَهم، ثم القتلُ والصلبُ، مع إثم الآخرةِ.

ومنهم أربابُ قُرىً قد عمَّهُمُ الجهلُ، وأكثرُهُم لا يتحاشى من نجاسةٍ؛ فهم في زمرةِ البقرِ.

ورأيتُ النساءَ ينقسمنَ أيضاً، فمنهن التي تَبْغي، ومنهنّ الخائنةُ لزوجها في مالِهِ، ومنهنّ من لا تصلّي ولا تعرفُ شيئاً من الدِّين؛ فهؤلاءِ حَشْوُ النار؛ فإذا سَمِعْنَ موعظةً؛ فإنّها كما مَرَّت على حجرٍ، وإذا قُرِئَ عندهنَّ القرآنُ؛ فكأنهنَّ يسمعنَ السَّمَرَ.

وأما العلماءُ:

فالمبتدئونَ منهم: فيهم من يقصِدُ بالعلم المباهاةَ لا العملَ، ظنّاً أنَّ العلمَ يدفعُ عنه، وإنما هو حُجَّةٌ عليه.

وأما المتوسِّطونَ والمشهورونَ: فأكثرُهُم يغشى السلاطينَ ويسكُتُ عن إنكارِ المنكر.

وقليلٌ من العلماء من تَسْلَمُ له نِيَّتُهُ ويَحْسُنُ قصدُهُ.

فمن أرادَ اللهُ به خيراً؛ رَزَقَهُ حُسْنَ القَصْدِ في طلب العلم، فهو يحصِّلهُ لينتفعَ به ويَنْفَعَ، ولا يبالي بعملٍ مما يدُلُّ عليه العلمُ؛ فتراهُ يتجافى أربابَ الدنيا، ويحذرُ مخالطةَ العوامِّ، ويقنعُ بالقليل؛ خوفاً من المخاطرةِ في الدنيا في تحصيل الكثيرِ، ويؤثِرُ العزلَةَ، فليس مذكِّراً للآخرةِ مثلُها.

وليس على العالِمِ أضرُّ من الدخول على السلاطينِ، فإنّه يُحَسِّنُ للعالِمِ الدنيا ويهوِّنُ عليه المنكَرَ، وربّما أرادَ أن ينكِرَ فلا يَصِحُّ له.

فإنْ عَدِمَ القناعةَ وغَلَبَتْهُ نفسُهُ في طلبِ فضولِ الدنيا؛ سُلِّم عليهِ؛ لأنه يتعرضُ بأربابها، وإنّ الإنسانَ ليمشي في السوق ساعةً فينسى بما يَرى ما يعلمُ، فكيفَ إذا انضمَّ إلى ذلك التردُّدُ إلى الأغنياءِ والطمعُ في أموالِهِم؟!

فأمّا الوَحْدَةُ فإنّها سببُ رجوعِ القلبِ، وجَمْعِ الهَمِّ، والنظرِ في العواقبِ، والتهيُّؤِ للرحيلِ، وتحصيل الزّاد؛ فإذا انضمّتْ إليها القناعةُ؛ جلبتِ الأحوالَ المستحسنةَ.

ولا تحسُنُ اليومَ المجالسةُ إلّا لكتابٍ يحدِّثُكَ عن أسرارِ السَّلَفِ، فأما

مجالسةُ العوامِّ ففتنةٌ للدِّين، إلّا أن يَحْتَرِزَ في مجالِسِهم، ويمنَعَهم من القول، فيقولُ هو، ويكلِّفُهُمُ السماعَ، ثم يستوفزُ للبعدِ عنهم.

ولا يمكنُ الانقطاعُ الكلّيُّ إلّا بقطع الطّمع، ولا ينقطعُ الطمعُ إلّا بالقناعةِ باليسيرِ، أو يَتَّجِرُ بتجارةٍ، أو أن يكونَ له عقارٌ يستغلُّه، فإنه متى احتاجَ تشتَّتَ الهمُّ، ومتى انقطعَ العالِمُ عن الخَلْقِ وقَطَعَ طمعَهُ فيهم وتوفَّرَ على ذِكْرِ الآخرةِ؛ فذاك الذي ينفعُ ويُنْتَفَعُ به. واللهُ الموفقُ.



[العلم مصباح في طريق الجنة]

من تأملَ بعينِ الفكر دوامَ البقاءِ في الجنةِ؛ في صفاءٍ بلا كَدَرٍ، ولذّاتٍ بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوبٍ للنفسِ، والزيادةِ ممّا لا عينَ رأتْ، ولا أُذُنَ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، من غير تغييرٍ ولا زوال. إذْ لا يُقالُ: ألفُ ألفِ سنةٍ، ولا مائةُ ألفِ ألفٍ، بل ولو أنّ الإنسانَ عَدَّ ألوف ألوف السنينَ لانْقَضى عددُه وكان له نهايةٌ، وبقاءُ الآخرةِ لا نفادَ له.

إلّا أنه لا يحصُلُ ذلك إلا بنقدِ هذا العُمُرِ.

وما مقدارُ عُمُرٍ غايتُهُ مائةُ سنةٍ، منها خمسةَ عشرَ صبْوَةٌ وجَهْلٌ، وثلاثونَ بعدَ السبعينَ ـ إنْ حَصَلَتْ ـ ضَعْفٌ وعَجْزٌ، والتوسُّط نصفُهُ نومٌ، وبعضُه زمانُ أكل وشربٍ وكسبٍ، والمتَحلُ منه للعباداتِ يسيرٌ.

أفلا يُشْتَرى ذلك الدائمُ بهذا القليل؟

إنّ الإعراضَ عن الشُّروع في هذا البيع والشراءِ لَغَبْنٌ فاحشٌ في العقل، وخللٌ داخلٌ في الإيمانِ بالوعدِ.

فإنَّ من يدري كيفَ يُعْقَدُ البيعُ بالعِلم هو الذي يدُلُّ على الطريقِ، ويعرِّفُ ما يصلُحُ لها، ويُحذِّرُ من قُطّاعِها.

ولقد دخل إبليسُ على طائفةٍ من المتزهدين بآفاتٍ، أعظمُها أنّه صرفَهم

عن العلم. فكأنّه شَرَعَ في إطفاءِ المصباح لِيَسْرِقَ في الظُّلمةِ، حتى إنه أخذَ قوماً من كبارِ العلماءِ فَسَلَك بهم من ذلك ما يَنهى عنه العلمُ.

فرأيتُ أبا حامدٍ الطوسيَّ يَحْكي عن نفسِهِ في بعض مصنَّفاتِهِ، قال: شاورتُ مَتْبوعاً مقدّماً من الصّوفية في المواظبةِ على تلاوةِ القرآنِ فَمَنَعَني منه! وقالَ: السبيلُ أنْ تَقْطَعَ علائِقَكَ من الدنيا بالكلِّيَّةِ، بحيثُ لا يلتفتُ قلبُكَ إلى أهلٍ وولدٍ ومال وعلم، بل تصيرُ إلى حالةٍ يستوي عندكَ وجودُ ذلك وعدمُه، ثم تخلو بنفسكَ في زاويةٍ، فتقتصِرُ من العبادةِ على الفرائضِ والرّواتب، وتجلِسُ فارغَ القلبِ، ولا تزالُ تقول: اللهُ، الله... إلى أنْ تنتهيَ إلى حالةٍ لو تركتَ تحريكُ اللسانِ؛ رأيتَ كأنّ الكلمةَ جاريةٌ على لسانِكَ، ثم تنظُرُ ما يُفْتَحُ عليك مما فُتِحَ مثلُه على الأنبياءِ والأولياءِ!![1].

قلتُ: وهذا أمرٌ لا أتعجبُ أنا فيه من الموصي به، وإنما أتعجبُ من

---

(١) جاء ما نصه في صفحة (٣) الجزء الثالث من «إحياء علوم الدين»: فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له.

وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلّا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق!!

الذي قَبِلَهُ مع معرفَتِهِ وفهمِهِ! وهلْ يُقْطَعُ الطريقُ بالإعراضِ عن تلاوةِ القرآن؟! وهل فُتِحَ للأنبياءِ ما فُتِحَ بمجاهدتِهِم ورياضتِهِم؟! وهل يُوثَقُ بما يَظْهَرُ مِنْ هذه المسالِكِ؟!

ثمّ ما الذي يُفْتَحُ؟ أثَمَّ اطلاعٌ على علم الغيبِ أمْ هو وحيٌ؟!

فهذا كلُّه من تلاعُبِ إبليسَ بالقوم، وربما كانَ ما يتخايلُ لهم من أثر الماليخوليا أو مِن إبليسَ.

فعليكَ بالعلم، وانظُرْ في سِيَرِ السلفِ هلْ فَعَلَ أحدٌ منهم مِن هذا شيئاً أو أمَرَ به؟! وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم، فدلّهم على إصلاح البواطنِ وتصفيتها.

نسأل الله ﷻ عِلْماً نافعاً، ودفعاً للعدوِّ مانعاً؛ إنه قادرٌ.



[نصائح في معاملة الحبيب والبغيض]

من أرادَ اصطفاءَ محبوبٍ؛ فالمحبوبُ نوعانِ: امرأةٌ يُقصدُ منها حُسنُ الصورةِ، وصديقٌ يُقصدُ منه حُسنُ المعنى.

فإذا أعجبكَ صورةُ امرأةٍ؛ فتأمّلْ خِلالها الباطنةَ مُدَيْدَةً قبل أن يتعلّقَ القلبُ بها تَعلُّقاً مُحْكَماً؛ فإن رأيتَها كما تحبُّ ـ وأصلُ ذلك كلِّه الدِّينُ؛ كما قال: «فَعَلَيْكَ بذاتِ الدِّين»[1] ـ؛ فَمِلْ إليها واسْتَوْلِدْها.

وكن في ميلك معتدلاً، فإنه من الغلطِ أنْ تُظْهِرَ لمحبوبِك كلَّ المحبّة.

وثم نكتة عجيبة، وهو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة، وهي تحكم بكمال الحب، ثم إن ذلك لا يثبت إليك فتقع وتبقى مقهوراً.

(١) رواه مسلم في الرضاع: باب (١٥) رقم (٧١٥/٥٤)، والترمذي (١٠٨٦)، والنسائي (٣٢٢٦) من حديث جابر.

وهكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد؛ لأنه يتسلط عليك، ويضيع مالك، ويبالغ في الإدلال، ويمتنع عن التعلم والتأدب.

وكذلك إذا اصطفيتَ صديقاً وخَبَرْتَهُ؛ فلا تُخْبِرْهُ بكلِّ ما عندكَ، بل تَعَاهَدْه بالإحسان كما تتعاهَدُ الشجرةَ، فإنها إذا كانت جيدةَ الأصل؛ حَسُنَتْ ثمرتُها بالتّعاهُدِ، ثم كُنْ منه على حَذَرٍ، فقد تتغيّرُ الأحوالُ، وقد قيل:

احْــذَرْ عــدُوَّكَ مَــرَّةً ... واحْــذَرْ صــديـقَــكَ ألْــفَ مَــرَّة

فَـلَـرُبّـمـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـ ... ـقُ فـكـانَ أدْرَى بـالـمَـضَـرّة

وأما إذا أبغضتَ شخصاً لأنّه يسوؤكَ؛ فلا تُظْهِرَنَّ ذلك؛ فإنّك تُنَبِّهُهُ على أخذِ الحذرِ منك وتدعوه إلى المبارزةِ، فيبالغُ في حربِكَ والاحتيالِ عليكَ، بل ينبغي أنْ تُظهرَ له الجميلَ إن قَدَرْتَ، وتبَرَّهُ ما استطعتَ، حتى تنكسرَ معاداتُهُ بالحياءِ من بُغْضِكَ. فإنْ لم تُطِقْ؛ فهجرٌ جميلٌ، لا تُبينُ فيه ما يؤذي، ومتى سمعتَ عنه كلمةً قَذِعَةً؛ فاجعلْ جوابَها كلمةً جميلة؛ فهي أقوى في كَفِّ لسانِهِ.

وكذلك جميعُ ما يُخاف إظهارهُ، فلا تتكلمنَّ به؛ فربما وقعتْ كلمةٌ أسقطتَ بها عِزَّ السلطانِ، فَنُقِلَتْ إليه، فكانتْ سببَ هلاكِكَ، أو عن صديقٍ، فكانتْ سببَ عداوتِهِ، أو صرتَ رهيناً لِمَنْ سَمِعَها خائفاً أنْ يُظْهِرَها.

فصل

[من أضرار علم الكلام]

ليس على العوامِّ أضرَّ من سماعِهم علمَ الكلام.

وإنما ينبغي أن يُحَذَّرَ العوامُّ من سماعِهِ والخوضِ فيه كما يُحَذَّرُ الصبيُّ من شاطئ النهر خوفَ الغَرَقِ.

وربما ظنَّ العاميُّ أنّ له قوةً يدركُ بها هذا، وهو فاسدٌ، فإنّه قد زَلَّ في هذا خلقٌ من العلماء؛ فكيف العوامُّ؟

وما رأيتُ أحمقَ من جُمهور قُصَّاصِ زمانِنا، فإنه يحضُرُ عندَهُم العوامُّ الغُشْمُ، فلا ينهونهمْ عن خمرٍ وزناً وغيبةٍ، ولا يعلمونهم أركانَ الصلاةِ ووظائفَ التعبُّدِ، بل يملؤونَ الزمانَ بذِكْرِ الاستواءَ وتأويل الصفاتِ، وأنّ الكلامَ قائمٌ بالذاتِ، فيتأذّى بذلك من كان قلبُهُ سليماً.

وإنما على العاميِّ أن يؤمنَ بالأصولِ الخمسةِ؛ بالله، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليوم الآخرِ، ويقنعَ بما قال السلفُ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، والاستواءُ حقٌّ، والكيفُ مجهولٌ.

ولِيُعْلَمْ أنّ رسولَ الله ﷺ لم يكلِّفِ الأعرابَ سوى مجرَّدِ الإيمانِ، ولم تتكلم الصحابةُ في الجواهِرِ والأعراضِ. فمن ماتَ على طريقهِم؛ ماتَ مؤمناً سليماً من بدعةٍ. ومن تعرّضَ لساحل البحر وهو لا يحسنُ السباحةَ فالظاهرُ غَرَقُهُ.

فصل

[الإغراق في المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل]

أشدُّ الناس جهلاً منهومٌ باللَّذَّاتِ.

واللّذّاتُ على ضربين: مباحةٌ، ومحظورةٌ:

فالمباحةُ لا يكادُ يحصُلُ منها شيءٌ إلّا بضياع ما هو مهمٌّ من الدِّينِ، فإذا حَصَلَتْ منها حَبَّةٌ؛ قارنَها قنطارٌ من الهمِّ، ثم لا تكادُ تصفو في نفسِها، بلْ مكدِّراتُها ألوفٌ.

وهي تغرُّ الغَمْرَ، وتهدِمُ العُمُرَ، وتُديم الأسى.

ومع هذا؛ فالمنهومُ كلّما عَبَّ مِنْ لَذَّةٍ طَلَبَ أختَها، وقد عَرَفَ جناية الأولى وخيانَتَها... وهذا مرضُ العقل، وداءُ الطبع... فلا يزالُ هذا كذلك إلى أن يُخْتَطَفَ بالموتِ، فيُلْقى على بساطِ ندمٍ لا يُسْتَدْرَكُ.

فالعجبُ ممّن هِمَّتُهُ هكذا مع قِصَرِ العُمُرِ، ثم لا يهتمُّ بآخرتِهِ التي لَذَّتُها

سليمةٌ من شائب، منزهةٌ عن عائبٍ، دائمةُ الأمدِ، باقيةٌ ببقاءِ الأبدِ!

وإنما يحصُلُ تقريبُ هذه بإبعادِ تلكَ، وعِمرانُ هذه بتخريبِ تلك.

فوا عجباً لعاقل حصيفٍ حسنِ التدبيرِ؛ فاتَه النظرُ في هذه الأحوال، وغَفَلَ عن التميزِ بين هذينِ الأمرينِ.

وإن كانتِ اللَّذةُ معصيةً؛ انضمَّ إلى ما ذكرناهُ: عارُ الدنيا، والفضيحةُ بين الخلقِ، وعقوبةُ الحدودِ، وعقابُ الآخرةِ، وغضبُ الحقِّ سبحانه.

باللهِ؛ إنّ المباحاتِ تَشْغَلُ عن تحصيل الفضائل، فكيف بالمحرّماتِ التي هي غايةُ الرذائل؟!

نسألُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تحرّكُنا إلى منافِعِنا، وتزعِجُنا عن خوادِعِنا، إنّه قريبٌ.

فصل

[أسباب تراخي الخلق وعدم أخذهم بالحزم]

تأملتُ على الخلقِ؛ وإذا هم في حالةٍ عجيبةٍ، يكادُ يُقْطَعُ معها بفسادِ العقل!

وذلك أنَّ الإنسانَ يسمعُ المواعظَ، وتُذْكَرُ له الآخرةُ، فيعلَمُ صِدْقَ القائل، فيبكي وينزعجُ على تفريطِهِ، ويعزمُ على الاستدراكِ، ثم يتراخى عملُهُ بمقتضى ما عزم عليه. فإذا قيلَ له: أتشُكُّ فيما وُعِدْتَ به؟ قال: لا واللهِ. فيقالُ له: فاعْمَلْ! فينوي ذلك، ثم يتوقفُ عن العمل. وربّما مالَ إلى لذة محرّمةٍ، وهو يعلمُ النّهي عنها!

ومِن هذا الجنسِ تأخُّرُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا، ولم يكنْ لهمْ عُذْرٌ، وهم يعلمونَ قُبحَ التّأخُّرِ، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرِّطٍ.

فتأملتُ السببَ، مع أنّ الاعتقادَ صحيحٌ والفعلَ بطيءٌ، فإذا له ثلاثةُ أسبابٍ:

أحدها: رؤيةُ الهوى العاجل، فإنّ رؤيتَهُ تَشْغَلُ عن الفكرِ فيما يَجْنيهِ.

والثاني: التسويفُ بالتوبةِ، فلو حضَرَ العقلُ؛ لحذَّرَ من آفاتِ التأخير؛ فربّما هَجَمَ الموتُ ولم تحصُل التوبةُ!

والعجبُ ممن يُجَوِّزُ سَلْبَ روحِهِ قبل مُضِيِّ ساعةٍ، ولا يعملُ على الحزم! غيرَ أنّ الهوى يُطيلُ الأمدَ.

وقد قال صاحبُ الشرع ﷺ: «**صلِّ صلاةَ مُوَدِّع**»[١]. وهذا نهايةُ الدواءِ لهذا الدّاءِ، فإنّه مَن ظنَّ أنه لا يبقى إلى صلاةٍ أخرى؛ جَدَّ واجتهد.

والثالث: رجاءُ الرحمةِ، فيُرى العاصي يقولُ: ربي رحيمٌ، وينسى أنه شديدُ العقابِ. ولو عَلِمَ أنّ رحمتَه ليستْ رِقَّةً ـ إذْ لو كانتْ كذلك لما ذبحَ عصفوراً ولا آلَمَ طفلاً ـ وعقابَهُ غيرُ مأمونٍ ـ فإنه شَرَعَ قَطْعَ اليدِ الشريفة بسرقةِ خمسةِ قراريطَ[٢] ـ، لجدَّ وأنابَ.

فنسألُ الله ﷻ أن يهبَ لنا حزْماً يَبُتُّ المصالحَ جَزْماً.

فصل

[في ذم الزينة وثياب الشهرة التي توجب الكبر]

نظرتُ في قولِ رسولِ اللهِ ﷺ، لمّا لَبِسَ الخاتَمَ ثم رمى به وقالَ: «**شَغَلَنِي هَذَا عَنْكُمْ مُنْذُ الْيَوْمِ، إِلَيْهِ نَظْرَةٌ، وَإِلَيْكُمْ نَظْرَةٌ**»[٣]. وقوله: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[٤]. فرأيتُ أنه لا ينبغي للمؤمن أن يلبَسَ ثوباً معجِباً ولا

---

(١) رواه بن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٥/ ٤١٢)، من حديث أبي أيوب، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٥٢)، والطبراني في «الأوسط» من حديث بن عمر، والحديث في «الصحيحة» (٤٠١).

(٢) القيراط: جُزء من أَجزاء الدينار، وهو نصف عُشره في أكثر البلاد. «لسان العرب».

(٣) **(صحيح)** رواه أحمد (١/ ٣٢٢)، والنسائي (٥٢٨٩)، والطبراني (١٢٤٠٨).

(٤) رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة: باب (١٠) رقم (٢٠٨٨/ ٤٩)، وابن حبان =

شيئاً من زينةٍ؛ لأنّ ذلك يوجبُ النظرَ إلى النفسِ بعينِ الإعجابِ، والنفسُ ينبغي أن تكونَ ذليلةً للخالقِ.

ولما لَبِسَ رسول الله ﷺ خميصةً لها أعلامٌ قالَ: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلَاتِي**»[١].

وهذا كُلُّهُ يوجبُ الإعراضَ عن الزينةِ وما يُحرِّكُ إلى الفخرِ والزّهو والعُجْبِ.

فينبغي للعاقل أن يتنبَّهَ بما قلتُ في دفعِ كلِّ ما يحذرُ من شرِّهِ.

وقد ركبَ ابنُ عمرَ نجيباً، فأعجبَهُ مشيُهُ، فنزَلَ، وقال: يا نافعُ، أخلِهِ في البُدْنِ.

فصل

[الخلوة توجب جمعية القلب والإقبال على الله]

مَن أرادَ اجتماعَ هَمِّهِ وإصلاحَ قلبِهِ؛ فليحذرْ من مخالطةِ الناسِ في هذا الزمانِ، فإنّه قد كانَ يقعُ الاجتماعُ على ما ينفعُ ذِكْرُهُ، فصار الاجتماعُ على ما يَضُرُّ!

وقد جرّبتُ على نفسي مراراً أن أحْصُرَها في بيتِ العُزلةِ، فتجتمعُ هي، ويُضافُ إلى ذلك النظرُ في سِيَرِ السّلفِ، فأرى العزلةَ حِمْيَةً، والنظرَ في سِيَرِ القوم دواءً، واستعمالَ الدواءِ مع الحِمْيَةِ عن التخليطِ نافعٌ.

فإذا فسحتُ لنفسي في مجالسةِ الناسِ ولقائِهِم؛ تشتَّتَ القلبُ المجتمعُ، ووقعَ الذهولُ عمّا كنتُ أراعيهِ، وانتقشَ في القلب ما قد رأتْهُ العينُ، وفي الضمير ما تسمعُهُ الأذُنُ، وفي النفس ما تطمعُ في تحصيله من الدنيا. وإذا جمهورُ المخالطينَ أربابُ غفلةٍ، والطبعُ بمجالستِهِم يَسْرِقُ من طِباعِهِم.

= (٥٥٨٧)، وأحمد (٢/٣١٦ و٤١٣ و٤٦٧)، والدارمي (٤٤٢).

(١) رواه البخاري (٣٧٣ و٥٨١٧)، ومسلم في كتاب المساجد: باب (١٥) رقم (٥٥٦/ ٦٢)، وأبو داود (٤٠٥٢).

فإذا عدتُ أطلبُ القلبَ لم أجِدْهُ، وأرومُ ذاكَ الحضورَ فأفقِدُهُ، فيبقى فؤادي في غِمارِ ذلك اللّقاءِ للناس أياماً حتى يسْلُوَ الهوى.

وما فائدةُ تعريضِ البناءِ للنقض؟! فإنَّ دوامَ العزلةِ كالبناءِ، والنظرُ في سِيَرِ السلفِ يرفعُهُ، فإذا وقعتِ المخالطةُ؛ انتقضَ ما بُني في مدةٍ في لحظةٍ، وصَعُبَ التلاقي، وضعُفَ القلبُ.

ومَن له فهمٌ؛ يَعْرِفُ أمراضَ القلبِ، وإعراضَه عن صاحبِهِ، وخروجَ طائرِهِ من قفصِهِ.

ولا يُؤْمَنُ على هذا المريضِ أنْ يكونَ مرضُهُ هذا سببَ التلفِ، ولا على هذا الطائرِ المحصورِ أنْ يقعَ في الشبكةِ.

وسببُ مرضِ القلبِ أنه كان محمِيّاً عن التخليطِ، مَغْذُوّاً بالعلم وسِيَرِ السلفِ، فَخَلَّطَ، فلم يحتملْ مزاجُهُ، فوقعَ المرضُ.

فالجدَّ الجدَّ، فإنما هي أيامٌ.

فالزمْ خَلْوَتَكَ، وراع ـ ما بقيت النفس ـ وإذا قلقتِ النفسُ مشتاقةً إلى لقاءِ الخلْقِ فاعلمْ أنّها بَعْدُ كَدِرَةٌ، ولو كانَ عندَها شُغْلٌ بالخالقِ؛ لَما أحبّتِ الزحمةَ، كما أنّ الذي يخلو بحبيبِهِ لا يُؤْثِرُ حضورَ غيرِهِ.

فصل

[الهدى نور يقذفه الله في قلب من شاء]

تفكرتُ في سببِ هدايةِ مَن يهتدي، وانتباهِ مَن يتيقَّظُ من رُقاد غفلتِهِ، فوجدتُ السببَ الأكبرَ اختيارَ الحقِّ ﷻ لذلك الشخصِ، كما قيلَ: إذا أرادَكَ لأمرٍ هيَّأكَ له.

فتارةً تقعُ اليَقَظَةُ بمجردِ فِكْرٍ يوجبُهُ نظرُ العقل، فيتلمحُ الإنسانُ وجودَ نفسِهِ، فيعلمُ أن لها خالقاً، وقد طالبَهُ بحقِّهِ وشكرِ نعمتِهِ، وخوَّفَهُ عقابَ مخالفتِهِ، ولا يكونُ ذلك بسببٍ ظاهرٍ.

ومن الناس من يجعلُ الخالقُ ﷻ لذلك السببِ ـ الذي هو الفِكْرُ والنظرُ ـ سبباً ظاهراً، إمّا مِن موعظةٍ يسمعُها أو يراها، فيحرِّكُ هذا السببُ الظاهرُ فكرةَ القلبِ الباطنةَ.

ثم ينقسمُ المتيقظونَ:

فمنهُم مَن يغلبُهُ هواه ويقتضيهِ طبعُه ما يشتهي مما قدِ اعتادَه، فيعودُ القهقرى، ولا ينفعُهُ ما حصلَ له من الانتباه، فانتباهُ مثل هذا زيادةٌ في الحُجَّةِ عليه.

ومنهم مَن هو واقفٌ في مقام المجاهدةِ بين صفَّينِ: العقل الآمرِ بالتّقوى، الهوى المتقاضي بالشهوات.

فمنهم من يُغلبُ بعد المجاهداتِ الطويلة، فيعودُ إلى الشرِّ، ويُختمُ له به. ومنهم من يَغْلِبُ تارةٍ، ويُغلبُ أخرى، فجراحاتُهُ لا في مقتل.

ومنهم مَن يَقْهَرُ عدوَّه، فيسجُنُه في حبسٍ، فلا يبقى للعدوِّ من الحيلةِ إلا الوساوسُ.

ومن الصفوةِ أقوامٌ مُذْ تيقظوا ما ناموا، ومُذْ سلكوا ما وقفوا؛ فهمُّهم صعودٌ وتَرَقٍّ، كلّما عبروا مقاماً إلى مقام؛ رأوا نَقْصَ ما كانوا فيه، فاستغفروا.

ومنهم مَن يَرْقى عن الاحتياج إلى مجاهدةٍ: إمّا لخِسّةِ ما يدعو إليه الطبعُ عندَه ولا وقعَ له، وإمّا لشرفِ مطلوبِهِ، فلا يلتفتُ إلى عائقٍ عنه.

واعلم أنّ الشّهوات العاجلة قطّاع في الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه، والسبيلُ كاللّيل المدلهمِّ؛ غيرَ أنّ عينَ الموفَّقِ بَصَرُ فرسٍ؛ لأنه يرى في الظُّلمة كما يرى في الضوء، والصدقُ في الطلب منارٌ أين وُجِدَ يدُلُّ على الجادَّةِ، وإنما يتعثرُ من لم يخلصْ... وإنما يمتنعُ ممن لا يرادُ.

فلا حول ولا قوة إلّا بالله.

فصل

[نصائح لأهل العلم وطلابه]

هيهاتَ أنْ يجتمعَ الهَمُّ مع التلبُّسِ بأمورِ الدنيا! فأيُّ قلبٍ يحضرُ له؟ وأيُّ همٍّ يجتمعُ؟ هيهاتَ!

واللهِ لا يجتمعُ الهمُّ؛ والعينُ تنظُرُ إلى الناسِ، والسمعُ يسمعُ حديثَهم، واللسانُ يخاطبُهُم.

فإنْ قالَ قائلٌ: فكيفَ أصنعُ؟

قلت: إنْ وجدتَ ما يكفيكَ من الدّنيا، أو معيشةً تكُفُّكَ؛ فاقنعْ بها، وانفردْ في خلوةٍ عن الخلقِ مهما قَدَرْتَ، وإنْ تزوّجْتَ؛ فبامرأة تقنعُ باليسيرِ، ولا تترُكْ نفسَكَ تطمحُ إلى مَن تحتاجُ إلى فضل نفقتِهِ.

وإذا حصلَ بيدكَ شيءٌ؛ فأنفقْ بعضهُ؛ فبحفظِ الباقي تحفظُ شتاتَ قلبكَ.

واحذرْ كلَّ الحذرِ من هذا الزمانِ وأهلِهِ فما بقي مُواسٍ ولا مُؤثِر ولا مَن يهتمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ، ولا من لو سُئِلَ أعطى؛ إلّا أن يُعطيَ نزْراً بتضجُّرٍ ومِنَّةٍ يستعبِدُ بها المُعْطَى بقيةَ العُمُرِ، ويستثْقِلُهُ كلما رآه، أو يستدعي بها خدمتَهُ له والتردُّدَ إليه.

فالبعدَ البعدَ عن من هِمتُهُ الدنيا، فلا تكادُ ترى إلّا عدوّاً في الباطنِ، صديقاً في الظاهرِ، شامتاً على الضرِّ، حسوداً على النعمةِ.

فاشْتَرِ العزلةَ بما بيعتْ، فإنّ مَن له قلبٌ: إذا مشى في الأسواقِ وعاد إلى منزلِهِ؛ تغيَّر قلبُهُ، فكيفَ إن عرقلَهُ بالميل إلى أسبابِ الدّنيا؟!

واجتهدْ في جمع الهمِّ بالبعدِ عن الخَلْقِ؛ ليخلُوَ القلبُ بالتفكُّرِ في المآبِ، وتتلمحَ عينُ البصيرةِ خِيَمَ الرحيلِ.

فصل

[صفات أولياء الله]

تأملتُ الذينَ يختارُهُم الحقُّ ﷻ لولايتِهِ والقرب منه ـ فقد سمعْنا أوصافَهم ومن نظنُّه منهم ممّن رأيناه ـ، فوجدتُه سبحانَه لا يختارُ إلّا شخصاً كاملاً في باطِنِه، سخيّاً، جواداً، عاقلاً، غيرَ خَبٍّ ولا خادع، ولا حقودٍ، ولا حسودٍ، ولا فيه عيبٌ من عُيوب الباطنِ.

فذاك الذي يُربِّيهِ مِن صِغَرِه. فتراهُ ينبو عن الرذائل، ويفزعُ من النقائصِ.

ثم لا تزالُ شجرةُ هِمّتِهِ تنمو حتى يرى ثمَرَها متهدِّلاً على أغصان الشّباب؛ فهو حريصٌ على العلم، منكمشٌ على العمل، مُحافظٌ للزمان، مُراعٍ للأوقاتِ، ساعٍ في طلبِ الفضائل، خائفٌ من النقائصِ.

ولو رأيتَ التوفيقَ والإلهامَ الربَّانيَّ كيفَ يأخذُ بيدِهِ إن عَثَرَ، ويمنعُهُ من الخطإِ إنْ هَمَّ، ويستخدِمُهُ في الفضائل.

ثم ينقسمُ هؤلاء؛ فمنهم من تفقَّه على قدم الزُّهدِ والتعبُّدِ، ومنهم من تفقَّه على العلم واتباع السنة، وقليل منهم من يجمعُ الله لهُ الكُلَّ ويرقِّيهِ إلى مزاحمةِ الكاملينَ.

وعلامةُ إثباتِ الكمال في العلم والعمل: الإقبالُ بالكُلِّية على معاملةِ الحقِّ ومحبتهِ، واستيعابُ الفضائل كلِّها، وسَناءُ الهمّةِ في نُشدانِ الكمال الممكنِ؛ فلو تُصُوِّرَتِ النبوةُ أن تُكْتَسَبَ؛ لدخلتْ في كَسْبِهِ.

ومراتبُ هذا لا يحتملُها الوصفُ؛ لكونِهِ دُرَّةَ الوجودِ، التي لا تكادُ تنعقدُ في الصَّدَفِ إلّا في كلِّ ودودٍ.

نسألُ اللهَ ﷻ توفيقَنا لمراضيهِ وقربهِ، ونعوذُ به من طردِهِ وإبعادِهِ.

فصل

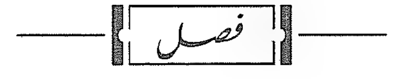
[سكر الجهل والغفلة أشد من سكر الشراب]

أكثرُ الخلائقِ على طبع رديءٍ، لا يدرونَ لِمَ خُلقوا! ولا ما المرادُ منهُم! وغايةُ هِمَّتِهم حصولُ بُغيتهم مِن أغراضهم! ولا يسألونَ عند نَيْلِها ما اجتلبتْ لهم مِن ذمٍّ! يبذُلونَ العِرضَ دون الغَرَضِ، ويُؤثِرونَ لَذَّةَ ساعةٍ وإن اجتلبتْ زمانَ مرضٍ، يلبَسونَ عند التجاراتِ ثيابَ مُحتال في شِعارِ مُختال، ويُلَبِّسونَ في المعاملات ويستُرونَ الحالَ! إنْ كَسَبوا؛ فشبهةٌ، وإن أكلوا؛ فشهوةٌ! ينامونَ اللّيل، وإن كانوا نياماً بالنهارِ في المعنى، ولا نومَ بهذه الصورةِ، فإذا أصبحوا؛ سَعَوا في تحصيلِ شَهَواتِهِم بحرصِ خِنزيرٍ، وتبصبُصِ كلبٍ، وافتراسِ أسدٍ، وغارةِ ذئبٍ، ورَوَغانِ ثعلبٍ! ويتأسّفونَ عندَ الموتِ على فَقْدِ الهوى لا على عدم التّقْوى!

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ [النجم: ٣٠].

كيفَ يُفلحُ من يُؤثِرُ ما يراهُ بعينِهِ على ما يُبصِرُهُ بعقلِهِ، وما يدركُهُ ببصرِهِ أعزُّ عندَه مما يراهُ ببصيرتِهِ؟!

تالله لو فتحوا أسماعَهم؛ لَسَمِعوا هاتفَ الرّحيل في زمانِ الإقامةِ يَصيحُ في عَرصاتِ الدّنيا: تَلَمَّحوا تقويضَ خيام الأوائل! لكنْ غَمَرَهُمْ سُكْرُ الجهالةِ، فلم يُفيقوا إلّا بضربِ الحدِّ.



[إنّ الله طيب لا يقبل إلّا طيباً]

رأيتُ بعضَ المتقدّمين سُئِلَ عمَّنْ يكتسبُ حلالاً وحراماً من السلاطينِ والأمراءِ، ثم يبني المساجدَ والأربطةَ: هل له فيها ثوابٌ؟ فأفتى بما يوجبُ طيبَ قلبِ المُنْفِقِ، وأنّ له في إنفاقِ ما لا يملِكُهُ نوعَ سمسرةٍ؛ لأنّه لا يعرفُ أعيانَ المغصوبينَ فيردُّها عليهم.

فقلتُ: وا عجباً من المتصدِّينَ للفتوى الذين لا يعرفونَ أصولَ الشريعةِ!

ينبغي أن يُنْظَرَ في حال هذا المنفقِ أولاً:

فإنْ كان سُلطاناً؛ فما يخرجُ من بيتِ المال قد عُرِفَتْ وجوهُ مصارفِهِ، فكيف يَمْنَعُ مستحقَّهُ؟

وإنْ كان المنفقُ من الأمراءِ ونُوَّابِ السلاطينِ؛ فإنّه يجبُ أنْ يَرُدَّ ما يجبُ ردُّه إلى بيت المال، وليس له فيه إلّا ما فُرِضَ مِن إيجابٍ يليقُ بهِ.

فإنْ تصرَّفَ في غيرِ ذلك؛ كان مصروفاً فيما ليس له، ولو أُذِنَ له؛ ما كان الإذنُ جائزاً، وإنْ كان قد أُقْطِعَ ما لا يقاوِمُ عمَلَهُ[1]، كانَ ما يأخذُه فاضِلاً من أموال المسلمينَ لا حقَّ له فيه، وعلى مَنْ أَطْلَقَهُ في ذلك إثمٌ أيضاً.

هذا إذا سَلِمَ المالُ وكان من حِلِّه، فأما إذا كان حراماً أو غصباً؛ فكلُّ تصرُّفٍ فيه حرامٌ، والواجبُ ردُّه على من أُخِذَ منه أو على ورثَتِهِم، فإن لم يُعرَفْ طريقُ الرّدِّ؛ كان في بيت مال المسلمينَ؛ يُصرفُ في مصالحهم، أو يُصرفُ في الصدقةِ، ولم يَحْظَ آخذُهُ بغيرِ الإثم.

أنبأنا أحمدُ بنُ الحسن بن البنا، قال: أخبرنا محمدُ بن عليٍّ الزّجّاجيُّ، قال: أخبرنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الأسديُّ، قال: أخبرنا عليُّ بنُ الحسنِ، قال: حدثنا أبو داودَ، قال: حدّثنا محمدُ بن عوفٍ الطائيُّ، قال: حدثنا أبو المغيرةِ، قال: حدثنا الأوزاعيُّ، قال: حدثني موسى بنُ سليمانَ، قال: سمعتُ القاسمَ بنَ مُخَيْمِرَةَ يقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اكتسبَ مالاً مِنْ مَأثَم، فَوَصَلَ به رَحِماً، أو تصدَّقَ به، أو أنفقهُ في سبيل اللهِ؛ جُمِعَ ذلك جميعاً فقُذِفَ به في جهنَّمَ**»[2].

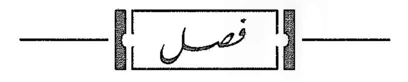
---

(١) يعني: ما لا يكافئه.

(٢) (حسن لغيره) أخرجه أبو داود في «المراسيل»، وله شاهد عند أحمد (١/ ٣٨٧)، والطيالسي (٣١٠) ولفظه: «**ولا يَكْسِبُ مالاً مِنْ حَرام فيُنْفِقُ مِنْهُ فيُبَارَكُ لهُ فيهِ، ولا يتصدَّقَ منهُ فيُقْبَلَ مِنْهُ، ولا يَتْرُكَهُ خَلْفَ ظَهرِهِ إلّا كانَ زَادَهُ إلى النار، إنَّ الله لا يَمْحُو** =

فأما إذا كان الباني تاجراً مكتسِباً للحلال، فبنى مسجداً، أو وَقَفَ وقفاً للمتفقِّهَةِ، فهذا مما يُثاب عليه.

وأمّا بناءُ الأربطةِ للمُتصوّفة؛ فليس بشيءٍ أصلاً؛ لأنّ جمهورَ المتصوفةِ جلوسٌ على بساطِ الجهل والكسل، ثم يدّعي مدّعيهُم المحبةَ والقُرْبَ، ويكرهُ التشاغلَ بالعلم، وقد تركوا سيرةَ سَرِيٍّ وعادات الجُنيدِ، واقْتنعوا بأداءِ الفرائضِ، ورضوا بالمُرَقَّعاتِ؛ فلا تَحْسُنُ إعانتُهم على بطالتِهِم وراحتِهِم، ولا ثوابَ في ذلك.



[من ثمرات الإخلاص]

عجبتُ لمن يتصنعُ للناس بالزهد، يرجو بذلك قربَه من قلوبهم، وينسى أنّ قلوبَهم بيد من يعملُ له؛ فإنْ رضي عملَهُ ورآه خالصاً؛ لَفَتَ القلوبَ إليه، وإن لم يَرَهُ خالصاً؛ أعرضَ بها عنه.

ومتى نظر العاملُ إلى التفات القلوب إليه؛ فقد زاحمَ الشركَ؛ لأنه ينبغي أن يقنعَ بنظرِ من يعملُ له.

ومن ضرورةِ الإخلاص ألّا يقصدَ التفاتَ القلوبِ إليه، فذاك يحصُلُ لا بقصدِهِ بل بكراهتِهِ لذلك.

وليعلم الإنسانُ أن أعمالَه كلَّها يعلمُها الخلْقُ جملةً، وإن لم يطَّلعوا عليها؛ فالقلوبُ تشهدُ للصالح بالصلاح وإنْ لم يُشاهَدْ منه ذلك.

فأما من يقصِدُ رؤيةَ الخلقِ بعملِه؛ فقد مضى العملُ ضائعاً؛ لأنه غيرُ

= **السيِّءَ بالسَّيِّءِ، ولكِنَّهُ يَمْحُو السيِّءَ بالحَسَنِ، إنَّ الخبيثَ لا يَمْحُو الخَبيثَ**». وله شاهد آخر عند الحاكم (٢١٣٧) من حديث ابن عباس، وفي السند راوٍ متروك. وشاهد ثالث عند ابن حبان، والبيهقي في «الْكُبْرَى»، والحاكم من حديث أبي هريرة ولفظه: «**مَنْ جَمَعَ مالاً حَرَاماً، ثمَّ تَصَدَّقَ بِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فيهِ أَجْرٌ، وكانَ إصْرُهُ عليهِ**».

مقبول عندَ الخالقِ ولا عندَ الخلْقِ؛ لأنّ قلوبَهم قد أُلْفِتَتْ عنه، فقد ضاع العملُ وذهبَ العُمُرُ.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِناً مَا كَانَ**»[1].

فليتَّقِ اللهَ العبدُ، ولْيقصِدْ من ينفعُهُ قصدُه، ولا يتشاغلْ بمدح مَن عن قليل يَبْلَى هُوَ وهُمْ.

فصل

[الاجتهاد في معرفة الحق]

قد يدّعي أهلُ كل مذهبٍ الاجتهادَ في طلبِ الصوابِ.

وصاحبَ كلِّ مذهبٍ يبالغُ فيه ويحتمِلُ الضيمَ والأذى ـ في اعتقاده ـ ومع هذا؛ فيقطعُ العقلُ بضلال الأكثرين.

وهذا قد يُشْكل. وإنما كشفُهُ أنّه ينبغي أن يُطلبَ الهدى بأسبابِهِ، ويُستعمل الاجتهاد بالإبانة، فأمّا من فاتته الأسبابُ، أو فقد بعض الآلاتِ؛ فلا يقالُ له: مجتهدٌ.

فاليهودُ والنصارى بين عالمٍ قد عرفَ صدقَ نبينا ﷺ لكنّه يجحدُ؛ فهذا معاندٌ. وبين مُقلِّدٍ لا ينظرُ بعقلِهِ، فهذا مُهملٌ؛ فهو يتعبدُ مع إهمال الأصل، وذاك لا ينفع.

ومن هذا الجنس تعبدُ الخوارجِ؛ مع اقتناعهم بعلمهم القاصرِ، وهو قولُهُم: لا حكمَ إلّا لله، ولم يفهموا أن التحكيمَ مِن حُكْم الله، فجعلوا قتالَ عليٍّ رضي الله عنه وقتلَه مبنيّاً على ظنّهم الفاسدِ.

(١) رواه أحمد (٣/٢٨)، وابن حبان (٥٥٨١)، وأبو يعلى (١٣٧٧)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٨٠٧).

ولما نَهبَ مسلمُ بن عقبةَ المدينةَ[١]، وقتلَ الخلقَ؛ قال: إنْ دخلتُ النارَ بعد هذا إنني لشقيٌّ.

فظنَّ بجهله أنهم لما خالفوا بيعةَ يزيدَ؛ يجوزُ استباحتُهم وقتلُهم.

فالويلُ لعاميٍّ قليل العلم، لا يتهمُ نفسَه في واقعةٍ، ولا يذاكرُ من هو أعلمُ منه، بل يقطعُ بظنّه ويُقْدِمُ.

وهذا أصلٌ ينبغي تأمُّله، فقد هلَكَ في إهمالِهِ خلقٌ لا تُحصى، وقد رأينا خلقاً من العوامِّ إذا وقع لهم واقعةٌ؛ لم يقبلوا فتوى.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤].

فصل

[ينبغي الاحتراز من كل شيء يمكن وقوعه]

ينبغي للعاقل أن يحترزَ غايةَ ما يُمْكِنُهُ، فإذا جرى القدرُ مع احترازِهِ؛ لم يُلَمْ.

والاحترازُ ينبغي من كل شيءٍ يمكنُ وقوعُه، وأخْذُ العِدّةِ لذلك واجبٌ، وهذا يكونُ في كلِّ حال، فقد قَصَّ رجُلٌ ظُفْرَهُ فجارَ عليه؛ فَخَبُثَتْ يدهُ فماتَ.

ومرَّ شيخُنا أحمدُ الحربيُّ وهو راكبٌ بمكانٍ ضيقٍ، فتطأطأ على السَّرْجِ، فانْعصرَ فؤادُه، فمرِضَ، فماتَ.

وكان يحيى بن نزار شيخاً يحضرُ مجلسي، قد طَرَقَ عليه ثِقَلُ الأذنِ، فاستدعى طُرُقيّاً[٢] فمصَّ أُذُنَه؛ فماتَ.

وينبغي أن يحترزَ بالكسبِ في زمنِ شبابِهِ؛ ادِّخاراً لزمن شيبِهِ.

---

(١) الأمير من قبل يزيد بن معاوية على الجيش الذين غزوا المدينة يوم الحرة، وقد أفحش مسلم القول والفعل بأهل المدينة، وأسرف في قتل الكبير والصغير حتى سموه: مسرفاً، وأباح المدينة ثلاثة أيام لذلك، والعسكر ينهبون ويقتلون ويفجرون.

(٢) يعني: أحد الذين يمارسون مهنة الطبِّ دون علم ولا هدى.

ولا ينبغي أنْ يثقَ بمعامَل إلّا بوثيقةٍ. ويبادِرَ بالوصيةِ مخافةَ أن يطرُقَه الموتُ، ويحترزَ من صديقه فضلاً عن عدوِّهِ، ولا يثقُ بمودَّةِ مَن قد آذاهُ هو؛ فإنّ الحقدَ في القلوب قَلَّما يزولُ، وليحترزْ من زوجتِهِ، فربما أطْلَعَها على سِرِّهِ ثم طلّقها، فيتأذّى بما تَفْعَلُ به.

وقد كان ابنُ أفلحَ الشاعرُ يكاتِبُ رئيساً في زمن المسترشِدِ، فعلمَ بذلك بوابهُ، واتَّفَقَ أنه صَرَفَ بوابَهُ، فَنَمَّ عليه، ونُقِضت دارُهُ.

فهذه المذكراتُ أمثلةٌ تُنَبِّه على ما لم يُذْكَرْ.

وأهمُّ الكلِّ أن يحترزَ بأخذِ العِدَّةِ، وتحقيقِ التوبةِ قبل أن يهجُمَ عليه ما لا يُؤمَنُ هجومُهُ، ولْيحذرْ من لِصِّ الكسل؛ فإنه محتالٌ على سرقةِ الزمانِ.

فصل

[المبالغة في اللذات الحسية وعواقبها]

تأملتُ خصوماتِ الملوكِ وحرصَ التُّجارِ ونفاقَ المتزهدينَ؛ فوجدتُ جمهورَ ذلك على لذاتِ الحسِّ.

وإذا تفكر العاقلُ في ذلك؛ علم أن أمرَ الحسيَّاتِ قريبٌ، يندفعُ بأقلِّ شيءٍ، وأنّ الغايةَ منه لا يمكن نيلُها، وإنْ بالغَ؛ عاد بالأذى على نفسه أضعافَ ما نالَه من اللَّذةِ؛ كمن يأكُل كثيراً أو ينكِحُ كثيراً.

فالسعيدُ من اهتمَّ لحفظِ دينِهِ، وأخذَ من ذلك بمقدارِ الحاجة.

واعجباً! هذا الملبوسُ: إذا كان وسطاً خَدَمَ، وإذا كان مرتفعاً خُدِمَ، فإنْ نَظَرَ اللابسُ إليه معجباً به؛ فإن اللهَ لا ينظُرُ إليه حينئذٍ، وفي «الصحيح»: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**[1].

---

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة: باب (١٠) رقم (٢٠٨٨/٤٩)، وابن حبان (٥٥٨٧)، وأحمد (٣١٦/٢ و٤١٣ و٤٦٧)، والدارمي (٤٤٢).

والمشروبُ: إن كان حراماً؛ فعقابُهُ أضعافُ لذّتِه، وهَتْكُهُ العرضَ بين الناس عقابٌ آخرُ. وإن كان مباحاً؛ فالشَّرَهُ فيه يؤذي البدنَ.

وأما المنكوحُ؛ فمداراةُ المستحسنِ يؤذي فوقَ كلِّ أذى، ومقاساةُ المستقبح أشدُّ أذىً؛ فعليكَ بالتوسُّطِ.

وتفكَّرْ في أحوال السلاطينِ كمْ قتلوا ظُلماً، وكمْ ارتكبوا حراماً؟ وما نالوا إلّا يسيراً من لذّات الحسِّ؛ فانْقشعَ غيمُ العُمُرِ عن حسراتِ الفضائل وحصول العقابِ.

فليسَ في الدّنيا أطيبُ عيشاً من منفردٍ عن العالَم بالعلم، فهو أنيسُهُ وجليسُهُ، قد قنع بما سَلِمَ به دينُه من المباحاتِ الحاصلةِ، لا عن تكلُّفٍ ولا تضييع دينٍ، وارتدى بالعز عن الذلِّ للدنيا وأهلِها، والتحف بالقناعة باليسير إذ لم يقدِرْ على الكثيرِ، فوجدتُهُ يسلمُ دينُهُ ودنياهُ، واشتغالُه بالعلم يدلُّهُ على الفضائل، ويفرِّجُهُ في البساتينِ، فهو يَسْلمُ من الشيطانِ والسلطانِ والعوامِّ بالعزلة.

ولكنْ لا يصلُحُ هذا إلّا للعالِمِ؛ فإنه إذا اعتزلَ الجاهلُ؛ فاته العلمُ، فتخبَّطَ.

فصل

[المخذول من حصّل العلم وغفل عن العمل به]

تأملتُ حالةً تَدخُلُ على طلّابِ العلم توجبُ الغفلةَ عن المقصود، وهو حرصُهُم على الكتابة، خصوصاً المُحَدِّثينَ، فيستغرقُ ذلك زمانَهم عن أن يحفظوا ويفهموا، فيذهبُ العُمُرُ وقد عَرَوْا عن العلم إلّا اليسيرَ.

فمن وُفِّقَ جعل مُعظمَ الزمانِ مصروفاً في الإعادة والحفظِ، وجعل وقتَ التعبِ من التكرار للنسخ، فيحصُلُ له المراد.

والموفقُ من طلب المهمَّ؛ فإن العمرَ يَعْجِزُ عن تحصيل الكلِّ، وجمهورُ العلوم الفقهُ.

وفي الناس من حصل له العلمُ وغَفَلَ عن العمل بمقتضاهُ، وكأنه ما حصَّلَ شيئاً، نعوذ بالله من الخذلان.

فصل

[وجوب التثبت والنظر في العواقب]

ما اعتمد أحدٌ أمراً إذا همَّ بشيءٍ مثلَ التثبتِ، فإنه متى عمِلَ بواقعةٍ من غيرِ تأمُّل للعواقب كان الغالبَ عليه الندمُ، ولهذا أُمِرَ بالمشاورةِ؛ لأن الإنسانَ بالتثبتِ يفتكر، فتعرِضُ على نفسه الأحوالُ، وكأنه شاوَرَ، وقد قيل: خميرُ الرأي خيرٌ من فطيرِهِ.

وأشدُّ الناس تفريطاً مَن عَمِلَ مبادرةً في واقعةٍ من غير تثبتٍ ولا استشارةٍ، خصوصاً فيما يوجبُهُ الغضبُ، فإنّه طلبُ الهلاكِ أو الندم العظيم.

وكم مَن غَضِبَ فَقَتَلَ وضَرَبَ، ثم لمّا سكن غضبُهُ بقيَ طولَ دهرِهِ في الحزنِ والبكاءِ والندم.

والغالبُ في القاتلِ أنه يُقْتَلُ فتفوتُهُ الدنيا والآخرة.

فكذلك من عَرَضَتْ له شهوةٌ، فاستعجلَ لَذَّتَها، ونسيَ عاقبتَها؛ فكم مِن نَدَم يتجرعُهُ في باقي عمره، وعتابٍ يستقبلُهُ من بعدِ موتِهِ، وعقابٍ لا يؤمنُ وقوعُهُ، كلُّ ذلك للَذَّةِ لحظةٍ كانت كَبَرْقٍ.

فاللهَ الله، التثبتَ التثبتَ في كل الأمور، والنظرَ في عواقِبِها. خصوصاً الغضبَ المثيرَ للخصومةِ وتعجيل الطلاقِ.



[من حكايات البخلاء]

سبحان من جعل الخلق بين طرفيْ نقيضٍ، والمتوسطُ منهم يَنْدُرُ.

منهم من يغضبُ فيَقْتُلُ ويضرِبَ، ومنهم من هو أبلهُ بقوةِ الحِلم لا يؤثِّرُ عندَه السَّبُّ.

ومنهم شَرِهٌ يتناولُ كلَّ ما يشتهي. ومنهم متزهدٌ يتجفف فيمنعُ النفسَ حقَّها.

وكذلك سائرُ الأشياءِ المحمودُ منها المتوسطُ.

فالمُنفقُ كلَّ ما يجدُ مبذِّرٌ، والبخيلُ يخبئُ المالَ ويمنع نفسَه حظها.

ومعلومٌ أنّ المالَ لا يُرادُ لنفسِه، بل للمصالح، فإذا بذّرَ الإنسانُ فيه؛ احتاجَ إلى بذل وجههِ ودينِهِ ومنّةِ البخلاءِ عليهِ، وهذا لا يصلُحُ، ولأنْ يُخَلِّفَ الإنسانُ لعدوّهِ أحسنُ من أن يحتاجَ إلى صديقه.

ومن الناس من يبخلُ، ثم يتفاوتون في البخل، حتى ينتهيَ البلاء بهم إلى عشق عين المال؛ فربما مات أحدُهُم هُزالاً وهو لا ينفقُهُ، فيأخذُهُ الغيرُ، ويندمُ المُخَلِّفُ!

ولقد بلغني في هذا ما ليس فوقَه مزيدٌ، ذكرتُهُ لتعتبرَ به:

فحدثني شيخُنا أبو الفضل بنُ ناصرٍ عن شيخِهِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ، قال: كان بصورٍ تاجرٌ في غرفةٍ له، يأخُذُ كلَّ ليلةٍ من البقّال رغيفينِ وجوزةً، فيدخُلُ إلى غرفته وقت المغربِ، فيُضْرِمُ النارَ في الجوزةِ، فتضيءُ بمقدارِ ما ينزِعُ ثوبه، وفي زمانِ إحراقِ القشرِ تكونُ قدِ استوتْ، فيمسحُ بها الرغيفينِ ويأكُلُهما... فبقي على هذا مدةً، فماتَ، فأخذَ منه ملك صورٍ ثلاثين ألفاً!

ورأيتُ أن رجلاً قد مرضَ، فاستلقى عند بعضِ أصدقائِهِ، ليس له من يخدُمُهُ، ولا يرافقُهُ، وهو مُضِرٌّ[١]، فلما ماتَ وجدوا بين كتبه خمسمائة دينارٍ.

وحدثني أبو الحسنِ الراندسيُّ، قال: مرِضَ رجلٌ عندنا، فبعث إليَّ، فحضرتُ، فقال: قد خَتَمَ القاضي على مالي. فقلتُ: إن شئتَ قمتُ وفتحتُ الختمَ وأعطيتُكَ الثلثَ تفرقُهُ وتعملُ به ما تشاءُ. فقال: لا والله ما أريدُ أن أفرقَهُ، بل أريدُ مالي يكونُ عندي. فقلت: ما يعطونك، بلى أنا آخذُ لك

---

(١) مضر: مريض أضر به المرض واشتد عليه.

الثلثَ كي تكونَ حُرّاً فيه. فقال: لا أريد، فماتَ وأُخِذَ مالُه.

وحكى لي صديقٌ لنا: أنَّ رجلاً ماتَ ودُفِنَ في الدار، ثم نُبِشَ بعد مدةٍ ليُخْرَجَ، فوُجِدَ تحت رأسه لَبِنَةٌ مُقَيَّرةٌ(١)، فسُئِلَ أهلُه عنها، فقالوا: هو قَيَّرَ هذه اللَّبنةَ وأوصى أن تُتْرَكَ تحتَ رأسه في قبره وقال: إنّ اللَّبنَ يبلى سريعاً، وهذه لموضع القار لا تبلى. فأخذوها، فوجدوها رزينةً، فكسروها فوجدوا فيها تسعَمائةِ دينارٍ، فتولاها أصحابُ التَّركاتِ.

وبلغني أن رجلاً كان يكنُسُ المساجدَ، ويجمعُ ترابَها، ثم ضَرَبَه لِبْناً، فقيل له: هذا لأيِّ شيءٍ؟ فقال: هذا ترابٌ مباركٌ، وأريد أن يجعلوه على لحدي، فلما ماتَ؛ جُعِلَ على لحدِهِ، فَفَضَلَ منه لبنات، فرمَوْها في البيت، فجاء المطرُ فتفسختِ اللبناتُ؛ فإذا فيها دنانيرُ، فمضَوا وكشفوا اللّبنَ عن لحدِهِ، وكلُّه مملوءٌ دنانيرَ.

ولقد مات بعضُ أصدقائِنا، وكنت أعلمُ له مالاً كثيراً، وطال مرضُه، فما أطْلَعَ أهلَه على شيءٍ، ولا أكادُ أشكُّ أنه من شُحِّه وحرصِهِ على الحياةِ ورجائِهِ أن يبقى لم يُعْلِمْهُمْ بمدفونِهِ؛ خوفاً أن يُؤخذَ، فيحيا هو وقد أُخِذَ المالُ، وما يكونُ بعد هذا الخزي شيءٌ.

وحدثني بعضُ أصحابِنا عن حالةٍ شاهدها من هذا الفنِّ. قال: كان فلانٌ له وَلَدانِ ذَكَرانِ وبنتٌ، وله ألفُ دينارٍ مدفونةٌ، فمرِضَ مرضاً شديداً، فاحْتَوَشَتْهُ(٢) أهلُه، فقال لأحد ابنيهِ: لا تبرحْ من عندي، فلما خَلا به قال له: إنَّ أخاك مشغولٌ باللَّعِبِ بالطيورِ، وإنَّ أختكَ لها زوجٌ، ومتى وَصَلَ من مالي إليهما شيءٌ؛ أنفقوه في اللَّعِب، وأنت على سيرتي وأخلاقي، ولي في الموضع الفلانيِّ ألفُ دينارٍ، فإذا أنا مِتُّ فخُذْها وحدَك. فاشتدَّ بالرجل المرضَ، فمضى الولدُ فأخذَ المالَ، فعوفي الأبُ، فجعل يسألُ الولدَ أن يرُدَّ المالَ إليه،

---

(١) مقيّرة: مطلية بالقار.

(٢) أي: اجتمعوا حوله.

فلا يفعلُ، فمرِضَ الولدُ وأشفى[1]، فجعلَ الأبُ يتضرَّعُ إليه ويقولُ: ويحكَ! خصصتُكَ بالمال دونَهم، فتموتُ، فيذهبُ المالُ، ويحكَ! لا تفعلْ، فما زال به حتى أخبره بمكانِه، فأخذَه، ثم عوفي الولدُ، ومضتْ مدةٌ فمرِضَ الأبُ، فاجتهدَ الولدُ أن يخبِرَهُ بمكانِ المال وبالَغَ، فلم يخبِرْه، ومات، وضاعَ المال.

فسبحان من أعدمَ هؤلاءِ العقولَ والفُهوم!

فصل

[لا تطمع في وجود الخِلّ الوفيّ]

كان لنا أصدقاءُ وإخوانٌ أعتدُّ بهم، فرأيت منهم من الجفاءِ وتركِ شروطِ الصداقةِ والأُخُوَّةِ عجائبَ، فأخذتُ أعتبُ، ثم انتبهتُ لنفسي، فقلتُ: وما ينفعُ العتابُ، فإنّهم إن صَلَحوا؛ فللعتابِ لا للصفاء، فهممتُ بمقاطعتهم.

ثم تفكرتُ، فرأيت الناسَ بين معارفَ وأصدقاءَ في الظاهرِ وإخوة مباطنينَ، فقلت: لا تصلُحُ مقاطعتُهم، إنما ينبغي أن تنقُلَهم من ديوان الإخوةِ إلى ديوانِ الصداقةِ الظاهرة؛ فإن لم يصلُحوا لها؛ نقلتَهم إلى جملةِ المعارفِ، وعاملْتَهم معاملةَ المعارفِ، ومن الغلطِ أن تعاتبَهم.

وجمهورُ الناسِ اليومَ معارفُ، ويندُرُ فيهم صديقٌ في الظاهرِ، فأما الأُخُوَّةُ والمصافاةُ؛ فذاك شيءٌ نُسِخَ؛ فلا يُطْمَعُ فيه، وما أرى الإنسانَ تصفو له إخوةٌ من النسبِ ولا ولدُهُ ولا زوجتُهُ.

فدع الطمعَ في الصَّفا، وإياك أن تنخدعَ بمن يُظهِرُ لك الوُدَّ، فإنه مع الزمان يَبين لك الحالُ فيما أظهرَه، وربما أظهر لك ذلك لسببٍ ينالُه منك.

وقد قال الفضيل بن عياض: إذا أردتَ أن تصادقَ صديقاً فأَغْضِبْهُ، فإن رأيتَه كما ينبغي؛ فصادِقْه.

---

(١) أَشْفَى على الشيءِ: أشرفَ عليه. ويقال: أَشفى على الهلاك: إذا أَشرف عليه.

وهذا اليومَ مخاطرةٌ؛ لأنك إذا أغضبتَ أحداً صار عدواً في الحال.

والسببُ في نسخ حكم الصّفا: أنّ السَّلَفَ كان هِمَّتهم الآخرةُ وحدها، فصفتْ نِيَّاتُهم في الأخوّةِ والمخالطةِ، فكانت ديناً لا دُنيا. والآنَ؛ فقد استولى حبُّ الدنيا على القلوب، فإن رأيتَ متملِّقاً في بابِ الدينِ؛ فاخْبُرْه تَقْلِهِ[1].

فصل

[العلم يورث الخشية ورؤية التقصير]

إذا تمَّ علمُ الإنسانِ لم يَرَ لنفسهِ عملاً، وإنما يرى إنعامَ الموفِّقِ لذلك العمل، الذي يمنعُ العاقلَ أن يرى لنفسهِ عملاً أو يُعجَبَ به، وذلك بأشياء:

منها: أنه وَفّقَ لذلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنها: أنه إذا قِيسَ بالنِّعم؛ لم يَفِ بمعشارِ عشرِها.

ومنها: أنه إذا لوحظتْ عظمةُ المعبود؛ احتقَرَ كلَّ عمل وتعبُّدٍ.

هذا إذا سَلِمَ من شائبةٍ وخَلَصَ من غفلةٍ.

فأما والغفلاتُ تحيطُ به، فينبغي أن يَغْلِبَ الحذرُ من ردِّه، ويَخافَ العتابَ على التقصير فيه، فيشتغلَ عن النظر إليه.

وتأمَّلْ على الفطناءِ أحوالَهم في ذلك:

فالملائكةُ الذي يسبحون الليل والنهار لا يفتُرونَ قالوا: **«ما عَبدْناكَ حَقَّ عبادَتِكَ»**[2].

---

(١) اخبره تقله: أي اختبر حقيقته تبغضه. وقَلَيْتُه قِلًى: أَبغضته وكَرِهْتُه غاية الكَراهة؛ فتركته.

(٢) أخرجه الحاكم (٨٧٣٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وهو في «الصحيحة» (٩٤١).

والخليلُ ﷺ يقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدَلَّ بتصبُّرِهِ على النارِ وتسليمِهِ الولدَ إلى الذبح.

ورسولُ الله ﷺ يقول: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا إِيَّايَ؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»(١).

وأبو بكرٍ رضي الله عنه يقول: هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ(٢).

وعمرُ رضي الله عنه يقول: لو أنَّ لي طلاعَ الأرضِ لافتديتُ بها مِن هول ما أمامي قبل أن أعلمَ ما الخبرُ.

وابنُ مسعودٍ يقولُ: ليتني إذا مِتُّ لا أُبعثُ.

وعائشةُ رضي الله عنها تقولُ: ليتني كنتُ نسياً منسياً.

وهذا شأنُ جميع العقلاءِ، فرضي اللهُ عن الجميع.

فصل

[الخوف من الذنوب ولو بعد التوبة]

ينبغي للعاقل أن يكونَ على خوفٍ من ذنوبه، وإن تاب منها وبكى عليها.

وإني رأيتُ أكثرَ الناسِ قد سكنوا إلى قَبول التوبة، وكأنّهم قد قَطَعوا على ذلك! وهذا أمرٌ غائبٌ، ثم لو غُفرتْ؛ بَقِيَ الخجلُ من فِعْلِها.

ويؤيدُ الخوفَ بعد التوبة أنه في الصِّحاح: «**أَنَّ النَّاسَ يأتونَ إلى آدمَ ﷺ، فيقولون: اشفعْ لنا. فيقولُ: ذَنْبي... وإلى نوح ﷺ فيقولُ: ذَنْبي... وإلى إبراهيمَ... وإلى موسى.. صلوات الله وسلامهُ عليهم**»(٣). فهؤلاءِ إذا

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣ و٦٤٦٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار: باب (١٧)، رقم (٢٨١٦/ ٧٢ و٧٣ و٧٥ و٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٣)، وابن ماجه (٩٤)، وابن أبي شيبة (٢٧٦٦٢).

(٣) جزء من حديث الشفاعة: رواه البخاري (٣٣٤٠ و٤٧١٢) و(٦٥٦٥)، ومسلم في =

اعْتُبِرَتْ ذنوبُهم؛ لم يكنْ أكثرُها ذنوباً حقيقة، ثم إنْ كانتْ، فقد تابوا منها واعتذروا، وهم بَعْدُ على خوفٍ منها.

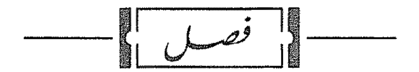
ثم إنَّ الخجلَ بعدَ قبول التوبةِ لا يرتفعُ. وما أحسنَ ما قال الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وا سوأتاهُ منكَ وإنْ عَفَوْتَ.

فأفٍّ واللهِ لمختارِ الذنوبِ ومُؤْثِرِ لَذَّةِ لحظةٍ تبقى حسرةً لا تزولُ عن قلبِ المؤمنِ وإن غُفِرَ له.

فالحذرَ الحذرَ من كلٍّ ما يوجبُ خَجَلاً.

وهذا أمرٌ قلَّ أن ينظرَ فيه تائبٌ أو زاهدٌ؛ لأنهُ يرى أنَّ العفوَ قد غَمَرَ الذنبَ بالتوبة الصادقة.

وما ذكرتُه يوجبُ دوامَ الحذرِ والخجلِ.



[الدنيا دار امتحان وبلاء]

مِن الجهل أن يخفى على الإنسانِ مرادُ التكليفِ؛ فإنه موضوعٌ على عكسِ الأغراضِ.

فينبغي للعاقل أن يأنَسَ بانعكاسِ الأغراضِ؛ فإن دعا وسألَ بلوغَ غرضٍ؛ تعبَّدَ اللهَ بالدعاءِ. فإن أُعطِيَ مرادَه؛ شَكَرَ، وإنْ لم ينلْ مرادَهُ، فإنَّ الدنيا ليستْ لبلوغ الأغراضِ، وليقلْ لنفسهِ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أعظم الجهل أنْ يمتعِضَ في باطنِهِ لانعكاس أغراضِهِ، وربّما اعترضَ في الباطنِ، أو ربما قال: حصولُ غرضي لا يضُرُّ، ودعائي لم يُستجبْ. وهذا كلُّه دليلٌ على جهلِهِ وقلةِ إيمانِهِ وتسليمِه للحكمةِ.

= كتاب الإيمان: باب (٨٤) رقم (١٩٣/ ٤٧٥) و(١٩٤/ ٣٢٧).

ومَن الذي حَصَلَ له غرضٌ ثم لم يُكَدَّرْ؟!

هذا آدمُ، طابَ عيشُهُ في الجنة وأُخرجَ منها، ونوحٌ سأَلَ في ابنِهِ فلم يُعْطَ مرادَه، والخليلُ ابْتُلي بالنارِ، وإسحاق بالذبح، ويعقوبُ بفقدِ الولد، ويوسف بمجاهدةِ الهوى، وأيوبُ بالبلاء، وداودُ وسليمانُ بالفتنة... وجميعُ الأنبياءِ على هذا... وأما ما لَقِيَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ من الجوع والأذى وكدرِ العيش؛ فمعلومٌ.

فالدنيا وُضعتْ للبلاءِ.

فينبغي للعاقل أن يُوَطِّنَ نفسَه على الصبرِ، وأن يعلمَ أنَّ ما حَصَلَ من المرادِ؛ فلُطفٌ، وما لم يحصلْ؛ فعلى أصل الخَلْقِ والجِبِلَّةِ للدُّنيا، كما قيل:

طُبِعَتْ على كدرٍ وأنتَ تُريدُها ... صفواً مِنَ الأقْذاءِ والأكْدارِ
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طباعِها ... مُتَطَلِّبٌ في الماء جذوةَ نارِ

وهاهنا تتبيَّنُ قوةُ الإيمانِ وضعفُهُ.

فليستعملِ المؤمنُ مِن أدويةِ هذا المرضِ التسليمَ للمالكِ، والتحكيمَ لحكمتِهِ، وليقلْ: قد قيل لسيِّدِ الكلِّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]... ثم ليُسَلِّ نفسَه بأنَّ المنعَ ليس عن بخل، وإنما هو لمصلحةٍ لا يعلمُها، ولِيُؤْجَرَ الصابرُ عن أغراضِهِ، وليعلَمَ اللهُ الذين سلَّموا ورَضُوا... وأن زمنَ الابتلاءِ يسيرٌ، والأغراضُ مُدَّخَرَةٌ تلْقى بعد قليل، وكأنه بالظُّلمة قدِ انجلتْ، وبفجرِ الأجرِ قد طلع.

ومتى ارتقى فهمُهُ إلى أنّ ما جرى مرادُ الحقِّ سبحانه؛ اقتضى إيمانُه أنْ يريدَ ما يريدَ، ويرضى بما يُقَدِّرُ، إذ لو لم يكنْ كذلك؛ كان خارجاً عن حقيقةِ العبوديةِ في المعنى.

وهذا أصلٌ ينبغي أن يُتأمّل ويُعملَ عليه في كلِّ غَرَضٍ انْعَكَسَ.

فصل

[التعفف عن مال الأمراء والحكام]

رأيتُ خلقاً من العلماءِ والقُصَّاصِ تَضيقُ عليهم الدنيا، فيفزعونَ إلى مخالطةِ السلاطينِ لينالوا مِن أموالهم، وهم يعلمون أنّ السلاطينَ لا يكادونَ يأخذونَ الدنيا من وجهِها ولا يُخرجونها في حقِّها.

فإنّ أكثرَهم إذا حَصَلَ له خراجٌ ينبغي أنْ يُصرَفَ إلى المصالح؛ وهَبَهُ لشاعرٍ! وربما كان معه جنديٌّ يصلُحُ أن تكون مشاهرتُهُ عشرةَ دنانيرَ؛ فأعطاه عشرةَ آلافٍ! وربّما غَزا؛ فأخَذَ ما ينبغي أن يُقْسَمَ على الجيشِ فاصطفاه لنفسِهِ! هذا غيرُ ما يجري من الظُّلم في المعاملاتِ.

وأولُ ما يجري على ذاك العالِم أنه قد يُحرم النفع بعلمِه، وقد رأى بعض الصالحين رجلاً عالماً يخرج من دار أحد الولاة، فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع.

ألم يَرَ المنكراتِ ولا يُنْكِرُ، ويتناولْ من طعامِهم الذي لا يكادُ يحصُلُ إلّا بظلم؛ فينطمسَ قلبُهُ، ويُحرمَ لَذَّةَ المعاملةِ للحقِّ سبحانَه، ثم لا يُقَدَّرَ لكَ أن يهتديَ بك أحدٌ؟ بل ربّما كان فعلُ هذا سبباً لإضلال الناسِ وصرفِهم عن الاقتداءِ به.

فهو يؤذي نفسَه، ويؤذي أميرَه؛ لأنه يقولُ: لولا أنني على صوابٍ ما صَحِبَني، ولأنْكَرَ عليَّ.

ويؤذي العوامَّ؛ تارةً بأن يروا أنّ ما فيه الأميرُ صوابٌ، وتارةً بأنَّ الدخولَ عليه والسكوتَ عن الإنكار جائزٌ، أو يحبِّبُ إليهم الدنيا، ولا خيرَ ـ والله ـ في سَعَةٍ من الدنيا ضَيَّقَتْ طريقَ الآخرةِ.

وأنا أفتدي أقواماً صابروا عَطَشَ الدنيا في هجير الشهواتِ زمانَ العُمُرِ، حتى رُووا يومَ الموتِ من شرابِ الرِّضا، وبقيتْ أذكارُهُم تُرْوَى فَتَرْوِي صدى

القلوبِ، وتجلو صَدَأها[١].

هذا الإمامُ أحمدُ يحتاج، ولا يقبلُ مالَ سلطانٍ.

وهذا إبراهيمُ الحربيُّ يرُدُّ على المعتضد ألفَ دينارٍ.

بَقِيتْ واللهِ أذكارُ القوم وما كان الصبرُ إلّا غفوةَ نوم، ومضتْ لذاتُ المترخصينَ وبَلِيَتِ الأبدانُ ووَهَنَ الدينُ.

فالصبرَ الصبرَ يا من وُفِّقَ، ولا تغبطنَّ مَن اتَّسعَ له أمرُ الدنيا؛ فإنك إذا تأملتَ تلك السّعَةَ؛ رأيتَها ضِيقاً في بابِ الدِّين، ولا ترخِّصْ لنفسكَ في تأويل، فعمرك في الدنيا قليل!

ومتى ضجت النفسُ لقلة صبرٍ؛ فاتْلُ عليها أخبارَ الزهاد؛ فإنها ترعوي وتستحي وتنكسر إن كانت لها هِمَّةٌ أو فيها يَقَظَةٌ.

فصل

[جمهور الناس لا يدركون معنى العبودية الحقة]

تأملتُ أحوالَ الناس؛ فرأيتُ جمهورَهم مُنْسَلّاً من رِبقة العبوديةِ؛ فإن تعبَّدوا؛ فعادةٌ، أو فيما لا ينافي أغراضَهم منافاةً تؤذي القلوبَ:

فأكثرُ السلاطينِ يُحَصِّلونَ الأموالَ من وجوهٍ رَدِيَّةٍ، وينفقونها في وجوهٍ لا تَصْلُحُ، وكأنّهم قد تملَّكوها، وليست مالَ اللهِ! إذا غزا أحدهم ـ باسمه ـ فَغَنِمَ الأموالَ؛ اصطفاها لنفسهِ وأعطاها أصحابَه كيفَ اشتهى!!

والعلماءُ لقوةِ فقرِهم وشدةِ شرهِهم يوافقونَ الأمراءَ وينخرِطون في سِلْكِهم.

والتجارُ على العقودِ الفاسدةِ!

والعوامُّ في المعاصي والإهمال لجانبِ الشريعةِ؛ فإن فاتَ بعضُ

---

(١) صدى القلوب: عطشها.

أغراضِهم؛ فربما قالوا: ما نُريدُ أن نصلِّي! لا صلّى الله عليهم... وقد مَنَعوا الزكاةَ وتركوا الأمرَ بالمعروف.

فمِن الناس من يغرُّهُ تأخيرُ العقوبةِ، ومنهم من كان يقطَعُ بالعفوِ، وأكثرهُم متزلزلُ الإيمانِ، فنسألُ الله أن يُميتنا مسلمينَ.

فصل

[﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾]

من العجيب سلامةُ دين ذي العيال إذا ضاقَ به الكسبُ، فإنه إذا ضاقَ به الأمرُ؛ لا يزالُ يحتالُ؛ فإذا لم يقدِرْ على الحلال؛ ترخَّص في تناول الشُّبهاتِ، فإن ضَعُفَ دينُه؛ مدَّ يدَه إلى الحرام.

فالمؤمنُ إذا عَلِمَ ضَعْفَهُ عن الكسب؛ اجتهدَ في التعففِ عن النكاح، وتقليل النفقةِ إذا حَصَلَ الأولادُ، والقناعةِ باليسيرِ.

واعلمْ أنّه إذا لمْ يجتمعِ الهمُّ؛ لم يحصُل العلمُ ولا العملُ ولا التشاغلُ بالفكرِ في عظمةِ اللهِ.

فاللهَ اللهَ يا من يريدُ حفظ دينِهِ، قد كررتُ عليك الوصيةَ بالتقليل جهدَكَ، وخفف العلائقَ مهما أمكنكَ.

فإن ضجَّتِ النفسُ لمراداتها؛ فقل لها: إن كان عندكِ إيمانٌ فاصبري، وإن أردتِ التحصيلَ لما يفنى ببذل الدِّينِ؛ فما ينفعُكِ، وتفكري في العلماءِ الصادقينَ كأحمدَ وبشرٍ؛ اندفعتِ الأيامُ، وبقي لهم حسنُ الذِّكْرِ.

وفي الجملة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. ورِزقُ اللهِ قد يكونُ بتيسيرِ الصبرِ على البلاء، والأيام تندفعُ، وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ.

فصل

[لا بد من البعد عن كل ما يشتت القلب]

لا ريبَ أنَّ القلبَ المؤمنَ بالإلهِ سبحانه وبأوامِرِهِ يحتاجُ إلى الانعكافِ على ذِكْرِهِ وطاعتِهِ وامتثال أوامرِهِ، وهذا يفتقر إلى جَمْع الهمِّ، وكفى بما وُضِعَ في الطبع مِن المنازعةِ إلى الشهواتِ مشتِّتاً للهمِّ المجتمع.

فينبغي للإنسانِ أن يجتهدَ في جمع همِّهِ؛ لينفردَ قلبُهُ بِذِكْرِ اللهِ سبحانَه وتعالى، وإنفاذِ أوامرِهِ، والتهيُّؤِ للقائِهِ، وذلك إنّما يحصُلُ بقطع القواطعِ والامتناع عن الشواغِل.

وما يُمْكِنُ قطعُ القواطع جملةً، فينبغي أن يَقْطَعَ ما يمكن منها.

وما رأيتُ مُشتِّتاً للهمِّ مُبدِّداً للقلب مثلَ شيئينِ:

أحدُهما: أن تُطاعَ النفسُ في طلبِ كلِّ شيءٍ تشتهيهِ، وذلك لا يوقَفُ على حدٍّ فيهِ، فيذهبُ الدينُ والدنيا، ولا يُنالُ كلُّ المراد؛ مثلُ أن تكونَ الهِمَّةُ في المستحسنات، أو في جمع المال، أو في طلب الرياسة... وما يشبِهُ هذه الأشياءَ. فيا له مِن شَتاتٍ لا جامعَ له، يذهبُ العُمُرُ ولا يُنال بعضُ المُرادِ منه.

والثاني: مخالطةُ الناسِ ـ خصوصاً العوامَّ ـ والمشيُ في الأسواق، فإنّ الطبعَ يتقاضى الشهواتِ، وينسى الرحيلَ عن الدنيا، ويحبُّ الكسلَ عن الطاعةِ والبَطالَة والغفلة والراحةَ، فيثقُلُ على من ألِفَ مخالطةَ الناس التشاغلُ بالعلم أو بالعبادةِ، ولا يزالُ يخالطُهم حتى تهونَ عليهِ الغيبةُ وتضيعَ الساعاتُ في غيرِ شيءٍ.

فمن أراد اجتماعَ هَمِّهِ فعليهِ بالعُزلةِ؛ فحينئذٍ يخلو القلبُ بمعارِفِهِ، ولا تجدُ النفسُ رفيقاً مثلَ الهوى يُذَكِّرُها ما تشتهي، فإذا اضطُرَّ إلى المخالطةِ؛ كان على وِفاقٍ، كما تتهوَّى الضفدعُ لحظةً ثم تعودُ إلى الماءِ.

فهذه طريقُ السلامةِ، فتأمَّلْ فوائدَها تَطِبْ لكَ.

فصل

[لا تسبوا الدهر ولا تعيبوه]

ما رأتْ عيني مصيبةً نزلتْ بالخلْق أعظمَ من سبِّهم للزمانِ، وعيبِهِم للدَّهْرِ.

وقد كان هذا في الجاهليةِ، ثم نهى رسولُ الله ﷺ عن ذلك، فقال: «**لا تسُبُّوا الدَّهْرَ، فإنَّ اللهَ هوَ الدَّهْرُ**»[1]. ومعناهُ: أنتُم تسبُّونَ مَن فرَّقَ شملَكُم وأماتَ أهاليَكُم، وتنسبُونَه إلى الدّهرِ؛ واللهُ تعالى هو الفاعلُ لذلك.

وربّما اجتمعَ الفُطناءُ الأدباءُ الظِّرافُ ـ على زعمِهِم ـ فلم يكنْ لهم شغلٌ إلّا ذمَّ الدهرِ، وربّما جعلوا اللهَ الدنيا، ويقولونَ: فَعَلَتْ وصَنَعَتْ!

وقد رأيتُ خلقاً يعتقدون أنهم فقهاءُ وفُهماءُ، ولا يتحاشونَ مِن هذا.

وهؤلاءِ إن أرادوا بالدهرِ مرورَ الزمانِ؛ فذاك لا اختيارَ له ولا مرادَ، ولا يعرفُ رُشْداً من ضلال، ولا ينبغي أن يُلامَ؛ فإنّه زمانٌ مُدَبَّرٌ لا مُدَبِّرٌ، فيُتَصَرَّفَ فيه ولا يَتَصَرَّفُ.

وما يُظَنُّ بعاقل أن يشيرَ إلى أنّ المذمومَ، المعرِضَ عن الرُّشْدِ، السَّيِّئَ الحُكْم، هوَ الزمانُ!

فلم يبقَ إلّا أنّ القومَ خَرَجوا عن رِبْقَةِ الإسلام، ونسبوا هذه القبائحَ إلى الصانِع، فاعتقدوا فيه قُصورَ الحكمةِ، وفِعْلَ ما لا يَصِحُّ، كما اعتقدهُ إبليسُ في تفضيل آدمَ.

وهؤلاءِ لا ينفعُهُم، مع هذا الزيغ اعتقادُ إسلام ولا فعلُ صلاة.

---

(١) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم في الألفاظ من الأدب: باب (١) رقم (٢٢٤٦/ ٥). واللفظ لمسلم.

فصل

[اغتنم ساعات العمر فإنها رأس مالك]

من عجائبِ ما أرى مِن نفسي ومن الخلق كلِّهم: الميلُ إلى الغفلةِ؛ معَ العلم بِقِصَرِ العُمُرِ، وأنَّ زيادةَ الثوابِ هناك بقدْرِ العمل ههنا.

فيا قصيرَ العُمُرِ! اغتنمْ يومَي مِنى، وانتظرْ ساعة النَّفْرِ، وإياك أن تَشْغَلَ قلبَكَ بغيرِ ما خُلِقَ له. واحملْ نفسَكَ على المُرِّ، واقمعها إذا أَبَتْ، ولا تُسَرِّحْ لها في الطِّوَل؛ فما أنت إلّا في مرعى، وقبيحٌ بمن كان بين الصفينِ أن يتشاغَلَ بغيرِ ما هو فيه.

فصل

[عادات أهل اليقظة عبادة، وعبادات الغافلين عادة]

تأملتُ على أكثرِ الناس عباداتِهِم؛ فإذا هي عاداتٌ، فأمّا أربابُ اليَقَظَةِ؛ فعاداتُهم عبادةٌ حقيقيةٌ.

فإنَّ الغافلَ يقولُ سبحانَ الله! عادة، والمتيقِّظَ لا يزالُ فِكرُهُ في عجائبِ المخلوقاتِ أو في عَظَمَةِ الخالقِ، فيحرِّكُهُ الفِكْرُ في ذلك إلى تعظيمِ الخالق فيقولُ: سبحانَ اللهِ.

فهذا تسبيحُ المتيقظينَ... وما تزالُ أفكارُهم تجولُ، فتقعُ عباداتُهم بالتسبيحاتِ محقَّقةً.

وكذلك يتفكرونَ في قبائح ذُنوبٍ قد تقدَّمتْ، فيوجِبُ ذلك الفكْرُ حركةَ الباطنِ وقلقَ القلبِ وندمَ النفسِ، فيثمِرُ ذلك أن يقولَ قائِلُهم: أستغفرُ اللهَ.

فهذا هو التسبيحُ والاستغفارُ.

فأما الغافلونَ؛ فيقولونَ ذلك عادةً. وشتّانَ ما بين الفريقينِ.

فصل

[مخالطة الغافلين تشتت القلب والفكر]

لا يصفو التعبُّدُ والتزهُّدُ والاشتغالُ بالآخرةِ إلّا بالانقطاع الكُلّيِّ عن الخلقِ؛ بحيثُ لا يُبْصِرُهم ولا يسمعُ كلامَهم إلّا في وقتِ ضرورةٍ؛ كصلاةِ جُمُعَةٍ أو جماعةٍ، ويحترِزُ في تلك الساعاتِ منهم.

وإنْ كانَ عالماً يريدُ نفعَهُم؛ وعَدَهُم وقتاً معروفاً، واحترزَ في الكلام معهُم.

وأمَّا مَن يمشي في الأسواقِ اليومَ، ويبيعُ ويشتري مع هذا العالَم المظلِم، ويرى المنكراتِ والمستهجناتِ؛ فما يعودُ إلى البيتِ إلّا وقد أظلمَ القلبُ.

وقد كان جماعةٌ من السَّلَفِ يبيعونَ ويشترونَ ويحترِزونَ؛ ومع هذا ما صفا لصافيهم وقتٌ حتى قاطَعَ الخلْقَ.

قال أبو الدرداء: زاولتُ العبادةَ والتجارةَ فلم يجتمعا، فاخترتُ العبادةَ.

وقال أيضاً رضي الله عنه: نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ المُسْلِمِ بَيْتُهُ، يَكُفُّ فِيهِ نَفْسَهُ وَلِسانَهُ وَبَصَرَهُ وَفَرْجَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَالمَجَالِسَ فِي الأسواقِ فَإِنَّهَا تُلْهِي وَتُلْغِي.

فمن قَدَرَ على الحِمْيَةِ النافعةِ واضطُرَّ إلى المخالطةِ والكسبِ للعائلةِ، فليحترزِ احترازَ الماشي في الشوْكِ، وبعيدٌ سلامتهُ.

فصل

[التخليط يُفقد حلاوة العبادة ولذة المناجاة]

مَنْ رُزِقَ قلباً طيِّباً ولَذَّةَ مناجاةٍ؛ فليراع حالَه، ولْيَحْتَرِزْ من التغييرِ.

وإنما تدومُ له حالُه بدوام التَّقوى.

وكنتُ قد رُزِقْتُ قلباً طيِّباً ومناجاةَ خَلْوَةٍ، فأحضرني بعضُ أربابِ

المناصبِ إلى طعامِهِ، فتناولتُ وأكلتُ منه، فلَقيتُ الشدائدَ، ورأيتُ العقوبةَ في الحال، واستمرَّتْ مُدَّةً، وغُصِبْتُ على قلبي، وفقدتُ كلَّ ما كنتُ أجِدُه.

فَتفكّرتُ، وإذا به قد يمكنُ مداراةُ الأمرِ بلقيماتٍ يسيرةٍ، وإنّما التأويلُ جعَلَ تناولَ هذا الطعام بشهوةٍ أكثَرَ ممّا يُدفَعُ بالمداراةِ.

فقالتِ النفسُ: ومِن أينَ لي أنّ عينَ هذا الطعام حرامٌ؟

فقالت اليقَظَةُ: وأين الوَرَعُ عن الشّبهات؟

فلمّا تناولتُ بالتأويل لُقمةً، واستَجْلَبْتُها بالطبع؛ لقيتُ الأمَرَّيْنِ بفقدِ القلبِ؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

فصل

[فكر المؤمن متعلق بالآخرة]

هِمَّةُ المؤمنِ متعلقةٌ بالآخرةِ؛ فكلُّ ما في الدنيا يحركُهُ إلى ذِكْرِ الآخرةِ، وكلُّ مَن شَغَلَهُ شيءٌ؛ فهِمَّتُهُ شغلُه.

ألا ترى أنه لو دخلَ أربابُ الصنائع إلى دارٍ معمورةٍ؛ رأيتَ البزّازَ ينظرُ إلى الفَرْشِ ويحرزُ قيمَتَه، والنّجارَ إلى السَّقْفِ، والبنَّاءَ إلى الحيطانِ، والحائكَ إلى النسيج المَخيطِ...

والمؤمنُ إذا رأى ظُلمةً؛ ذَكَرَ ظُلمةَ القبرِ، وإن رأى مُؤْلِماً؛ ذَكَرَ العقابَ، وإن سمِعَ صوتاً فظيعاً؛ ذَكَرَ نفخةَ الصُّور، وإن رأى الناسَ نياماً؛ ذَكَرَ الموتى في القبور، وإن رأى لذَّةً؛ ذَكَرَ الجنةَ. فهِمَّتُهُ متعلقةٌ بما ثَمَّ، وذلك يشغَلُه عن كلِّ ما تَمَّ.

وأعظَمُ ما عندَه أنّه يتخايلُ دوامَ البقاءِ في الجنةِ، وأنَّ بقاءَه لا ينقطعُ ولا يزولُ ولا يعتريهِ مُنَغِّصٌ، فيكادُ إذا تخايلَ نفسَه متقلباً في تلك اللّذات الدائمةِ التي لا تفنى يطيشُ فَرَحاً، ويسهُلُ عليه ما في الطريق إليها؛ من ألم، ومرضٍ، وابتلاءٍ، وفقدِ محبوبٍ، وهُجوم الموتِ، ومعالجةِ غُصَصِهِ؛ فإنّ

المشتاقَ إلى الكعبةِ يهونُ عليه رَمْلُ زَرُودَ[١]، والتّائِقُ إلى العافيةِ لا يُبالي بمرارةِ الدواء، ويعلمُ أنّ جودَةَ الثمرِ ثَمَّ على مقدارِ جودةِ البِذْرِ هاهنا، فهو يتخيرُ الأجودَ، ويغتنمُ الزرعَ في تشرين العُمُرِ من غيرِ فُتورٍ.

ثمّ يتخايلُ المؤمنُ دخولَ النارِ والعقوبةَ، فيتنغّصُ عيشُه، ويقوى قلقُه، فعنده بالحالينِ شُغْلٌ عن الدنيا وما فيها، فقلبُهُ هائمٌ في بيداءِ الشوقِ تارةً وفي صحراءِ الخوفِ أخرى؛ فما يرى البنيانَ.

فإذا نازلَهُ الموتُ؛ قَوِيَ ظنُّه بالسلامةِ، ورجا لنفسه النجاةَ، فيهونُ عليه.

فإذا نزلَ إلى القبرِ، وجاءَه مَن يسألونَه؛ قال بعضُهم لبعضٍ: دَعُوهُ؛ فما استراحَ إلّا الساعةَ.

نسألُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تامَّةً تحرِّكُنا إلى طلبِ الفضائل، وتمنعُنا من اختيارِ الرذائل؛ فإنّه إنْ وَفَّقَ، وإلّا فلا نافِعَ.

فصل

[الرد على من يعترض على حكمة الخالق]

تأملتُ على قوم يدَّعون العقولَ ويعترضونَ على حكمةِ الخالقِ!

فينبغي أن يُقالَ لهم: هذا الفهمُ الذي دلَّكم على رَدِّ حكمتِهِ؛ أفليس هو مِن مِنَحِهِ؟! أفأعطاكُمُ الكمالَ ورَضيَ لنفسه بالنقصِ؟! هذا هو الكفر المحض الذي يزيدُ في القُبح على الجَحْدِ.

فأولُ القوم إبليسُ؛ فإنّه رأى بعقلِهِ أنّ جَوْهَرَ النار أشرفُ من جوهَرِ الطينِ، فردَّ حِكْمَةَ الخالقِ.

ومرَّ على هذا خلقٌ كثيرٌ من المعترضينَ، مثلُ ابنِ الراونديِّ.

وهذا المعَرِّيُّ اللعينُ يقولُ: كيف يُعابُ ابنُ الحجّاج[٢] بالسُّخْفِ والدهرُ

---

(١) رمال في طريق الحاج من الكوفة.

(٢) أَبُو عَبْدِ اللهِ، الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَجَّاجِ الْبَغْدَادِيُّ، شَاعِرُ الْعَصْرِ، وَسَفِيهُ الأُدَبَاءِ، =

أقبحُ فعلاً منه؟! أتُرى يَعني به الزمانَ؟! كلّا؛ فإنّ مَمَرَّ الأوقاتِ لا يفعلُ شيئاً، وإنما هو تعريضٌ بالله جلَّ شأنُه! وكان يستعجلُ الموتَ؛ ظنّاً منه أنّه يستريحُ! وكان يوصي بتركِ النّكاح والنسك، ولا يرى في الإيجادِ حِكْمَةً إلّا العناءَ والتعبَ!

وهذا لو كان كما ظنَّ؛ كان الإيجادُ عَبَثاً، والحقُّ منزَّهٌ عن العَبَثِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

فإذا كان ما خُلِقَ لنا لم يُخْلَقْ عَبَثاً؛ أفنكونُ نحنُ ـ ونحنُ مواطنُ معرفتِهِ ومجالُ تكليفِهِ ـ قد وُجِدْنا عَبَثاً؟!

وا عجباً! أوَما تقضي العقولُ بوجوب طاعةِ الحكيم الذي تعجِزُ عن معرفةِ حِكَمِ مخلوقاته؟! فكيف تعارِضُه في أفعالِهِ؟! نعوذُ بالله من الخِذْلانِ.

فصل

[دليل صحة نبيّنا أجلى من الشمس]

الحقُّ لا يشتبهُ بباطل، إنما يموِّهُ الباطلُ عند من لا فهمَ له.

وهذا في حقِّ من يدَّعي النبوَّاتِ، وفي حقِّ من يدَّعي الكراماتِ.

أمّا النبوّاتُ؛ فإنَّه قدِ ادَّعاها خلقٌ كثيرٌ؛ ظهرتْ قبائحُهم، وبانت فضائِحُهُم، ومنها ما أوجبتْهُ خِسَّةُ الهمةِ، والتهتُّكُ في الشهواتِ، والتهافتُ في الأقوال والأفعال، حتى افتضحوا.

وقد تنبّأ أقوامٌ قبلَ نبيِّنا ﷺ كزرادشتَ وماني وافتضحوا.

وما مِن المدَّعين إلّا من خُذِلَ.

ودليلُ صِحّةِ نبوةِ نبيِّنا ﷺ أجلى من الشمس:

= وَأَمِيرُ الْفُحْشِ، وَكَانَ شِيعِيّاً، مَاجِناً، مَزَّاحاً، هَجَّاءً، أُمَّةً وَحْدَهُ فِي نَظْمِ الْقَبَائِحِ. «سير أعلام النبلاء».

فإنه ظَهَرَ فقيراً والخلقُ أعداؤه، فوُعِدَ بالمُلكِ فَمَلَكَ، وأخبرَ بما سيكونُ فكان، وصِينَ عن الشَّرَهِ وخساسةِ الهمةِ والكذبِ والكِبْرِ، وأُيِّدَ بالثقةِ والأمانةِ والنزاهةِ والعفةِ، وظهرت معجزاتُه للبعيدِ والقريبِ.

وأنزِلَ عليه الكتابُ العزيزُ الذي حارتْ فيه عقولُ الفصحاءِ ولم يقدِروا على الإتيانِ بآيةٍ تشبِهُهُ فضلاً عن سورةٍ، وقد قال قائِلُهم وافتُضِحَ.

ثم أخبَرَ أنه لا يُعارَضُ فيه فكان كما قالَ. وذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

وكان يقول ﷺ ليلةَ غزاةِ بدرٍ: **«هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غداً، إِنْ شَاءَ اللهُ»**؛ فلا يتعدَّاه[(١)].

وقالَ: **«إذا هلَكَ كِسْرى فلا كِسْرى بعدَه، وإذا هَلَكَ قيصرُ فلا قيصرَ بعدَه»**[(٢)]، فما مَلَكَ بعدهما من له كبيرُ قدْرٍ، ولا من استتبَّ له حالٌ.

ومن أعظم دليل على صدقِهِ أنه لم يُرِدِ الدنيا، فكان يبيتُ جائعاً، ويؤثِرُ إذا وَجَدَ، ويقومُ الليل... وإنما تطلبُ النواميسُ لاجتلابِ الشهواتِ، فلمَّا لم يُرِدْها دَلَّ على أنه يدلُّ على الآخرةِ التي هي حقٌّ.

ثم لم يزلْ دينُهُ حتى عمَّ الدُّنيا، وإن كان الكفرُ في زوايا الأرضِ، إلّا أنه مخذولٌ.

وصار في تابعيهِ من أمَّتِهِ الفقهاءُ الذين لو سمِعَ كلامَهم القدماءُ؛ تحيَّروا في حُسْنِ استخراجِهم، والزُّهَّادُ الذين لو رآهم الرهبانُ تحيَّروا في صدقِ زهدِهم، والفطناءُ الذين لا نظيرَ لهم في القدماءِ.

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير: باب (٣٠) رقم (١٧٧٩/٨٣)، وفي الجنة وصفة نعيمها: باب (١٧) رقم (٢٨٧٣/٧٦)، وأبو داود (٢٦٨١)، والنسائي (٢٠٧٤)، وأحمد (١/٢٦) و(٣/ ٩٠ و٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣١٢٠ و٣٦١٨)، والترمذي (٢٢١٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٣ و٢٤٠ و٥٠١) من حديث أبي هريرة. وقد روي أيضاً من حديث جابر بن سمرة.

فنحمد اللهَ على هذا الدِّين، وعلى أننا من أمَّة هذا الرسول ﷺ.

ولم يزلِ اللهُ ينشيءُ في هذا الدين مِن الفقهاءِ مَن يُظْهِرُ ما أخفاه القاصرونَ، كما ينشِيءُ من علماءِ الحديثِ من يهتِكُ ما أشاعَه الواضِعونَ؛ حفظاً لهذا الدينِ ودفعاً للشُّبُهاتِ عنهُ؛ فلا يزالُ الفقيهُ والمحدِّثُ يُظهِرانِ عُوارَ كلِّ مُلَبِّسٍ بوضعِ حديثٍ أو بإظهارِ دعوى تزهُّدٍ وتنميسٍ؛ فلا يؤثِّرُ ما ادَّعياهُ إلّا عندَ جاهلٍ بعيدٍ من العلم والعمل.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٨].



[اغتنم ساعات عمرك]

وا عجباً من موجودٍ لا يفهمُ معنى الوجودِ؛ فإن فَهِمَ؛ لم يعملْ بمقتضى فهمِهِ!

يعلمُ أن العمرَ قصيرٌ، وهو يضيِّعُهُ بالنوم والبَطالةِ والحديثِ الفارغ وطلبِ اللّذاتِ، وإنّما أيامُه أيامُ عمل لا زمانُ فراغ.

وقد كُلِّفَ بَذْلَ المال بمخالفةِ الطّبع من الشَّرع فَبخِلَ به إلى أنْ يتضايقَ الخناقُ، فيقولَ حينئذٍ: فرِّقوا عني بعد موتي! وافعلوا كذا.

فأين يقعُ هذا لو فُعِلَ؟! وبعيدٌ أن يُفْعَلَ، وإنما يُرادُ بإنفاقِكَ في صحتِكَ مخالفةُ الطبع في تكلُّف مشاقِّ الإخراج في زمنِ السلامةِ.

فافرُقْ بين الحالتين إن كان لك فهمٌ!

فالسعيدُ مَن انتبهَ لنفسه، وعمِلَ بمقتضى عقلِهِ، واغتنمَ زمناً نهايتُهُ الزَّمَنُ، وانتهبَ عمُراً يا قربَ انقطاعِهِ.

ويحكَ! ما تصنعُ بادِّخارِ مالٍ لا يُؤَثِّرُ حسنةً في صحيفةٍ ولا مَكْرُمَةً في تاريخ؟!

ويحكَ! لو ابتلاكَ في مالِكَ؛ لاسْتغثتَ، أو في بدنِكَ ليلةً بمرضٍ؛

لشكوتَ. فأنتَ تستوفي مطلوباتِكَ منهُ، ولا تستوفي حقَّه عليكَ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: ١].

ولْتَعْلَمْ أنّ هذا القدرَ المُفرَّط فيه يُحِلُّ الخلودَ الدائمَ في ثوابِ العمل فيه.

فسبحانَ من مَنَّ على أقوام فهموا المرادَ فأتْعبوا الأجسادَ، وغطّى على قلوبِ آخرينَ فوجودُهم كالعَدَم.

وكيف لا يُتْعِبُ العاقلُ بدنه إتعابَ البُدْنِ والمقصودُ مِنيَ؟!

أترى ما بالُ الحقِّ متجلياً في إيجادِكَ أيها العبدُ؟!

بلى، واللهِ إنّ وجودَكَ دليلُ وجودِهِ، وإن نعمَه عليك دليلُ جودِهِ، فكما قدَّمَكَ على سائرِ الحيواناتِ؛ فقدِّمْهُ في قلبكَ على كلِّ المطلوبات.

وا خيبةَ من جَهِلَهُ، وا فقرَ من أعرضَ عنه، وا ذُلَّ من اعتزَّ بغيرِه، وا حسرةَ منِ اشتغلَ بغيرِ طاعتِه.

فصل

[مخالطة من لا يصلح أذى]

ما رأيتُ أكثرَ أذىً للمؤمن من مخالطةِ مَنْ لا يَصْلُحُ؛ فإنَّ الطبعَ يَسْرِقُ؛ فإنْ لم يتشبَّهْ بهم، ولم يسرِقْ منهم؛ فَتَرَ عن عملِهِ.

فإنَّ رؤيةَ الدنيا تَحُثُّ على طلبِها، وقد رأى رسولُ اللهِ ﷺ سِتراً على بابِهِ فَهَتَكَهُ، وقال: «**ما لي وللدُّنيا**»[1]، ولَبِسَ ثوباً له طرازٌ فرماهُ، وقال: «**شَغَلَتْني**

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (٨٨٥٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٤٤٧)، عن عائشة. وقد جاء أيضاً في حديث رواه البخاري (٢٦١٣)، وأبو داود (٤١٤٩) عن ابن عمر قال: أتى النبي ﷺ بيت فاطمة فلم يَدخُلْ عليها، وجاء عليٌّ فذَكَرَتْ لهُ ذلك، فذكرَهُ للنبيِّ ﷺ، قال: «**إني رأيتُ على بابِها سِتْراً مَوشِيّاً، فقال: ما لي وللدنيا**». فأتاها عليٌّ فذكَرَ ذلكَ لها، فقالت: ليأْمُرْني فيه بما شاءَ. قال: «**تُرسِلُ به إلى فُلانٍ**». أهلِ بيتٍ بِهم حاجةٌ.

أعلامُه»[١]، ولَبِسَ خاتَماً ثمَّ رَماه، وقال: «**شَغَلَنِي هذَا عَنْكُمْ مُنْذُ الْيَوْمِ، إِلَيْهِ نَظْرَةٌ وَإِلَيْكُمْ نَظْرَةٌ**»[٢].

وكذلك رؤيةُ أربابِ الدنيا ودُورِهم وأحوالِهم، خصوصاً لِمَنْ له نفسٌ تطلُبُ الرِّفعةَ.

وكذا سماعُ الأغاني ومخالطةُ الصوفيةِ الذين لا نَظَرَ لهم اليومَ إلّا في الرزقِ الحاصلِ، لو كان من أيِّ مكانٍ؛ قَبِلوهُ، ولا يتورعونَ أن يأخذوا من ظالم، وليس عندَهم خوفٌ كما كان أوائِلُهم؛ فقد كان سَرِيٌّ السَّقْطيُّ يبكي طولَ الليل وكان يبالِغُ في الورع. وهم ليسَ لهم وَرَعُ سَرِيٍّ، ولا لهم تعبُّدُ الجنيدِ، وإنّما ثَمَّ أكلٌ ورقصٌ وبطالةٌ وسماعُ أغانٍ.

وادّعاؤُهم أنَّ سماعَ هذه الأشياءِ يدعو إلى الآخرةِ فوقَ الكَذِبِ!

ولقد كان جماعةٌ من القدماءِ يرونَ أوائلَ الصوفيةِ يتعبدونَ ويتورعونَ، فيعجبُهم حالُهم، وهم معذورونَ في إعجابهم بهم؛ وإن كانَ أكثرُ القوم في تعبُّدِهم على غيرِ الجادّةِ، كما ذكرتُ في كتابي المسمّى بـ «تلبيس إبليس».

فالبعدُ عن هؤلاء لازمٌ.

وينبغي للمنفردِ لطاعة الله تعالى عن الخلق أن لا يخرُجَ إلى سوقٍ جَهْدَهُ، فإنْ خرجَ ضرورةً غضَّ بصرَه، فقد قال الشاعر:

والمرء ما دام ذا عين يقلبها … في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضرّ مهجته … لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

وأن لا يزورَ صاحبَ منصبٍ ولا يلقاهُ، فإن اضْطُرَّ؛ دارَى الأمرَ، ولا يخالِطَ عاميّاً إلّا لضرورةٍ مع التحرُّزِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣ و٧٥٢ و٥٨١٧)، ومسلم في المساجد: باب (١٥)، (٥٥٦/ ٦١ و٦٣).

(٢) (صحيح) رواه أحمد (١/ ٣٢٢)، والنسائي في «الصغرى» (٥٢٨٩)، و«الكبرى» (٩٤٤٧).

ولْيجْعَلْ خلوتَهُ أنيسَه، والنظَرَ في سِيَرِ السلفِ جليسَه، ولِيكُنْ له وظيفةٌ من زيارة القبور والخلوة بها، ولا ينبغي أن يفوتَه وِرْدُ قيام الليل، ولْيَكُنْ بعدَ النصفِ الأول، فَلْيُطِلْ مهما قَدَرَ؛ فإنه زمانٌ بعيدُ المِثْل. ولْيُمَثِّلْ رحيلَه عن قربٍ لِيَقْصُرَ أملُه، وليتزوّدَ في الطريقِ على قَدْرِ طول السفرِ.

نسألُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً من فضلِهِ، وإقبالاً على عِبادتِهِ، وأن لا يخذِلَنا بالالتفاتِ عنه؛ إنه قريبٌ مجيبٌ.



[الاعتراف بالتقصير]

كلّما نظرتُ في تواصل النِّعَم عليَّ؛ تحيرتُ في شُكْرِها.

وأعلمُ أنّ الشكرَ من النعم؛ فكيفَ أشكُرُ؟! لكنني معترفٌ بالتقصيرِ، وأرجو أنْ يكونَ اعترافي قائماً ببعضِ الحقوقِ.

وعندي خَلَّةٌ أرجو بها كلَّ خيرٍ؛ وهي أن من يصومُ أو يصلي يرى أنه تَعَبَّدَ وكأنه يقضي حقَّ المعبود، وأنا أرى أنّي إذا صليتُ ركعتينِ فإنما قمتُ أُكْدي[1]؛ فلنفسيَ أعملُ؛ إذ المعبود غنيٌّ عن طاعتي.

وكان بعضُ المشايخ يقولُ: جاء في الحديثِ: «**الدُّعاءُ عبادةٌ**»[2]، وأنا أقول: والعبادةُ دعاءٌ.

فالعجبُ ممّن يقفُ للعبادة يسألُ حظَّ نفسِهِ؛ كيفَ يرى أنّه قد فعلَ شيئاً؟! إنما أنت في حاجتِكَ، ومِنَّةُ مَن أيقظَكَ لا تقاومُها عبادتُك؛ فأنا أقولُ كما قالَ الأولُ:

يا مُنتهى الآمالِ أنْـ ـتَ كفَلْتَني وحَفِظتَني

---

(١) أَكْدَى: أي استجدى وأَلَحَّ في المسألة.

(٢) (**صحيح**) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩ و٣٥٥٥ و٣٦٩٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧ و٢٧١ و٢٧٦).

وعَـدا الـزّمـانُ عَـلَـيَّ كَـيْ يـجْـتـاحَـني فـمـنعـتَـنـي
فـانـقـادَ لـي مُـتـخَـشِّـعـاً لَـمَّـا رآكَ نَـصَـرتَـنـي

* * *

وكَـسَـوْتـنـي ثـوبَ الـغِـنـى ومـن الـمَـثـالِـب صُـنـتـنـي
فـإذا سـكـتُّ بـدأْتَـنـي وإذا سـألـتُ أجـبـتـنـي

* * *

فـإذا شـكـرتُـكَ زِدتـنـي فـمـنـحـتـنـي وبَـهَـرتـنـي
أوْ إنْ أجُـدْ بـالـمـال فَـالْـ أمـوالُ أنـتَ أفَـدْتَـنـي

فصل

[﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾]

رأيت أكثرَ العلماءِ يتشاغلونَ بصورةِ العلم؛ فَهَمُّ الفقيهِ التدريسُ، وهَمُّ الواعظِ الوعظُ...

فهذا يرعى درْسَهُ، فيفرحُ بكثرةِ من يسمعهُ، ويقدحُ في كلام من يخالِفُه، ويمضي زمانهُ في التفكُّرِ في المناقضاتِ؛ ليقهرَ مَن يجادِلُه، وعينُه إلى التصدُّرِ والارتفاع في المجالسِ، وربّما كانت هِمَّتَه جمعُ الحطام ومخالطةُ السلاطينِ.

والواعظُ همّتُه ما يُزَوِّقُ به كلامَه، ويُكَثِّرُ جمعَه، ويجلبُ به قلوبَ الناس إلى تعظيمِهِ، فإن كانَ له نظيرٌ في شغلِهِ؛ أخذَ يطعُنُ فيه.

وهذه قلوبٌ غافلةٌ عن الله ﷻ؛ إذْ لو كانتْ لها به معرفةٌ؛ لاشتغلتْ به، وكان أنْسُها بمناجاتِهِ، وإيثارُها لطاعتِهِ، وإقبالُها على الخلْوةِ به... لكنّها لما خلتْ مِن هذا تشاغلتْ بالدّنيا، فإذا خلتْ بعبادةِ الله تعالى لم تجدْ لها طَعْماً، وكان جمعُ الناسِ أحبَّ إليها، وزيارةُ الخلقِ لها آثر عندَها وهذه علامةُ الخِذْلانِ.

وعلى ضدِّ هذا؛ متى كان العالِمُ مقبلاً على اللهِ سبحانَه، مشغولاً بطاعتِهِ؛ كان أصعبَ الأشياءِ عندَه لقاءُ الخَلْقِ ومحادثتُهم، وأحبَّ الأشياءِ إليه

الخلوةُ، وكان عندَه شغلٌ من القدْح في النُّظَراءِ أو عن طلبِ الرياسةِ؛ فإنَّ ما عَلَّقَ به هِمَّتَهُ من الآخرةِ أعلى مِن ذلك.

والنفسُ لا بُدَّ لها مما تشاغلُ به. فمن اشتغل لخدمةِ الخلق وأعرضَ عن الحقِّ؛ فإنما يربِّي رياسَتَهُ، وذلك يوجبُ الإعراضَ عن الحقِّ، و﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].



[رؤية حقيقة الأشياء]

قد جاء في الأثرِ: اللّهم أرِنا الأشياء كما هي.

وهذا كلامٌ حسنٌ غايةً، وأكثرُ الناس لا يرونَ الأشياءَ بعينِها؛ فإنهم يرونَ الفاني كأنّه باقٍ، ولا يكادونَ يتخايلونَ زوالَ ما هُمْ فيه؛ وإن عَلِموا ذلك؛ إلّا أنّ عينَ الحِسِّ مشغولةٌ بالنظرِ إلى الحاضرِ.

ألا ترى زوالَ اللذةِ وبقاءَ إثمِها؟!

ولو رأى اللصُّ قَطْعَ يدِهِ؛ هانَ عندَه المسروقُ.

فمَن جَمَعَ الأموالَ، ولم ينفقْها فما رآها بعينها؛ إذ هي آلةٌ لتحصيل الأغراضِ، لا تُرادُ لذاتِها.

ومَن رأى المعصيةَ بعيني الشهوةِ؛ فما رآها، إذ فيها من العيوبِ ما شئتَ، ثم ثمرتُها عقوبةٌ آجلةٌ، وفضيحةٌ عاجلةٌ.

فكم يتعلَّقُ بالزّنا مِنْ مِحَنٍ لا يفي معشارُ عُشْرِها بلَذَّةِ لحظةٍ.

منها هَتْكُ العِرْض بين الناس، وكشفُ العوراتِ المحرّمةِ، وخيانةُ الأخ المسلم في زوجتِهِ، إن كانتْ متزوجةً، وفضيحةُ المزنيِّ بها وهي كأختٍ له أو بنتٍ... فإنْ عَلِقَتْ منه ولها زوجٌ؛ ألحقتْه بذلك الزوج! وكان هذا الزَّاني سبباً في ميراثِ مَن لا يستحقُّ ومَنْع مَن يستحقُّ... ثمَّ يتسلسلُ ذلك من ولدٍ إلى ولدٍ.

وأما سَخَطُ الحقِّ سبحانَه؛ فمعلومٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال ﷺ: «**ما من ذنب ـ بعدَ الشِّركِ ـ أعظمُ عندَ اللهِ تعالى مِنْ نطفةٍ وَضَعَها رجلٌ في رحم لا تَحِلُّ له**»[١].

ومَن له فهْمٌ؛ يعلَمُ أنّ المرادَ من النطفةِ إيجادُ الموحِّدينَ.

فمن طلبَ الشهوةَ، ونَسِيَ جنايته بالزنا؛ فما رأى الأشياءَ على ما هي.

وقِسْ على هذا المطعمَ والمشربَ وجمعَ المال... وغيرَ ذلك.

فصل

[أكبر الحماقة ردّ الجاهل على العالم]

إنْ قالَ قائلٌ: أيُّ فائدةٍ في خَلْق ما يؤذي؟!

فالجوابُ: أنّه قد ثبتتْ حكمةُ الخالق؛ فإذا خَفِيَتْ في بعض الأمورِ، وَجَبَ التسليمُ.

ثمّ إنّ المستحسناتِ في الجملةِ أُنموذَجُ ما أُعِدَّ من الثوابِ، والمؤذياتِ أُنموذجُ ما أُعِدَّ من العقابِ.

وما خُلِقَ شيءٌ يضرُّ إلّا وفيه منفعةٌ.

قيلَ لبعض الأطباء: إنّ فلاناً يقول: أنا كالعقربِ أضرُّ ولا أنفعُ!

فقالَ: ما أقلَّ علمَه. إنها لَتَنْفَعُ إذا شُقَّ بطنُها ثم شُدَّ على موضِع اللّسعةِ.

وقد توضعُ في جوفِ فخارٍ مسدودِ الرأس مُطْبَقِ الجوانبِ، ثم يوضعُ الفخارُ في تنُّورٍ، فإذا صارتْ رماداً؛ سُقِيَ مِنْ ذلك الرمادِ مقدارُ نصفِ دانِقٍ[٢]

---

(١) **(مرسل ضعيف)** رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الورع» عن الهيثم بن مالك الطائي.

(٢) الدَّانق: من الأوزان، وهو سدس الدرهم.

أو أكثرُ مَنْ بهِ الحصاةُ، فيفتِّتُها مِنْ غيرِ أن يضُرَّ بشيءٍ من سائرِ الأعضاء. وقد تلسعُ العقربُ مَن به حُمَّى عتيقةٌ فتزولُ. ولَسَعَتْ رجلاً مفلوجاً فزالَ عنه الفالجُ. وقد تُلقى في الدُّهْنِ حتى يجتذِبَ قُواها، فيزيلُ ذلك الدُّهنُ الأورامَ الغليظةَ... ومثل هذا كثيرٌ.

فالجاهلُ عدوٌّ لما جَهلَهُ، وأكبرُ الحماقةِ ردُّ الجاهل على العالم.



[جلال العبادة وجمال العابدين]

كلّما أوْغَلَتِ الفهومُ في معرفةِ الخالق، فشاهدتْ عظمتَهُ ولطفَهُ ورِفعتَهُ؛ تاهت في محبتِهِ.

وقد كان خلْقٌ من الناس غلبتْ عليهم محبتُهُ، فلم يقدروا على مخالطة الخلق.

ومنهُم من لم يقدرْ على السكوتِ عن الذِّكْرِ.

وفيهم مَن لم يَنَمْ إلّا غَلَبَةً.

كان أبو عُبيدة الخوّاصُ قد غَلَبَه الوَجْدُ، فكان يقول: وا شوقاه إلى منْ يراني ولا أراه.

وكان فتحُ بن شخرفَ يقولُ: قَدْ طالَ شَوْقي إليكَ، فعجِّلْ قُدومي عليكَ.

وكان ابنُ عقيل يقولُ: إنّ التبذُّلَ فيه سبحانَه أحسنُ من التجمُّل في غيرِه.

هل رأيتَ للمتزينين برياشِ الدنيا سمتاً كأثوابِ الصالحينَ؟

هل رأيتَ خِماراً أحسنَ مِن نُعاس المتهجدين؟

هل شاهدت ماءً صافياً أصفى من دُموع المتأسفين؟

هل رأيتَ رؤوساً مائلةً كرؤوس المنكسرين؟

هل لصِقَ بالأرض شيءٌ أحسنُ من جباهِ المصلينَ؟

هل حرّك نسيمُ الأسحار أوراقَ الأشجارِ فَبَلَغَ مبلغَ تحريكِهِ أذيالَ المتهجدين؟

هل ارتفعتْ أكفٌّ وانبسطتْ أيدٍ فضاهتْ أكفَّ الرّاغبينَ؟

هل حرّك القلوبَ صوتُ ترجيع لحنٍ أو رنّةُ وَتَرٍ كما حرّك حنينُ المشتاقين؟!

وإنّما يحسُنُ التبذُّل في تحصيل أوفى الأغراضِ؛ فلذلك حَسُنَ التبذُّلُ في طاعةِ المنعِم.

فصل

[علامة المخلص أن يكون في جلوته كخلوته]

لا يَغُرَّكَ مِن الرجل طنطنتُهُ وما تراهُ يفعلُ من صلاةٍ وصومٍ وصدقةٍ. إنّما الرجلُ هو الذي يراعي شيئين: حفظِ الحُدودِ، وإخلاصِ العمل.

فكم قد رأينا متعبِّداً يَخْرِقُ الحدودَ بالغيبة وفعل ما لا يجوزُ ممّا يوافِقُ هواه!

وكم قدِ اعتبرْنا على صاحبِ دِينٍ أنّه يَقْصِدُ بفعلِهِ غيرَ اللهِ تعالى!

وهذه الآفة تزيدُ وتنقُصُ في الخلقِ.

فالرجلُ كلُّ الرجل هو الذي يراعي حدودَ اللهِ، وهي ما فُرِضَ عليه وأُلزِمَ به، ولا يتعدّاها إلى هواهُ، ويُحْسِنُ القصدَ، فيكونُ عملُه وقولُه خالصاً لله تعالى، لا يريدُ به الخلقَ ولا تعظيمَهم له.

وعلامةُ المخلصِ أن يكونَ في جلوتِهِ كخلوتِهِ.

واعلم أنّ المعمولَ معه لا يريدُ الشُّركاءَ، فالمخلصُ مفردٌ له بالقصدِ، والمرائي قد أشركَ ليحصُلَ له مدحُ الناس؛ وذلك ينقلبُ؛ لأنّ قلوبَهم بيدِ من أشركَ معه، فهو يقلِّبها عليه لا إليه.

فالموفَّق من كانت معاملتُهُ باطنةً وأعمالُهُ خالصةً، وذاك الذي تحبُّه الناسُ وإنْ لم يُبالِهِم، كما يمقتونَ المرائيَ وإنْ زادَ تعبُّده.

ثمَّ إنَّ الرجلَ الموصوفَ بهذه الخصال لا يتناهى عن كمال العلوم، ولا يُقَصِّرُ عن طَلَبِ الفضائل؛ فَمَلأَ الزمانَ أكثرَ ما يسعُهُ من الخيرِ، وقلبُهُ لا يفتُرُ عن العمل القلبيِّ؛ إلى أن يصيرَ شُغلُهُ بالحقِّ سبحانَه وتعالى.

فصل

[العاقل المغلوب بالهوى ترجى هدايته]

إذا رأيتَ قليلَ العقل في أصل الوَضْع؛ فلا تَرْجُ خيرَهُ.

فأمّا إنْ كانَ وافرَ العقل، لكنَّه يَغْلِبُ عليه الهوى؛ فارْجُه.

وعلامةُ ذلك أنّه يدبّرُ أمرَهُ في جهلِهِ؛ فيستترُ من الناس إذا أتى فاحشةً، ويراقبُ في بعض الأحوال، ويبكي عندَ الموعظةِ، ويحترِمُ أهلَ الدِّينِ، فهذا عاقلٌ مغلوبٌ بالهوى؛ فإذا انتبَهَ بالندم؛ خَنَسَ شيطانُ الهوى، وجاء مَلَكُ العقل.

فأمّا إذا كان قليلَ العقل في الوضع ـ وعلامتُه أن لا ينظُرَ في عاقبةٍ عاجلةٍ ولا آجلةٍ، ولا يستحيَ من الناس أن يَرَوْهُ على فاحشةٍ، ولا يُدَبِّرَ أمرَ دُنياه ـ فذاك بعيدُ الرّجاءِ، وقد يندُرُ مِن هؤلاءِ من يُفْلِحُ، ويكونُ السببُ فيه خميرةٌ من العقل غطَّى عليها الهوى ثم تَكَشَّفَ قليلاً ليعودَ؛ فمثلُهُم كمثل مصروع أفاقَ.

فصل

[النظر في العواقب شأن العقلاء]

ينبغي الاحترازُ من كلِّ ما يجوزُ أنْ يكونَ، ولا ينبغي أن يقالَ: الغالبُ السلامةُ.

وقد رأينا مَن نَزَلَ مع الخيل في سفينةٍ، فاضطربتْ، فغرِقَ مَنْ في السفينةِ، وإنْ كان الغالبُ في هذه الحالةِ السلامةَ.

وكذا ينبغي أنْ يَقْدِرَ[1] الإنسانُ في نفقته، وإن رأى الدنيا مقبلةً؛ لجوازِ أن تنقطعَ تلك الدنيا، وحاجةُ النفس لا بدَّ مِن قضائِها، فإذا بذَّرَ وقتَ السَّعَةِ، فجاءَ وقتُ الضيقِ لم يأمن أن يدخُلَ في مداخلِ سَوْءٍ وأن يتعرَّضَ بالطلبِ من الناسِ.

وكذلك ينبغي للمُعافَى أن يُعِدَّ للمرضِ، وللقويِّ أن يتهيَّأَ للهرم...

وفي الجملة؛ فالنظرُ في العواقب وفيما يجوزُ أنْ يَقَعَ شأنُ العقلاءِ.

فأما النظرُ في الحالةِ الراهنةِ فَحَسْبُ؛ فحالةُ الجَهَلَةِ الحمقى؛ مثلُ أن يرى نفسَه مُعافىً وينسى المرضَ، أو غَنيّاً وينسى الفَقْرَ، أو يرى لَذَّةً عاجلةً وينسى ما تجني عواقِبُها.

وليس للعقل شُغْلٌ إلّا النظرَ في العواقبِ، وهو يُشيرُ بالصوابِ من أينَ يُقْبِلُ.

فصل

[لا تيأس من روح الله]

يَبينُ إيمانُ المؤمنِ عندَ الابتلاءِ؛ فهو يبالغُ في الدعاء، ولا يرى أثراً للإجابةِ، ولا يتغيَّرُ أملُه ورجاؤُه ولو قويتْ أسبابُ اليأس؛ لعلمِهِ أنّ الحقَّ أعلمُ بالمصالح، أو لأنَّ المرادَ منه الصبرُ أو الإيمانُ؛ فإنّه لم يحكُمْ عليه بذلك إلّا وهو يريدُ من القلبِ التسليمَ؛ لينظُرَ كيفَ صبرُهُ، أو يريدُ كثرةَ اللجإِ والدعاءِ.

فأمّا من يريدُ تعجيلَ الإجابةِ ويتذمَّرُ إنْ لم تَتَعَجَّلْ؛ فذاكَ ضعيفُ

---

(١) يقدر: يقتصد.

الإيمانِ، يرى أنّ له حقّاً في الإجابةِ، وكأنه يتقاضى أُجْرَةَ عملِهِ.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يزالُ العبدُ بخيرٍ ما لمْ يَسْتَعْجِلْ**». قيلَ لهُ: وما يَسْتَعْجِلُ؟ قال: «**يقولُ: دَعَوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لي**»(١).

فإيَّاك إيّاك أن تستطيلَ زمانَ البلاءِ، وتضجَرَ مِنْ كثرةِ الدّعاءِ، فإنّك مبتلىً بالبلاءِ، مُتَعَبَّدٌ بالصّبرِ والدّعاءِ، ولا تيأسْ من رَوْحِ اللهِ وإنْ طال البلاءُ.

أما سمعتَ قصةَ يعقوبَ عليه السلام؛ بَقِيَ ثمانينَ سنةً في البلاءِ(٢) ورجاؤُهُ لا يتغيَّرُ، فلمّا ضُمَّ إلى فَقْدِ يوسُفَ بنيامينَ؛ لم يتغيّرْ أملُه، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

فصل

[تذهب لذات المعاصي وتبقى تبعاتها]

تذكرتُ في سببِ دُخول جهنمَ؛ فإذا هو المعاصي، فنظرتُ في المعاصي؛ فإذا هي حاصلةٌ من طَلَبِ اللّذّاتِ، فنظرتُ في اللّذّاتِ، فرأيتُ في ضمنِها من الأكدارِ ما يصيِّرُها نَغَصاً، فتخرجُ عن كونِها لذّاتٍ.

فكيفَ يَتْبَعُ العاقلُ نفسَه ويرضى بجهنمَ لأجلِ هذه الأكدارِ؟!

فمِنَ اللّذات الزّنا؛ فإن كان المرادُ إراقةَ الماءِ؛ فقدْ يُراقُ في حلال، وإن كانَ في معشوقٍ؛ فمُرادُ النفس دوامُ البقاءِ مع المعشوقِ؛ فإذا هي مَلَكَتْهُ؛ فالمملوكُ مملولٌ، وإن هو قارَبَهُ ساعةً ثم فارَقَهُ؛ فحسرةُ الفراقِ تَرْبو على لَذَّةِ القُرْبِ، وإنْ كان وُلِدَ له مِن الزّنا؛ فالفضيحةُ الدائمةُ والعقوبةُ التّامَّةُ وتنكيسُ الرأس عند الخالقِ والمخلوقِ... وأمّا الجاهلُ فيرى لَذَّتَهُ في بلوغ

---

(١) (**صحيح لغيره**) رواه أحمد (٣/١٩٣ و٢١٠)، وأبو يعلى (٢٨٦٧)، والطبراني في «الأوسط»، والبزار (٦٦٦٦). انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٥٠).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٠٧)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» و«العقوبات» عن الحسن. وهو مستبعد جداً، وظاهر سياق القصة في القرآن تشير إلى غير هذه المدة.

ذلك الغَرَض، ويَنسى ما يجني مما يُكدِّرُ عيشَ الدنيا والآخرةِ.

ومن ذلك شُربُ الخمرِ، فإنَّه تنجيسٌ للفم، وإبعادٌ للعقل، وتأثيراتُه معلومةٌ عند الخالق والمخلوق، فالعجبُ ممّن يُؤْثِرُ لَذَّةَ ساعةٍ تَجْني عِقاباً وذَهابَ جاهٍ، وربّما خَرَجَ بالعربدةِ إلى القتل!!

وعلى هذا فَقِسْ جميعَ المَذوقاتِ؛ فإن لَذَّاتِها إذا وُزِنَتْ بميزانِ العقل لا تفي بمعشارِ عُشَيْرِ عواقِبِها القِباح في الدنيا والآخرة، ثم هي نفسُها ليستْ بكثيرِ شيءٍ...

فكيفَ تُباعُ الآخرةُ بمثل هذا؟!

سبحانَ مَنْ أنعمَ على أقوام، كلَّما لاحتْ لهم لَذَّةٌ؛ نَصَبوا ميزانَ العقل، ونظروا فيما يَجْني، وتلمَّحوا ما يُؤَثِّرُ تركُها، فرجّحوا الأصلحَ، وطَمَسَ على قلوبٍ؛ فهي ترى صورةَ الشيءِ، وتنسى جِناياتِهِ.

ثم قدِّرْ حصولَ ما طلبتَ من اللّذّات وذهابها، واحسبْ أنّها قد كانتْ وقد هانتْ وتخلّصْتَ مِن محنِها؛ أين أنتَ من غيرِكَ؟! أينَ تَعَبُ عالمٍ قد دَرَسَ العلم خمسينَ سنةً؟! ذَهَبَ التعبُ وحَصَلَ العلمُ. وأينَ لَذَّةُ البَطَّالِ؟! ذهبتِ الراحةُ وأعقبتِ النّدَمَ.

فصل

[من تَبِع العقل سلم ومن تَبِع الشهوات ندم]

مَن وَقَفَ على موجَبِ الحسِّ هَلَك، ومَنْ تبعَ العقلَ سَلِمَ.

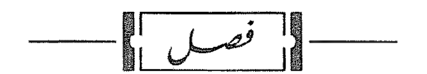
لأنّ مجردَ الحسِّ لا يرى إلّا الحاضرَ، وهو الدّنيا.

وأمّا العقلُ فإنه ينظرُ إلى المخلوقات، فيعلمُ وجودَ خالقٍ قد مَنَحَ، وأباحَ، وأطلقَ، وحَظَرَ، وأخبرَ: أني سائِلُكم ومبتليكُم؛ ليظهرَ دليلُ وجودي عندَكم بتركِ ما تشتهونَ طاعةً لي، وأنّي قد بنيتُ لكم داراً غيرَ هذه؛ لإثابةِ مَن يُطيعُ وعقوبةِ مَن يخالِفُ.

ثم لو تُرِكَ الحسُّ وما يشتهي مع أغراضِهِ؛ قَرُبَ الأمرُ، إنّما يزني فيُجْلَدُ، ويشربُ الخمرَ فيُعاقَبُ، ويسرِقُ فيُقْطَعُ، ويفعلُ زَلَّةً فيُفْضَحُ بين الخلقِ، ويُعْرِضُ عن العلم إلى البطالةِ فيقعُ الندمُ عند حصول الجهل.

ثم إنّا نرى الكثيرَ ممّنْ عَمِلَ بمقتضى عقلِهِ قد سَلِمَتْ دُنياه وآخرتُهُ، ومُيِّزَ بين الخَلْقِ بالتعظيم، وكان عيشُه في لذَّاتِهِ غالباً خيراً من عيش موافقٍ للهوى.

فَلْيعتبرْ ذو الفهم بما قلتُ، ولْيعملْ بمقتضى الدّليل؛ وقد سَلِمَ.



[زمان الابتلاء ضيف قراه الصبر]

ما رأيتُ أظرفَ من لَعِبِ الدّنيا بالعقول!

وقد سمِعْنا ورأينا جماعةً من الفطناءِ الكاملي العقل، لعبتْ بهمُ الدنيا حتى صاروا كالمجانينِ؛ فَوَلُوا الولاياتِ، فخرجوا إلى القتل والضّرب والحبس والشّتم وذَهابِ الدِّينِ والمباشرةِ للظّلم، كلُّه لأجل دُنيا تذهبُ سريعاً، وهي في مدةِ إقامَتها معجونةٌ بالنَّغَصِ.

فيا أيُّها المرزوقُ عقلاً لا تبخسْهُ حقَّه، ولا تطفئ نورَه، واسمعْ ما نشيرُ بهِ، ولا تلتفتْ إلى بكاءِ طفل الطبع لفواتِ غرضِهِ؛ فإنّك إن رحمتَ بكاءَه؛ لم تقدِرْ على فطامِهِ، ولم يمكنْكَ تأديبُهُ، فيبلغَ جاهلاً فقيراً:

لا تَسْهُ عن أدَبِ الصَّغيـ ـرِ ولَوْ شَكا أَلَمَ التَّعَبْ
وَدَعِ الكَبيرَ لِشَأْنِهِ كَبُرَ الكَبيرُ عَنِ الأَدَبْ

واعلمْ أنّ زمانَ الابتلاءِ ضيفٌ قِراهُ الصبرُ؛ كما قالَ أحمدُ بنُ حنبل: إنّما هو طعامٌ دونَ طعام، ولِباسٌ دونَ لِباس، وأنّها أيامٌ قلائل.

فلا تنظرْ إلى لَذَّةِ المترفينَ، وتلمَّحْ عواقِبَهم، ولا تَضِقْ صدراً بضيقِ المعاشِ، وعلِّل الناقةَ بالحَدْوِ تسير:

طاوِلْ بها اللّيلَ مالَ النجمُ أمْ جَنَحا ... ومَاطِل النّوْمَ ضَنَّ الجَفْنُ أمْ سَمَحا
فإنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْها المَجَرَّة مِنْ ... ضَوْءِ الصَّباح وعِدْها بالرَّواح ضُحى

وقد كان أُهدِيَ إلى أحمدَ بن حنبل مالٌ، فردَّه، ثم قالَ بعدَ سنةٍ لأولادهِ: لو كُنَّا قَبِلْناه؛ كان قد ذَهَب.

ومرَّ بِشْرٌ على بئرٍ، فقالَ لهُ صاحبهُ: أنا عطشانُ. فقالَ: البئرَ الأخرى، فَمَرَّ عليها، فقالَ لهُ: الأخرى، ثم قالَ: كذا تُقْطَعُ الدُّنيا.

ودَخَلوا إلى بشرٍ الحافي وليسَ في دارِهِ حصيرٌ، فقيلَ له: ألا بذا تُؤذَى؟ فقالَ: هذا أمر ينقضي.

وبعد هذا؛ فلا أطالبُكَ بهذه الرتبةِ، بل أقولُ لكَ: إنْ حَصَلَ لكَ شيءٌ من المباح، لا مَنّ فيه ولا أذىً، ولا نِلتَهُ بسؤال، ولا مِن يدِ ظالم تعلمُ أنّ مالَه حرامٌ أو فيه شبهةٌ؛ فافسحْ لنفسِكَ في مباحاتِها بمقدارِ ما تحتاجُ إليه، وكنْ مُقَدِّراً للنفقةِ غيرَ مبذِّرٍ؛ فإنّ الحلالَ لا يحتملُ السَّرَفَ، ومتى أسْرَفْتَ؛ احتجتَ إلى التعرُّضِ للخلقِ، والتناول مِن الأكدارِ.

وإنْ ضاقَ بكَ أمرٌ فاصْبِرْ، فإنْ ضَعُفَ الصبرُ فَسَلْ فاتحَ الأبوابِ؛ فهو الكريمُ، وعندَه مفاتِحُ الغيبِ، وإيّاك أن تبذُلَ دينَك بتصنُّع للخلْقِ أو بتقرُّبٍ إلى الأمراءِ وتستعطي أموالهم، واذكرْ طريقَ السَّلفِ.

ومَنْ صَفا نَظَرُهُ وتهذَّبَ لفظُهُ؛ نَفَعَ وعْظُهُ، ومَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عليه.

والحالةُ العاليةُ في هذا: إقبالُ القلبِ على اللهِ ﷻ، والتوكُّلُ عليه، والنظرُ إليهِ، والتفاتُ القلبِ عن الخلقِ. فإنِ احتجتَ؛ فاسألْه، وإنْ ضَعُفْتَ؛ فارغبْ إليه.

ومتى ساكنتَ الأسبابَ؛ انقَطَعْتَ عنه، ومتى استقامَ باطنُك استقامت لك الأمورُ.

فصل

[من أسباب الأنس بالله]

رأيتُ نفسي تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء، فبحثت بالتجارب عنهم، فإذا أكثرهم حساد على النعم، وأعداء لا يسترون زلة، ولا يعرفون لجليس حقاً، ولا يواسون من مالهم صديقاً.

فينبغي أن يَعُدَّ الخلقَ كلَّهم معارفَ، ليس فيهم صديقٌ يصلُحُ لشدةٍ، ولا تُظهرُ سركَ لمخلوقٍ منهم، بل عاملهم بالظاهر، ولا تخالِطْهم إلّا حالةَ الضَّرورةِ بالتّوقي، ثم أقبلْ على شأنكَ، متوكلاً على خالقك؛ فإنه لا يجلبُ الخيرَ سواه، ولا يصرفُ السوءَ إلّا إيَّاه، فليكنْ جليسَك وأنيسَك وموضعَ توكُّلِك وشكواكَ؛ فإن ضَعُفَ بصرُك؛ فاستغثْ به، وإن قَلَّ يقينُك؛ فسلْه القوةَ، وإيّاكَ أن تميلَ إلى غيرِهِ؛ فإنه غيورٌ، وأن تشكو من أقدارِهِ؛ فربّما غَضِبَ ولم يُعْتِبْ.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

وما أعرفُ العيشَ إلّا لمن يعرِفُه جلَّ شأنُه، ويعيشُ معهُ، ويتأدبُ بين يديه في حركاته وكلماته كأنه يراهُ، ويقفُ على باب طَرْفِهِ حارساً من نظرةٍ لا تصلُحُ، وعلى باب لسانِهِ حافظاً له من كلمةٍ لا تَحْسُنُ، وعلى باب قلبه حمايةً لمسكنِهِ من دُخول الأغيارِ، ويستوحشُ من الخلْقِ شغلاً به. وهذا يكونُ على سيرةِ الرُّوحانيينَ.

فأمّا المخلِّطُ فالكدَرُ غالبٌ عليه والمحقُّ لا يطلُبُ إلّا الأرفعَ.

قال القائل:

ألا لا أحِبُّ السَّيْرَ إلّا مُصاعداً ولا البرْقَ إلّا أنْ يكونَ يمانياً

فصل

[المراد من العلم العمل به]

رأيتُ بعض العلماءِ مشتغلينَ بصورة العلم دونَ فهم حقيقتِهِ ومقصودِهِ.

فالقارئُ مشغولٌ بالروايات، عاكفٌ على الشواذِّ، لا يتلمَّحُ عَظَمَةَ المتكلِّم، ولا زَجْرَ القرآنِ ووعدَه، وربّما ظنَّ أن حفظَ القرآنِ يدفعُ عنه؛ فتراهُ يترخصُ في الذنوبِ، ولو فَهِمَ؛ لعلمَ أنّ الحجةَ عليه أقوى ممن لم يقرأْ.

والمحدِّثُ يجمع الطرقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتأمَّلُ مقصودَ المنقول، ويرى أنه قد حَفِظَ على الناس الأحاديثَ؛ فهو يرجو بذلك السلامةَ، وربّما ترخَّصَ في الخطايا ظنّاً منه أن ما فَعَلَ في الشريعةِ يَدْفَع عنه.

والفقيهُ قد وَقَعَ له أنّه بما قد عَرَفَ من الجدال الذي يقوِّي به خصامَه، أو المسائل التي قد عَرَفَ فيها المذهبَ؛ قد حَصَّلَ بما يُفتي به الناسَ ما يرفعُ قَدْرَهُ ويمحو ذَنْبَهُ؛ فربما هَجَمَ على الخطايا ظنّاً منه أنّ ذلك يَدْفَعُ عنه! وربّما لم يحفظِ القرآنَ ولم يعرِفِ الحديثَ، وأنّهما ينهيانِ عن الفواحش بِزَجْرٍ ورفقٍ، وينضافُ إليه مع الجهل بهما حبُّ الرّياسةِ وإيثارُ الغَلَبَةِ في الجدل، فتزيدُ قسوةُ قلبِهِ!

وعلى هذا أكثرُ الناس؛ صورُ العلم عندَهم صناعةٌ، فهي تُكْسِبُهم الكِبْرَ والحماقةَ.

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلمُ صُوَرَ الألفاظِ، إنّما المقصودُ فهمُ المرادِ منه، وذاك يورِثُ الخشيةَ والخوفَ ويُرِي المِنّةَ للمنعِم بالعلم وقوةَ الحجةِ له على المتعلِّم.

نسألُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُفهِمُنا المقصودَ وتعرِّفُنا المعبودَ.

فصل

[علوّ همّة علماء السلف]

كانت هِمَمُ القدماءِ من العلماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمارهم؛ إلَّا أنّ أكثرَ تصانيفِهِم دثرتْ؛ لأنَّ هِمَمَ الطُّلابِ ضَعُفَتْ، فصاروا يطلُبونَ المختصراتِ، ولا يَنْشِطونَ للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرُسونَ به من بعضِها، فدثرَتِ الكتبُ، ولم تُنْسَخْ.

فسبيلُ طالبِ الكمال في طَلَبِ العلم الاطِّلاعُ على الكتبِ التي قد تخلَّفتْ من المصنَّفاتِ؛ فَلْيُكْثِرْ من المطالعةِ؛ فإنه يرى من علوم القوم وعلوِّ هِمَمِهِم ما يَشْحَذُ خاطِرَهُ ويحرِّكُ عزيمتَه للجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذ بالله من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشرُهم، لا نرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحبَ ورع فيستفيدُ منه الزاهدُ.

فاللهَ اللهَ، وعليكُم بملاحظةِ سِيَرِ السَّلف ومطالعةِ تصانيفِهم، وأخبارِهم؛ فالاستكثارُ من مطالعةِ كُتُبِهِم رؤيةٌ لهم، كما قالَ:

فاتَني أنْ أرى الدِّيارَ بِطَرْفي   فَلَعَلِّي أرى الدِّيارَ بِسَمْعي

وإني أُخْبِرُ عن حالي، ما أشبعُ من مطالعةِ الكُتُب، وإذا رأيتُ كتاباً لم أره؛ فكأني وقعتُ على كنزٍ، ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتبِ الموقوفةِ في المدرسةِ النظاميّةِ، فإذا به يحتوي على نحوِ ستةِ آلاف مجلَّدٍ، وفي ثَبَتِ كتبِ أبي حنيفة وكتبِ الحُميديِّ وكتبِ شيخِنا عبدِ الوهاب ابن ناصر وكتبِ أبي محمدِ ابن الخشّاب وكانت أحمالاً... وغيرِ ذلك من كلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلّدٍ؛ كانَ أكثرَ، وأنا بعدُ في الطلبِ! فاستفدتُ بالنظرِ فيها من ملاحظةِ سِيَرِ القوم وقدْرِ هِمَمِهم وحفظِهِم وعباداتِهم وغرائبِ علومِهِم ما لا يعرِفُه مَن لم يطالِعْ.

ولله الحمد.

فصل

[العجب ممن يخاطر بنفسه ويعرضها للتلف وللهلاك]

ليس للآدميِّ أعزُّ من نفسه، وقد عجبتُ ممن يخاطِرُ بها ويعرّضُها للهلاكِ! والسببُ في ذلك قِلَّةُ العقل وسوءُ النَّظَر!

فمنهم مَن يعرِّضُها للتلفِ لِيُمْدَحَ بزعمِه؛ مثلُ قوم يخرجون إلى قتل السَّبُع، ومنهم من يصعدُ إلى إيوانِ كسرى؛ لِيُقالَ: شاطرٌ! وساع يمشي ثلاثينَ فرسخاً! فإنْ هَلَكَ ذهبتِ النفسُ التي يُرادُ المالُ لأجلِها.

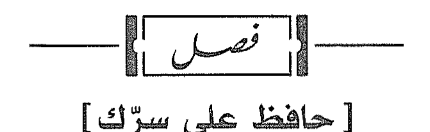
وأعجبُ من الكلِّ من يخاطرُ بنفسه في الهلاكِ ولا يدري؛ مثلُ أن يَغْضَبَ فيقتلَ المسلمَ فيشفيَ غيظَه بالتعذيبِ في جهنَّم.

وأظرفُ من هذا اليهودُ والنّصارى؛ فإنَّ أحدَهم يبلُغُ؛ فيجبُ عليه أن ينظرَ في نبوةِ نبينا ﷺ؛ فإذا فرَّط فماتَ فله الخلودُ في جهنّمَ.

ولقد قلتُ لبعضهم: ويحكَ! تخاطر بنفسك في عذاب الأبدِ! نحن نؤمنُ بنبيِّكُم فنقولُ: لو أنَّ مسلماً آمن بنبيِّنا وكذَّب بنبيِّكُم أو بالتوراةِ؛ خَلَدَ في النارِ؛ إذ نحنُ مؤمنونَ بصدقِهِ وكتابِهِ؛ فلو لَقيناهُ لمْ نَخْجَلْ، وأنتم هالكون؛ لأنّكم تخاطِرون بأرواحِكُم في العذاب الدائم!

وأعجبُ من الكلِّ جاحدُ الخالقِ؛ وهو يرى إحكامَ الصَّنْعَةِ، ويقولُ: لا صانعَ!!

والسببُ في هذه الأشياءِ كلِّها قِلَّةُ العقل وتركُ إعمالِهِ في النظر والاستدلال.



[حافظ على سرّك]

لا ينبغي للعاقل أن يُظْهِرَ سِرّاً حتى يَعْلَمَ أنه إذا ظَهَرَ لا يتأذّى بظهورِه.

ومعلومٌ أن السببَ في بثِّ السرِّ طلبُ الاستراحةِ ببثِّهِ، وذلك ألمٌ قريبٌ؛ فلْيصبرْ عليه.

فربَّ مظهرٍ سرّاً لزوجتِهِ؛ فإذا طُلِّقَتْ بَثَّتْهُ وهَلَكَ، أو لصديقِهِ، فيُظْهِرُ عليهِ حسداً له إذا كان مماثلاً، وإن كان عامياً؛ فالعاميُّ أحمقُ.

ورُبَّ سرٍّ أُظْهِرَ فكانَ سببَ الهلاكِ.

فصل

[لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا]

ما يتناهى في طَلَبِ العلم إلّا عاشقُ العلم. والعاشقُ ينبغي أن يصبرَ على المكارِهِ، ومِن ضرورةِ المتشاغِلِ به البعدُ عن الكسْبِ.

ومُذْ فُقِدَ التفقُّدُ لهم من الأمراء ومن الإخوان؛ لازَمَهُمْ الفقرُ ضرورةً، والفضائلُ تنادي: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١]. فكلما خافتْ من ابتلاءٍ قالتْ:

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْراً أنتَ آكِلُهُ   لنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتّى تَلْعَقَ الصَّبِرا

ولما آثرَ أحمدُ بن حنبل رضي الله عنه طَلَبَ العلم، وكان فقيراً؛ بقي أربعينَ سنةً يتشاغلُ به ولا يتزوجُ.

فينبغي للفقيرِ أن يصابرَ فقرَه كما فعلَ أحمدُ، ومَن يُطيقُ ما أطاقَ؟! فقد ردَّ من المال خمسينَ ألفاً، وكان يتأدَّمُ بالملح؛ فما شاعَ له الذِّكْرُ الجميلُ جِزافاً.

فيا له ثناءً ملأ الآفاقِ، وجَمالاً زيَّنَ الوجودَ، وعِزّاً نَسَخَ كلَّ ذُلٍّ! هذا في العاجل، وثوابُ الآجل لا يوصَف.

وتَلَمَّحْ العلماءِ الذين ترخَّصوا، وتأوَّلوا، وخالَطوا السلاطينَ، فذهبتْ بركةُ العلم، ومُحِيَ الجاهُ، وَوَردوا عندَ الموتِ حياضَ الندم! فيا لها حسراتٍ لا تُتلافى، وخُسْراناً لا يَنْجَبِرُ! وكانت صحبةُ اللَّذاتِ طرفةَ عينٍ، ولازَمَ الأسفُ دائماً.

فالصبرَ الصبرَ أيّها الطالبُ للفضائل، فإنَّ لَذَّةَ الرّاحةِ بالهوى أو بالبطالةِ تذهبُ، ويبقى الأسى.

وقال الشافعيُّ رضي الله تعالى عنه:

يا نَفْسُ ما هو إلّا صَبْرُ أيامٍ ... كأنَّ مُدَّتَها أضْغاثُ أحْلامِ
يا نفْسُ جوزي عنِ الدُّنيا مبادِرةً ... وخَلِّ عنها فإنَّ العيشَ قُدَّامي

ثم أيُّها العالمُ الفقيرُ، أيسرُّكَ ملكُ سلطانٍ من السلاطينِ وأنَّ ما تَعْلَمُهُ من العلم لا تَعْلَمُهُ؟! كلا، ما أظنُّ بالمتيقِّظِ أن يُؤْثِرَ هذا.

ثمَّ أنت إذا وَقَعَ لك خاطرٌ مستحسَنٌ، أو معنىً عجيبٌ، تَجِدُ لَذَّةً لا يجِدُها ملتذٌّ باللذاتِ الحسيَّةِ. فقد حُرِمَ مَن رُزِقَ الشّهواتِ ما قد رُزِقْتَ، وقد شارَكْتَهم في قِوام العيشِ، ولم يَبْقَ إلّا الفضولُ الذي إذا أُخِذَ لم يَكَدْ يضُرُّ. ثم هم على المخاطرةِ في باب الآخرةِ غالباً، وأنت على السلامةِ في الأغلبِ.

فتلمَّحْ يا أخي عواقبَ الأحوال! واقمع الكسلَ المثبِّطَ عن الفضائل، فإنَّ كثيراً من العلماءِ الذين ماتوا مفرِّطين يتقلَّبونَ في حَسَراتٍ وأسفٍ.

فاهربْ وفَّقك الله قبلَ الحبسِ، وافسخْ عَقْدَ الهوى على الغبْنِ الفاحشِ، واعلمْ أنَّ الفضائلَ لا تُنال بالهُوَيْنا، وأنَّ يسيرَ التفريطِ يَشينُ وجهَ المحاسنِ.

فالبدارَ البدارَ؛ ونَفَسُ النَّفْسِ يتردَّدُ، ومَلَكُ الموتِ غائبٌ ما قَدِمَ بعدُ، وانهضْ بعزيمةٍ، وارفض في هذه العزيمةِ الدنيا وأربابَها، فبارِكَ اللهُ لأهل الدُّنيا في دُنياهم؛ فنحنُ الأغنياءُ، وهم الفقراءُ؛ كما قال إبراهيمُ بن أدهمَ: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه؛ لَجالَدونا عليه بالسيوف.

فأبناءُ الدنيا؛ أحدُهم لا يكادُ يأكلُ لقمةً إلّا حراماً أو شُبهة، وهو وإنْ لم يؤثِرْ ذلك؛ فوكيلُه يفعلُه، ولا يبالي هو بقلَّةِ دِينِ وكيلِهِ، وإن عَمَروا داراً؛ سَخَّروا الفَعَلَةَ، وإنْ جَمَعوا مالاً؛ فمن وجوهٍ لا تصلُحُ، ثم كلٌّ منهم خائفٌ أن يُقْتَلَ أو يُعْزَلَ أو يُشْتَمَ؛ فعيشُهم نَغِصٌ!

ونحن نأكلُ ما ظاهِرُ الشرعِ يشهدُ له بالإباحةِ، ولا نخافُ من عدوٍّ، ولا ولايَتُنا تقبلُ العزلَ، والعزُّ في الدُّنيا لنا لا لهم، وإقبالُ الخَلْقِ علينا، وتعظيمُنا عندَهم كثيرٌ، وفي الآخرةِ بيننا وبينهم تفاوتٌ إن شاءَ اللهُ تعالى.

فإنْ لَفَتَ أربابُ الدنيا أعناقَهم؛ يعلمونَ قَدْرَ مزيَّتِنا، وإن غُلَّتْ أيديهم عن إعطائِنا؛ فَلَذَّةُ العفافِ أطيبُ ومرارةُ المِنَنِ لا تفي بالمأخوذِ، وإنَّما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دونَ لباسٍ، وإنّها أيامٌ قلائلُ. . .

والعجبُ لمن شَرُفَتْ نفسُه حتى طَلَبَ العلمَ كيف يَذِلُّ لِبَذْل مَن لا عزَّة ولا مفخرةَ له إلّا بالدنانيرِ؟! ولقد أنشدني أبو يعلى العلويُّ:

رُبَّ قَومٍ في خَلائِقِهِمْ عَرَرٌ قَدْ صُيِّروا غُرَرا
سَتَرَ المالُ القَبيحَ لَهُمْ سَتَرى إنْ زالَ ما سَتَرا

أيقظنا اللهُ من رَقْدَةِ الغافلينَ، ورَزَقَنا فِكْرَ المتيقِّظينَ، ووفَّقنا للعمل بمقتضى العلم والعقل؛ إنّه قريبٌ مجيبٌ.

فصل

[اجمع همّك ووقتك للعمل للآخرة]

الآدميُّ موضوعٌ على مطلوباتٍ تشتِّتُ الهمَّ؛ العينُ تطلُبُ المنظورَ، واللّسان يطلُبُ الكلامَ، والبطنُ يطلُبُ المأكولَ، والفرجُ المنكوحَ، والطبعُ يحبُّ جمعَ المال.

وقد أُمِرْنا بجمع الهمِّ لذِكْرِ الآخرةِ والهوى يشتِّتُه، فكيف إذا اجتمعتْ إليه حاجاتٌ لازمةٌ من طَلَبِ قوتِ البدنِ وقوتِ العيال؟!

وهذا يُبَكِّرُ إلى دكانهِ، ويتفكر في التحصيل، ويستعملُ آلةَ الفهم في نيل ما لا بُدَّ منه؛ فأيُّ هَمٍّ يجتمعُ منه؟! خصوصاً إنْ أخَذَه الشَّرَهُ في صورةٍ؛ فيمضي العُمُر؛ فينهضُ من الدكانِ إلى القبرِ؛ فكيف يحصُلُ العلمُ أو العملُ أو إخلاصُ القصدِ أو طلبُ الفضائل؟!

فمن رُزِقَ يَقَظَةً؛ فينبغي أن يصابرَ لنيل الفضائل:

فإن كان متزهِّداً بغير عائلةٍ؛ اكتفى بسعي قليل، فقد كان السبتيُّ يعملُ يومَ السبتِ فيكتفي به طولَ الأسبوع.

فإنْ كان له مالٌ باضَعَ[١] به من يكفيه بدينهِ وثقتهِ من أن يهتمَّ هو.

وإن كانَ له عائلةٌ؛ جَمَعَ همَّه في نيةِ الكسبِ عليهم فيكونُ متعبِّداً.

أو أن يكونَ له قِنْيَةُ مال كعِقارٍ؛ ناصفَه في نفقتِهِ؛ لِيَكفِيَهُ دخلَه، وليقلِّلَ الهمَّ على مقدارِ ما يُمْكِنُهُ من حذفِ العلائقِ جهدَه؛ ليجمعَ الهمَّ في ذِكْرِ الآخرةِ.

فإن لم يفعلْ؛ أُخِذَ في غفلتِهِ ونَدِمَ في حفرتِهِ.

وأقبحُ الأحوال حالُ عالم فقيهٍ، كلَّما جَمَعَ همَّه لذِكْرِ الآخرةِ شَتَّتَهُ طَلَبُ القوت للعائلة، وربَّما احتاجَ إلى التعرّضِ للظَّلَمَةِ وأخذِ الشُّبُهاتِ وبذْل الوجهِ، فيلزمُ هذا التقديرُ في النَّفَقَةِ، وإذا حَصَلَ له شيءٌ من وجهٍ؛ دَبَّرَ فيه. ولا ينبغي أنْ يحمِلَهُ قِصَرُ الأمل على إخراج ما في يدِهِ، فقد قال ﷺ: «**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[٢]. وأذلُّ من كلِّ ذلٍّ التعرضُ للبخلاءِ والأمراءِ؛ فليدبِّرْ أمرَه، ويقلِّل العلائقَ، يحفظْ جاهَه؛ فالأيامُ قلائلُ.

وقد بُعِثَ إلى أحمدَ بنِ حنبل مالٌ، فسألَهُ ابنُهُ قَبولَه، فقالَ: يا صالحُ! صُنِّي! ثم قالَ: أستخيرُ اللهَ. فأصبحَ فقالَ: يا بنيَّ! قد عُزِمَ لي أن لا أقْبَلَهُ.

هذا؛ وكان العطاءُ هَنِيّاً، وجاءَه من وجوهٍ. فانعكسَ الأمرُ اليومَ.

فصل

[السياسة في معاملة الناس]

العزلةُ عن الخَلْقِ سببُ طِيبِ العَيْش، ولا بدَّ مِن مخالطةٍ بمقدارٍ.

فدارِ العدوَّ واستحِلَّه؛ فربما كادَكَ فأهلَكَكَ.

---

(١) باضع: أي اشترى بضاعة وأعطاها لمن يتاجر له فيها، وهي ما يعرف بشركة المضاربة.

(٢) رواه البخاري (١٢٩٥ و٢٧٤٢ و٣٩٣٦ و٤٤٠٩) وغيرها، ومسلم في الوصية: باب (١) رقم (١٦٢٨/ ٥ و٨).

وأحسنْ إلى مَن أساءَ إليك. واستعنْ على أمورِك بالكتمانِ.

ولْتكنِ الناسُ عندك معارفَ، فأمَّا أصدقاءَ؛ فلا؛ لأنَّ أعزَّ الأشياءِ وجودُ صديقٍ، ذاك أنَّ الصديقَ يجبُ أن يكونَ في مرتبةٍ مماثل، فإنْ صادَفْتَهُ عامّيّاً؛ لم تنتفعْ به؛ لسوءِ أخلاقِهِ وقلةِ علمِهِ وأدبِهِ، وإن صادفتَ مماثلاً أو مقارباً؛ حَسَدَكَ، وإذا كانَ لكَ يَقَظَةٌ؛ تلمَّحْتَ من أفعالِهِ وأقواله ما يدُلُّ على حسدِك، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فإن أردتَ العيشَ؛ فابعدْ عن الحسودِ؛ لأنه يرى نعمتَكَ؛ فربّما أصابَها بالعينِ!

فإن اضطُرِرْتَ إلى مخالطتِهِ فلا تُفْشِ له سِرَّك ولا تشاوِرْه، ولا يغُرَّنَّكَ تملُّقُه لك ولا ما يُظْهِرُه من الدِّينِ والتعبُّد؛ فإنَّ الحسدَ يغلِبُ الدِّينَ! وقد عرفتَ أنَّ قابيلَ أخرجَه الحسدُ إلى القتل! وأنَّ إخوةَ يوسُفَ باعوه بثمنٍ بَخْس! وكان أبو عامرٍ الراهبُ من المتعبِّدين العقلاءِ، وعبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ من الرؤساءِ؛ أخرجَهُما حسدُ رسول الله ﷺ إلى النفاقِ وتَرْكِ الصوابِ.

ولا ينبغي أن تَطْلُبَ لحاسِدِك عقوبةً أكثرَ مما هو فيه، فإنّه في أمرٍ عظيم متَّصل؛ لا يرضيهِ إلّا زوالُ نعمتِكَ، وكلَّما امتدَّت؛ امتدَّ عذابُه؛ فلا عيشَ له!

وما طابَ عيشُ أهل الجنة إلّا حين نُزِعَ الحسدُ والغلُّ من صدورِهم؛ ولولا أنه نُزِعَ؛ تحاسَدوا وتنغَّصَ عيشُهم.



[من نهى النفس عن الهوى حصّل النعيم]

مَن سارَ مع العقل، وخالفَ طريقَ الهوى، ونَظَرَ إلى العواقِب؛ أمْكَنَهُ أن يتمتَّعَ مِن الدُّنيا والذِّكْرِ الجميل ويكون ذلك سبباً لفواتِ مُرادِهِ من اللّذّاتِ، وبيانُ هذا من وجهينِ:

أحدُهما: أنّ مَن مال إلى شَهَواتِ النّكاح وأكثَرَ منها؛ قَلَّ التذاذُه،

وفَنِيَتْ حرارتُهُ، وكان ذلك سبباً في عدم مطلوبِهِ منها! ومنِ استعملَ ذلك بمقدارِ ما يُجيزُهُ العقلُ ويحتمِلُه؛ كان التذاذُه أكثرَ لِبُعدِ ما بينَ الجِماعَيْنِ، وأمكَنَهُ التردُّدُ لبقاءِ الحرارةِ.

وكذلك مَن غشَّ في معاملتِهِ أو خانَ؛ فإنَّه لا يُعامَلُ؛ فيفوتُه ربحُ المعاملةِ الدائمةِ لخيانتِهِ مَرَّةً، ولو عُرِفَ بالثِّقَةِ دامتْ معاملةُ الناس لهُ، فزادَ ربْحُهُ.

والثاني: أنّه مَنِ اتَّقى اللهَ وتشاغَلَ بالعلم أو تحقيقِ الزُّهْدِ؛ فُتِحَ له من المباحاتِ ما يلتذُّ به كثيراً، ومَن تقاعَدَ به الكسلُ عن العلم أو الهوى عن تحقيقِ الزُّهْدِ؛ لم يحصُلْ له إلّا اليسيرُ من مرادِهِ.

قال ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

فصل

[الطريق إلى جنّة الدنيا]

ينبغي أن يكونَ العملُ كلُّه للهِ ومعهُ ومن أجلِهِ؛ وقد كفاكَ كلَّ مخلوقٍ، وجَلَبَ لك كلَّ خيرٍ.

وإياكَ أن تميلَ عنه بموافقةِ هوىً وإرضاءِ مخلوقٍ؛ فإنه يُعْكَسُ عليك الحالُ، ويفوتُكَ المقصودُ، وفي الحديثِ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رضي الله عنه، وأرضى النَّاسَ عَنْهُ؛ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[1].

وأطيبُ العيشِ عيشُ مَن يعيشُ مع الخالقِ سبحانَه.

---

(١) (**حسن**) رواه ابن حبان (٢٧٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٩٨ و٤٩٩ و٥٠٠)، والبيهقي في «الزهد» (٨٨٧)، وأبو داود في كتاب «الزهد»، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق»، وحسنه الألباني في تخريج «الطحاوية» (ص٢٦٨)، نشر المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة.

فإنْ قيلَ: كيفَ يعيشُ معهُ؟

قلتُ: بامتثال أمرِهِ، واجتنابِ نهيِهِ، ومراعاةِ حدودِهِ، والرِّضا بقضائِهِ، وحسنِ الأدبِ في الخَلْوةِ، وكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، وسلامةِ القلب من الاعتراض في أقداره؛ فإن احتجتَ؛ سألتَهُ، فإنْ أعطى وإلّا رضيتَ بالمَنْع، وعلمتَ أنّه لم يَمْنَعْ بُخلاً، وإنما نظراً لك، ولا تنقطعْ عن السؤال لأنَّكَ تتعبَّدُ به، ومتى دُمْتَ على ذلك؛ رَزَقَكَ محبَّتَهُ وصدقَ التوكُّل عليه، فصارتِ المحبةُ تدلُّك على المقصودِ، وأثمرتْ لك محبَّتَهُ إياك؛ فحينئذٍ تعيشُ عَيْشَ الصديقينَ... ولا خيرَ في عيش إنْ لم يكنْ كذا.

فإنَّ أكثرَ الناس مُخبَّطٌ في عيشِهِ، يداري الأسبابَ، ويميلُ إليها بقلبِهِ، ويتعبُ في تحصيل الرزقِ بِحرص زائدٍ على الحدِّ وبرغبةٍ إلى الخَلْق، ويعترِضُ عند انكسارِ الأغراض؛ والقَدَرُ يجري ولا يُبالي بِسَخَطِ، ولا يحصُلُ له إلَّا ما قُدِّرَ، وقد فاتَه القُرْبُ من الحقِّ والمحبةُ له، والتأدّبُ معه... فذلك العَيْشُ عَيْشُ البهائم.

فصل

[العاقل من تأمل العواقب ورعاها]

من الغلطِ العظيم أن يُتَكَلَّمَ في حقِّ معزول بما لا يصلُحُ، فإنّه لا يُؤْمَنُ أن يَلِيَ فينتقمَ.

وفي الجملةِ؛ لا ينبغي أن يُظْهِرَ العداوةَ لأحدٍ أصلاً، فقد يَرْتَفِعُ المُحْتَقَرُ، وقد يتمكَّنُ من لا يُعَدُّ.

بل ينبغي أن يُكْتَمَ ما في النّفوس من ضَغَنٍ على الأعداءِ؛ فإن أمكنَ الانتقامُ منهم؛ كان العفوُ انتقاماً؛ لأنه يُذِلُّهم.

وينبغي أن يُحْسَنَ إلى كلِّ أحدٍ، خصوصاً مَن يجوزُ أن يكونَ له ولايةٌ، وأن يُخْدَمَ المعزولُ؛ فربما نَفَعَ في ولايتِهِ.

فالعاقلُ من تأمَّلَ العواقبَ ورعاها، وصَوَّرَ كلَّ ما يجوز أن يَقَعَ فَعَمِلَ بمقتضى الحزم.

وأبلغُ من هذا تصويرُ وجودِ الموتِ عاجلاً؛ لأنه يجوزُ أن يأتيَ بغتةً من غيرِ مرض؛ فالحازمُ مَن استعدَّ له، وعَمِلَ عَمَلَ مَن لا يندمُ إذا جاءَه، وحَذِرَ من الذنوبِ فإنّها كعدوٍّ مراصِدٍ بالجزاءِ، وادَّخَرَ لنفسهِ صالحَ الأعمال؛ فإنّها كصديقٍ صِدِّيقٍ ينفعُ وقتَ الشّدَّةِ.

وأبلغُ من كلِّ شيءٍ أن يعلَمَ المؤمنُ أنّه كلّما زاد عملُه في الفضائل؛ علتْ مرتبتُه في الجنةِ، وإنْ نَقَصَ نَقَصَتْ؛ فهو وإن دَخَلَ الجنة في نَقْص بالإضافةِ إلى كمال غيرِه؛ غير أنّه قد رَضيَ به ولا يشعُرُ بذلك.

فرحم اللهُ من تلمَّحَ العواقبَ، وعَمِلَ بمقتضى التلمُّح، والله تعالى المُوفِّقُ.

فصل

[الهلاك في عدم الصبر عن المشتهى]

لما جمعتُ كتابي المسمَّى بـ «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، اطَّلعتُ على سِيَرِ الخلقِ من الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والأدباءِ والفقهاءِ والمُحدِّثين والزُّهادِ وغيرهم، فرأيتُ الدّنيا قد تلاعبتْ بالأكثرينَ تلاعُباً أذهبَ أديانَهم، حتى كانوا لا يؤمنونَ بالعقاب.

فمِن الأمراءِ مَن يَقْتُلُ ويُصادِرُ ويَقْطَعُ ويَحْبِسُ بغير حقٍّ، ثم ينخرطُ في سِلْكِ المعاصي، كأنَّ الأمرَ إليه، أو قد جاءَهُ الأمنُ من العقابِ، وينسى أنه قد قيل لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [الأنعام: ١٥].

وقدِ انخرطَ جماعةٌ ممَّن يَتَّسِمُ بالعلم في سلكِ المعاصي، لتحصيل أغراضِهِم العاجلةِ، فما نَفَعَهُمُ العلمُ.

ورأينا خلقاً من المتزهِّدين خالَفوا لنيل أغراضِهم.

وهذا لأنَّ الدّنيا فَخٌّ، والناسُ كعصافيرَ، والعصفورُ يريدُ الحبَّةَ وينسى الخَنْقَ.

قد نسي أكثرُ الخَلْقِ مآلَهم مَيْلاً إلى عاجل لذّاتِهم، فأقبلوا يسامِرون الهوى، ولا يلتفِتون إلى مشاورةِ العقل... فلقد باعوا بلذةٍ يسيرةٍ خيراً كثيراً، واستحقُّوا بشهواتٍ مرذولةٍ عذاباً عظيماً... فإذا نَزَلَ بأحدِهم الموتُ، قال: ليتني لم أكنْ! ليتني كنت تراباً! فيُقالُ له: آلآن؟!

فوا أسفا لفائتٍ لا يمكنُ استدراكُه، ولمُرْتَهن لا يَصِحُّ فكاكُه، ولندم لا ينقطِعُ زمانُه، ولمُعَذَّبٍ عزَّ عليه إيمانُه بالله!

بالله، ما نفعتِ العقولُ إلّا لمن يلتفتُ إليها ويعوِّلُ عليها، ولا يمكِنُ قَبول مشاورِها إلّا بعزيمةِ الصبرِ عمَّا يشتهي.

فتأملْ في الأمراءِ عمرَ بنَ الخطابِ وابنَ عبدِ العزيز رضي الله عنهما، وفي العلماءِ أحمدَ بنَ حنبل رحمةُ الله عليه، وفي الزُّهاد أوَيْساً القَرَنيَّ؛ لقد أعْطَوُا الجِدَّ حقَّه وفهموا مقصودَ الوجودِ.

وما هَلَكَ الهالكونَ إلّا لقلَّةِ الصبرِ عن المُشْتَهى، وربّما كان فيهِم مَن لا يؤمنُ بالبعثِ والعقابِ.

وليس العجبُ من ذاك، إنّما العجبُ من مؤمنٍ يوقنُ، ولا ينفعهُ يقينُه، ويعقِلُ العواقبَ ولا ينفعُهُ عقلُهُ!

فصل

[الحُجَّة قائمة على الحمقى عُمْي البصائر]

المصيبةُ العظمى رضا الإنسانِ عن نفسِهِ واقتناعُه بعلمِهِ! وهذه محنةٌ قد عمَّتْ أكثرَ الخَلْق:

فترى اليهوديَّ أو النصرانيَّ يرى أنه على الصوابِ، ولا يبحثُ ولا ينظرُ

في دليل نبوَّةِ نبيِّنا ﷺ، وإذا سَمِعَ ما يُلينُ قلبَه مثلَ القرآنِ المعجِزِ؛ هَرَبَ لئلَّا يسمعَ!

وكذلك كلُّ ذي هوًى يَثْبُتُ عليه: إمّا لأنّه مذهبُ أبيهِ وأهلِهِ، أو لأنّه نَظَرَ نظراً أولَ فرآه صواباً، ولم ينظرْ فيما يناقِضُه، ولم يباحِثِ العلماءَ ليبيِّنوا له خطأهُ.

ومِن هذا حالُ الخوارج على أمير المؤمنينَ عليٍّ رضي الله تعالى عنه، فإنهم استحسنوا ما وَقَعَ لهم، ولم يرجِعوا إلى مَن يعلم، ولما لَقِيَهُم عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، فَبَيَّنَ لهم خطأهُم؛ رَجَعَ عن مذهبِهِ منهم أربعة آلاف[1].

وممَّن لم يَرْجِعْ عن هواه ابنُ ملجم، فرأى مذهبَه هو الحقَّ، فاستحلَّ قَتْلَ أمير المؤمنينَ رضي الله تعالى عنه، ورآه دِيناً! ومثلُ هذا ما له دواءٌ.

وكذلك كان الحجاجُ يقولُ: والله ما أرجو الخيرَ إلّا بعد الموت! هذا قوله! وكم قَتَلَ مَن لا يحلُّ قتلُه، منهم سعيدُ بن جُبيرٍ.

وقيل: وجد في سجن الحجَّاج ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً، ما يجبُ على واحدٍ منهم قطعٌ ولا قتلٌ ولا صلبٌ.

قلتُ: وعمومُ السلاطينِ يقتُلون ويقطعون ظنّاً منهم جوازَ ذلك! ولو سألوا العلماءَ؛ بيَّنوا لهم.

وعموم العوامِّ يبارزونَ بالذُّنوب اعتماداً على العفوِ، وينسَوْن العقابَ! ومنهم من يعتمدُ أني من أهل السنَّة، أو أنَّ لي حسناتٍ قد تنفعُ، وكلُّ هذا لقوةِ الجهل.

فينبغي للإنسانِ أن يبالغَ في معرفة الدليل ولا يساكنَ شبهتَه، ولا يثقَ بعلم نفسِهِ.

فنسألُ اللهَ السلامةَ من جميع الآفاتِ.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٠٧٧)، والحاكم (٢٦٥٦) وصححه، وأبو يعلى (٤٧٢)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥٣): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.

فصل

[للمعاصي عقوبات عاجلة]

اعلمْ أنَّ الجزاءَ بالمرصادِ: إنْ كانتْ حسنةً، أو كانتْ سيئةً.

ومن الاغترارِ أن يَظُنَّ المذنبُ إذا لم يَرَ عقوبةً أنّه قد سُومِحَ، وربّما جاءتِ العقوبةُ بعد مدةٍ، وقلَّ مَن فَعَلَ ذنباً إلّا وقُوبل عليهِ، قال ﷻ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

هذا آدمُ عليه السلام أكلَ لُقْمةً، فقد عرفتُم ما جرى عليه.

وأما سليمانُ عليه السلام؛ فإنّ قوماً اختصموا إليه، فكان هواهُ مع أحدِ الخصمينِ، فعُوقِبَ.

وأمّا يوسفُ عليه السلام؛ فأُخِذَ بالهمِّ.

وأمّا يونسُ عليه السلام؛ فَخَرَجَ عن قومِهِ بغيرِ إذنٍ، فالتقمَهُ الحوتُ.

قال وهب بن منبه: أوحى الله ﷻ إلى أرميا: إنّ قومَك تركوا الأمر الذي أكرمتُ به آباءَهم، وعزَّتي لأهيجنَّ عليهم جنوداً لا يرحمون بكاءَهم. فقال: يا ربِّ! هم ولدُ خليلِكَ إبراهيمَ، وأمةُ صفيِّكَ موسى، وقومُ نبيِّك داودَ. فأوحى الله تعالى إليه: إنّما أكرمتُ إبراهيمَ وموسى وداودَ بطاعتي، ولو عَصَوْني؛ لأنزلتُهم منازلَ العاصينَ.

ونَظَرَ بعضُ العُبَّادِ شخصاً مُستحسناً، فقالَ له شيخُه: ما هذا النَّظَرُ؟ ستجدُ غِبَّه. فنسي القرآنَ.

وقالَ آخرُ: قد عِبْتُ شخصاً قد ذَهَبَ بعضُ أسنانِهِ، فانتثرتْ أسناني، ونظرتُ إلى امرأةٍ لا تَحِلُّ، فَنَظَرَ إلى زوجتي من لا أريدُ!

وكان بعضُ العاقِّين ضَرَبَ أباه وسَحَبَهُ إلى مكانٍ، فقالَ له الأبُ: حسبُك إلى هاهنا سحبتُ أبي!!

وقال ابنُ سيرينَ: عَيَّرتُ رجلاً بالإفلاسِ، فأفلستُ.

ومثلُ هذا كثيرٌ.

وأنا أقولُ عن نفسي: ما نزلتْ بي آفةٌ أو غمٌّ أو ضيقُ صدرٍ إلَّا بزلل أعرفُه، حتى يمكِنُني أن أقولَ: هذا بالشيء الفلانيِّ. وربّما تأوَّلتُ فيه بعدُ، فأرى العقوبةَ.

فينبغي للإنسانِ أن يترقَّبَ جزاءَ الذنوبِ؛ فقلَّ أن يَسْلَمَ منه.

وليجتهدْ في التوبة، فقد رُوي في الأثر: «ما من شيءٍ أسرعُ لحاقاً بشيءٍ من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديم»، ومع التوبةِ يكونُ خائفاً من المؤاخذةِ متوقِّعاً لها؛ فإن الله تعالى قد تابَ على الأنبياء ﷺ، وفي حديثِ الشفاعةِ يقولُ آدمُ: «ذَنْبي»، ويقولُ إبراهيمُ وموسى: «ذَنْبي».

فإنْ قال قائلٌ: قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]: خبرٌ، فهو يقتضي أن لا يجاوِزَ عن مذنبٍ، وقد عَرَفنا قَبولَ التوبةِ والصَّفْحَ عن الخاطئين؟

فالجوابُ من وجهينِ:

أحدُهما: أنْ يُحْمَلَ على من ماتَ مصرّاً ولم يَتُبْ؛ فإنّ التوبة تَجُبُّ ما قبلها.

والثاني: أنّه على إطلاقِهِ، وهو الذي أختارُه أنا وأستدلُّ بالنقل والمعنى:

أما النقلُ: فإنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ قالَ أبو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فَكُلَّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ جُزِينَا بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأْوَاءُ؟**». قَالَ: بَلَى. قَالَ: «**فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ**»[1].

---

(١) (صحيح) رواه أحمد (١/ ١١)، وابن حبان (٢٨٥٣ و٢٨٨٩)، والبيهقي في «السنن =

وأما المعنى: فإنَّ المؤمنَ إذا تابَ ونَدِمَ؛ كان أسفُه على ذنبِهِ في كلِّ وقتٍ أقوى مِن كلِّ عقوبةٍ.

فالويلُ لمن عَرَفَ مرارةَ الجزاءِ الدائم ثم آثَرَ لَذَّةَ المعصيةِ لحظةً.

فصل

[الشبه بين يوم العيد ويوم القيامة]

رأيتُ الناسَ يومَ العيدِ فشبهتُ الحالَ بالقيامةِ. فإنّهم لما انتبهوا من نومِهِم؛ خرجوا إلى عيدِهم كخروج الموتى من قبورهم إلى حشرِهم.

فمنهم مَن زينتُهُ الغايةُ ومركبُهُ النهايةُ، ومنهم المتوسطُ، ومنهم المرذولُ. وعلى هذا أحوالُ الناس يومَ القيامة: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: ركباناً ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦] أي: عطاشاً. وقال عليه الصلاة السلام: «**إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالاً وَرُكْبَاناً وَتُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ**»(١).

ومن الناس مَن يُداسُ في زحمةِ العيدِ، وكذلك الظَّلَمَةُ يطأُهُمُ الناسُ بأقدامِهِم في القيامة.

ومن الناس يومَ العيدِ الغنيُّ المتصدقُ. كذلك يومَ القيامةِ أهلُ المعروفِ في الدّنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ.

ومنهُم الفقيرُ السائلُ الذي يطلُبُ أن يُعطى. كذلك يومَ الجزاءِ: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»(٢).

= الكبرى» (٦٥٦٨)، والحاكم (٤٤٥٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وأبو يعلى (٩٦ ـ ٩٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٠٥)، وقد صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٣٠).

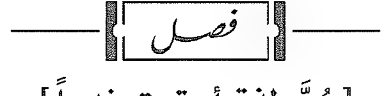
(١) (صحيح) رواه الترمذي (٢٤٢٤ و٣١٤١)، وأحمد (٥/ ٣ و٥)، والحاكم (٨٦٨٦) وصححه.

(٢) (صحيح) رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأحمد (٣/ ٢١٣)، وابن حبان (٦٣٥٤).

ومنهم مَن لا يُعطفُ عليه، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

ثم يرجعونَ من العيدِ بالخواصِّ إلى بابِ الحجرةِ يخبرونَ بامتثال الأوامرِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١١]، فيخرُجُ التوقيعُ إليهم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]. ومَن هو دونَهم يختلفُ حالُه: فمنهُم مَن يرجِعُ إلى بيتٍ عامرٍ، ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢٤]، ومنهم متوسطٌ، ومنهم من يعودُ إلى بيتٍ قَفْرٍ.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].



[رُبَّ لذة أعقبت ندماً]

إنما فَضُلَ العقلُ بتأمُّلِ العواقبِ، فأمّا القليلُ العقل فإنّه يرى الحالَ الحاضرةَ، ولا ينظُرُ إلى عاقبتِها.

فإنَّ اللِّصَّ يرى أخذَ المال وينسى قطعَ اليدِ.

والبطالَ يرى لذَّةَ الراحةِ، وينسى ما تجني من فواتِ العلم وكَسْبِ المال، فإذا كَبِرَ فسُئِلَ عن علم؛ لمْ يدْرِ، وإذا احتاجَ؛ سَأَلَ، فذَلَّ؛ فقد أربى ما حَصَلَ له من التَّأسُّفِ على لَذَّةِ البطالةِ، ثم يفوتُه ثوابُ الآخرةِ بتركِ العمل في الدُّنيا.

وكذلك شاربُ الخمرِ؛ يلتذُّ تلكَ الساعةَ وينسى ما يجني من الآفاتِ في الدنيا والآخرةِ!

وكذلك الزِّنا؛ فإنَّ الإنسانَ يرى قضاءَ الشهوةِ، وينسى ما يجني منه من فضيحةِ الدنيا والحَدِّ، وربما كان للمرأة زوجٌ فألحقتِ الحملَ من هذا به وتسلسلَ الأمرُ...

فقِسْ على هذه النَّبْذةِ، وانتبهْ للعواقبِ، ولا تؤثِرْ لَذَّةً تُفَوِّتُ خيراً كثيراً، وصابِرِ المشقةَ؛ تُحَصِّلْ ربحاً وافراً.

فصل

[اللذات مشوبة بالمنغصات]

من تأمَّلَ الدنيا عَلِمَ أنه ليس فيها لَذَّةٌ أصلاً؛ فإن وُجِدَتْ لَذَّةٌ؛ شِيبَتْ بالنُّغَصِ التي تزيدُ على اللَّذَّة أضعافاً.

فينبغي لمنْ وَفَّقَهُ اللهُ سبحانه: أن يأخذَ الضروريَّ الذي يميلُ إلى سلامةِ الدينِ والبدنِ والعافيةِ، ويهجُرَ الهوى الذي نُغَصُهُ تتضاعفُ على لَذَّتِهِ.

ومَن صَبَرَ على ما يكرهُ قَصْدَ النفع في العاقبة؛ الْتَذَّ أضعافاً؛ كطالبِ العلم؛ فإنه يتعبُ يسيراً، وينالُ خيرَ الدارينِ، مع سلامةِ العاقبةِ.

ولَذَّةُ البطالةِ تعقبُ عدمَ العلم والعمل، فيزيدُ الأسى على اللَّذَّةِ أضعافاً.

فاللهَ اللهَ أن يغلِبَكَ هواك العاجلُ، ومتى همَّ الهوى بالتوثُّبِ؛ فامْنَعْهُ؛ وزِنْ عاجِلَه بآجِلِهِ.

وما يتذكَّرُ إلّا أولو الألبابِ.

فصل

[عليكم بالكتاب والسنّة ترشدوا]

رأيتُ إبليسَ قد احتال بفنونِ الحيل على الخلق، وأمال أكثرَهُم عن العلم الذي هو مصباحُ السالكِ، فتركَهم يتخبَّطونَ في ظُلُماتِ الجهل، وشَغَلهم بأمورِ الحسِّ؛ فهم يحسِّنون ما يحسِّنُه الحسُّ، ولا يلتفتونَ إلى مشورةِ العقل.

فإذا ضاق بأحدِهِم عيشُه، أو نُكِبَ؛ اعترضَ فَكَفَرَ:

فمنهم مَن ينسبُ ذلك إلى الدهر، ومنهم من يَسُبُّ الدّنيا! وهذا إسفافٌ؛ لأنَّ الدهرَ والدنيا لا يفعلانِ، وإنما هو عيبٌ للمقدِّرِ!

ومنهم من يخرِجُه الأمرُ إلى جحدِ الحكمة.

ثم نظر إبليسُ، فرأى في المسلمينَ قوماً فيهم فِطنةٌ فأراهم أنَّ الوقوفَ على ظواهرِ الشريعةِ حالةٌ يشارِكُهم فيها العوامُّ، فحسَّنَ لهم علومَ الكلام، وصاروا يحتجُّونَ بقول بُقراطَ وجالينوسَ وفيثاغورسَ!!

وهؤلاء ليسوا بمتشرِّعين، ولا تَبِعوا نبيَّنا ﷺ، وإنّما قالوا بمقتضى ما سوَّلتْ لهم أنفسُهم.

وقد كان السلف إذا نشأ لأحدِهم ولدٌ؛ شَغَلوهُ بحفظِ القرآنِ وسماع الحديثِ، فيثبُتُ الإيمانُ في قلبِهِ؛ فقد توانى الناسُ عن هذا، فصارَ الولدُ الفَطِنُ يتشاغَلُ بعلوم الأوائل، وينبُذُ أحاديثَ الرسول ﷺ، ويقولُ: أخبارُ آحادٍ! وأصحابُ الحديثِ عندهم يُسَمَّوْنَ: حَشْوِيَّةً!!

ويعتقدُ هؤلاءِ أنَّ العلمَ الدقيقَ علم الطفرةِ والهيولى والجزءِ الذي لا يتجزَّأ . . . ثم يتصاعدونَ إلى الكلام في صفاتِ الخالقِ، فيدفعونَ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ بواقعاتِهم.

فيقولُ المعتزلة: إن الله لا يُرى؛ لأنَّ المرئيَّ يكونُ في جهةٍ! ويخالفونَ قولَ رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»(١). فأوجبَ هذا الحديثُ إثبات رؤيتهِ وإن عَجَزْنا عن فهم كيفيَّتِها.

وقد عُزِلَ هؤلاء الأغبياءُ عن التشاغل بالقرآنِ، وقالوا: مخلوقٌ! فزالتْ حُرْمَتُهُ من القلوبِ. وعن السُّنَّةِ، وقالوا: أخبارُ آحاد! وإنما مذاهِبُهم السَّرِقَةُ من بقراطَ وجالينوسَ.

وقد كان كبارُ العلماءِ يذمُّونَ علمَ الكلام، حتى قال الشافعيُّ: حكمي فيهم أن يُرْكَبوا على البغال، ويُشَهَّروا، ويُقالَ: هذا جزاءُ من تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّةَ واشتغلَ بالكلام.

فاللهَ اللهَ من مخالطةِ المبتدعةِ، وعليكم بالكتابِ والسُّنَّةِ ترشُدوا.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤ و٥٧٣)، ومسلم رقم (٦٣٣/ ٢١١) في المساجد باب (٣٧).

فصل

[قيمة الوقت وفضل اغتنامه]

رأيتُ العاداتِ قد غلبتِ الناسَ في تضييع الزَّمانِ، وكان القدماءُ يحذرونَ من ذلك:

قال الفضيلُ: أعرِفُ من يَعُدُّ كلامَه من الجُمعة إلى الجمعةِ.

ودخلوا على رجل من السَّلَفِ، فقالوا: لعلَّنا شَغَلْناك؟ فقالَ: أصدُقُكم، كنتُ أقرأ، فتركتُ القراءةَ لأجلِكُم.

وجاء رجلٌ من المتعبّدينَ إلى سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، فرأى عندَه جماعةً، فقال: صِرْتَ مُناخَ البطَّالينَ؟ ثم مضى ولم يجلِسْ.

ومتى لان المَزُورُ؛ طَمِعَ فيه الزائرُ، فأطالَ الجلوسَ، فلم يسلمْ من أذىً.

وقد كان جماعةٌ قعوداً عند معروفٍ، فأطالوا، فقالَ: إنَّ مَلَكَ الشمس لا يَفْتَرُ في سَوْقِها، أفما تريدونَ القيامَ؟!

وكان عثمانُ الباقلانيّ دائمَ الذِّكْرِ لله تعالى، فقال: إني وقتَ الإفطارِ أحِسُّ بروحي كأنها تخرُجُ؛ لأجل اشتغالي بالأكل عن الذِّكْر.

وأوصى بعضُ السلف أصحابَه، فقالَ: إذا خرجتُم من عندي فتفرَّقوا، لعلَّ أحدَكم يقرأ القرآنَ في طريقِهِ، ومتى اجتمعتُم تحدَّثْتُم.

واعلم أنَّ الزمانَ أشرفُ من أن يُضيَّعَ منه لحظةٌ، فإن في «الحديث» عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: **«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»**[1]، فكم يُضَيِّعُ الآدميُّ من ساعاتٍ يفوتُه فيها الثوابُ الجزيل!

---

(١) (صحيح) رواه الترمذي (٣٤٦٤ و٣٤٦٥)، وابن حبان (٨٠٣)، والنسائي في «الْكُبْرَى» (١٠٥٦١)، والحاكم (١٨٤٧)، وهو في «الصحيحة» (٦٤).

وهذه الأيامُ مثلُ المزرعةِ؛ فكأنه قيل للإنسانِ: كلَّما بَذَرْتَ حبَّةً؛ أخرجْنا لكَ ألفَ كُرٍّ[١]، فهل يجوزُ للعاقلِ أن يتوقفَ عن البَذْرِ ويتوانى؟!

والذي يعينُ على اغتنام الزمانِ: الانفرادُ والعزلةُ مهما أمكنَ، والاختصار على السّلام أو حاجةٍ مهمةٍ لمن يَلْقى، وقلةُ الأكل، فإنَّ كثرَتَهُ سببُ النوم الطويل وضياع الليل.

ومَن نَظَرَ في سِيَرِ السلفِ وآمنَ بالجزاءِ بان له ما ذكرتُهُ.



[السلامة في الرضا بقضاء الله والتسليم بحكمته]

قد تكرَّر معناه في هذا الكتابِ؛ إلَّا أنَّ إعادتَه على النفوسِ مهمَّةٌ لئلَّا يُغْفَلَ عن مثلِهِ.

ينبغي للمؤمنِ أن يعلمَ أنَّ اللهَ سبحانه مالكٌ حكيمٌ لا يعبثُ، وهذا العلمُ يوجبُ نفي الاعتراضِ على القَدَرِ.

وقد لَهَجَ خَلْقٌ بالاعتراضِ قَدْحاً في الحِكمةِ، وذلك كفرٌ.

وأوَّلُهم إبليسُ في قولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. ومعنى قولِهِ: إنَّ تفضيلَكَ الطينَ على النارِ ليس بحكمةٍ!!

وقد رأيتُ مَن كان فقيهاً دَأْبُه الاعتراضُ!

وهذا لأنَّ المعترضَ ينظرُ إلى صورةِ الفعل، ولو أن صورةَ الفعل صدرتْ من مخلوقٍ مثلِنا؛ حَسُنَ أن يُعْتَرَضَ عليه، فأمّا من نَقَصَتِ الأفهامُ عن مطالعةِ حكمتِهِ، فاعتراضُ الناقصِ الجاهل عليه جنونٌ.

فأما اعتراضُ الخلعاءِ فدائمٌ؛ لأنَّهم يريدونَ جَرَيانَ الأمورِ على

---

(١) الكُر: مِكْيالٌ لِلعراقِ، وهو سِتُّونَ قَفِيزاً، أو أربعون إرْدَبّاً. ويساوي: ستة أوقار حمار.

أغراضِهِم، فمتى انكسر لأحدِهِم غرَضٌ؛ اعترضَ! وهذا كثيرٌ! ويُكْرَهُ أنْ يُحكى كلامُ الخلعاءِ في جنونِهم واعتراضاتِهِم الباردةِ.

ولو فهموا أن الدنيا ميدانُ مسابقةٍ ومارَستانُ[1] صَبْرٍ ليبينَ بذلك أثَرُ الخالقِ؛ لَمَا اعترضوا، والذي طلبوه من السلامةِ وبلوغ الأغراض أمامهم لو فَهِمُوا.

وبعد هذا؛ فقلْ للمعترضِ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

قل له: إنِ اعترضَ؛ لم يمنعْ ذلك جريانَ القَدَرِ، وإنْ سَلَّمَ؛ جرى القدرُ، فلأنْ يجريَ وهو مأجورٌ خيرٌ من أن يجريَ وهو مأزورٌ.

فصل

[من انهمك في التشاغل بالدنيا ندم على الفوات]

من تلمَّح أحوالَ الدنيا؛ عَلِمَ أنَّ مرادَ الحقِّ سبحانه اجتنابُها.

فَمن مال إلى مباحِها لِيلتذَّ؛ وجَدَ مع كل فرحةٍ ترحةٌ، وإلى جانب كلِّ راحةٍ تَعَباً، وآخرَ كلِّ لذةٍ نَغَصاً يزيدُ عليها، وما رُفِعَ شيءٌ من الدنيا إلَّا ووُضِعَ.

فيعلمُ العاقلُ أنَّ مرادَ الحقِّ بهذا التكديرِ التنفيرُ عن الدّنيا، فيبقى أخذُ البُلْغَةِ منها ضرورةً وتركُ الشواغل، فيجتمعُ الهمُّ في عبادةِ الحقِّ، ومَن عَدَلَ عن ذلك نَدِمَ على الفواتِ.

* * *

(١) المارَسْتانُ، بفتح الراءِ: دارُ المَرْضَى، مُعَرَّبٌ.

خاتمة

بحمدِ الله تعالى قد نَجَزَ ما توخَّاه الفكرُ الفاترُ من تقييدِ ما جمعهُ القلمُ من صيدِ الخاطرِ، مقتصراً فيه على ما به التَّخلِّي من الأمراض النفسيَّةِ والتحلِّي بالآدابِ الشرعيةِ والأخلاقِ المرْضيَّةِ.

جعلهُ الله تعالى خيرَ هاد على منبرِ الوعظِ والإرشاد، وأنفعَ كتابٍ تجلَّى في مرايا الظهورِ لهدايةِ العباد.

والحمدُ للهِ أولاً وآخراً، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

جدول المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

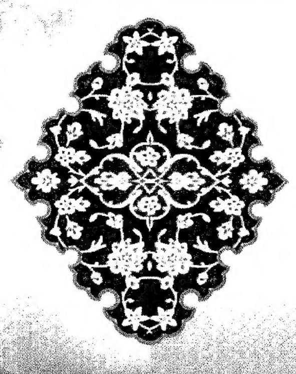
الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

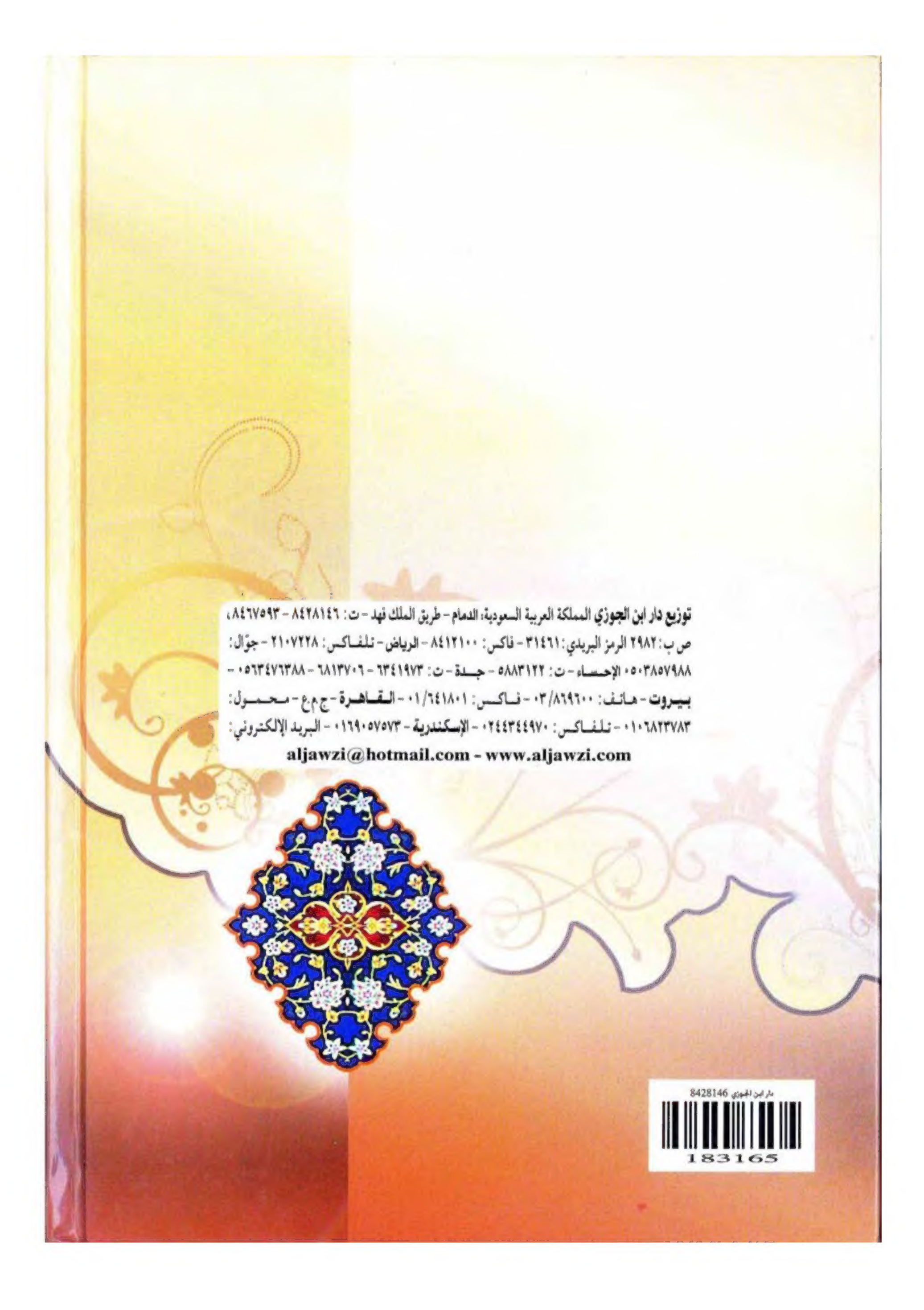
الموضوع | الصفحة

توزيع دار ابن الجوزي المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣،
ص ب: ٢٩٨٢ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال:
٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ -
بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول:
٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com









توزيع دار ابن الجوزي المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣،
ص ب: ٢٩٨٢ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال:
٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ -
بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول:
٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com
دار ابن الجوزي 8428146
183165